جامعة الجزائر

كلّية العلوم الإنسانيّة و الاجتماعيّة

قسم التاريخ

المغول و علاقتهم بالقُوى المسيحيّة و الإسلاميّة في أوربّا و المشرق بين سنتي 612هـ/1215م و 659هـ/1260م

مذكّرة مُقدّمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

من إعداد الطالب: مصطفى بن حُسين.

تحت إشراف الأستاذ: د./ رشيد تومي.

السنة الجامعيّة 1429-1430هـ / 2008-2009م.

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع :

إلى خير أُمّة أُخرجت للناس تأمر بالمعروف و تنهى عن المُنكر و تُؤمن بالله.

و إلى كلّ شريف رفع راية الحق بعلم و خشية و ذاد عنه.

و إلى الشهيدين، الأستاذ الدكتور الفاضل موسى لقبال فقيد الجامعة الجزائريّة، و الأستاذة سامية سليماني شهيدة العلم، آواهما الله في خير دار.

و إلى والديَّ الذين سهرا على تربيتي و تعليمي حتّى صرت رجلاً.

و إلى أستاذي الدكتور المحترم رشيد تومي الذي آزرني و شجّعني، و علّمني من بعض ما علّمه الله، فكانت تلك بمثابة النفخ الأوّل في ميدان البحث العلمي، جزاه الله عنّا كلّ خير، آمين...

مصطفى بن حُسين.

جامعة الجزائر

كلّية العلوم الإنسانيّة و الاجتماعيّة

قسم التاريخ

المغول و علاقتهم بالقُوى المسيحيّة و الإسلاميّة في أوربّا و المشرق بين سنتي 1215م/612هـ و 1260م/659هـ

مذكّرة مُقدّمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

قائمة أعضاء لجنة المناقشة :

- د. أحمد شريفي رئيس اللجنة
- د. رشيد تومي مُقرّر
- د. عبد العزيز بوكنّة عضو
- د. عبد العزيز لعرج عضو

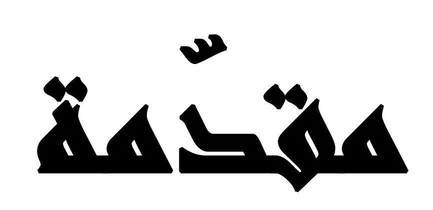
من إعداد الطالب: مُصطفى بن حُسين.

تحت إشراف الأستاذ: د./ رشيد تومي.

السنة الجامعيّة 1429-1430هـ / 2008-2009م.

أهم الاختصارات

A.I.B.L.	Academie des Inscriptions et Belles Lettres.
Ds.	Dans
C.M.H.	Cambridge Mideaval History.
C.U.P.	Cambridge University press.
D.A.	Documents Armeniens.
D.O.	Documents Orientaux.
H.O.	Historiens Occidentaux.
J.A.	Journale Asiatique.
P.U.F.	Presse Universitaire de France.
R.H.C.	Receuil des Historiens des Croisades.
SP.	Speculum.


مقدّمة

I- أهميّة الموضوع و إشكاليّته:

يُعدُّ ظهور المغول، في القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري، حدثًا له أهميّته الخاصّة في تاريخ المشرق الكبير، لما له من انعكاسات بالغة التأثير على العالمين الإسلامي و المسيحي. إذ سجّلت الساحة الإسلاميّة في المشرق، من جرّائه، تحوُّلات بارزة أثّرت أيّما تأثُّر على المشهد السياسي في هذه المنطقة. كما كان هذا الحدث إيذانًا ببعث علاقات "استراتيجيّة" بين عُنصر المغول و الصليبيّين، في أوربا و المشرق، و ذلك في إطار الحركة الصليبيّة الرامية إلى تقويض أركان الإسلام في الشرق و الغرب، كانت نتيجتُه ميلاد عصر جديد استحقّ تسميته "عصر المغول".

الواضح أنّ المشرق الإسلامي تعرّض منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، و لفترة تزيد على ثلاثة قرون، لأخطار خارجيّة، بلغت من الشدّة و العنف ما كاد يلحق الضرر بالحضارة الإسلاميّة و جاءت هذه الأخطار، أوّل الأمر، من جهة الغرب المسيحي، بإقامته إمارات الرها و أنطاكية و طرابلس و مملكة بيت المقدس، في عمق المشرق الإسلامي، و لكن ما لبث القائد صلاح الدين الأيُّوبي أن استردّ، بعد معركة حطّين(*) في 25 ربيع الثاني سنة(583هـ/1187م)، بيت المقدس و سائر ما بأيدي الصليبيّين من حصون، و لم يبق، لهؤلاء الصليبيّين، سوى أنطاكية و طرابلس و الساحل بين مدينتي صور و يافا، التي بقيت في اتصال دائم بغرب أوربّا.

و أثناء هذه الأحداث، كان يسود العالم المسيحي، ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي، أسطورة عرفت باسم : أسطورة الكاهن يوحنّا. و مفادُها أنّه سوف يظهر في الشرق البعيد أمير مسيحي يملكُ من السلطان و القُوّة ما يُمكنُه من مساعدة الصليبيّين و مهاجمة المسلمين من الشرق، و السيطرة على بيت المقدس، و انتظر الغرب الأوربّي، و الصليبيُّون في المشرق، هذه المساعدة، و لكنّها لم تتحقّق. إلاّ أنّ بوادر هذه الأسطورة بدأت تظهر حوالي عام 616-617هـ/1219م عندما بدأ المغول في اجتياح أراضي الدولة الخوارزميّة، و وصلت هذه الأخبار إلى الصليبيّين و هم يُحاصرون مدينة دمياط المصريّة في العام نفسه، و حينئذ اعتقد الصليبيُّون و الغرب الأوربّي أنّ

(*) حطّين هو اسم لتل يقع بقرب قرية اشتُهرت بوجود قبر النبيّ شعيب عليه السلام. أنظر:

محمّد مختار باشا : **كتاب التوفيقات الإلهاميّة في مقابة التواريخ الهجلريّة بالسنين الإفرنكيّة و القبطيّة**، دراسة تحقيق و تكملة الدكتور محمّد عمارة، المؤسّسة العربيّة للدراسات و النشر، ط1، القاهرة (1400هـ/1980م)، ج1، ص615.

جنكيزخان، زعيم المغول، يُمثّلُ شخص الكاهن يوحنّا، ثُمّ توالت الأخبار عن انتصار المغول في معركة نهر كالكا Kalka عام 1223م بجنوب روسيا، و هجومهم على جورجيا النصرانيّة، وبعدها هنغاريا سنة 1236م، ففزعت أوربّا بأسرها و كأنّ الغزوات الجرمانيّة قد عادت إليهم من جديد. و كان فريدريك الثاني، الأمبراطور الألماني، ممّن نادى دون جدوى سنة 1241م بحملة صليبيّة ظدّهم. ثمّ جاء دور البابويّة لتحريك العواطف ضدّ المغول و ذلك في عهد البابا جريجوري التاسع، ثُمّ البابا إنوسنت الرابع، و لكن سرعان ما تغيّر عزمهم نحو العمل على تنصير بَدْو

الإستبس الأسيويّة و هم المغول و تغيير وجهتهم إلى تدمير الإسلام و أهله، بالتحالف معهم. فتحرّكت البعثات و الإرساليّات بين الطرفين، منها مُحاولة البابويّة الرامية إلى دفع الملك الفرنسي لويس التاسع، المعروف بالقديس إلى العمل على مدّ جسور التحالف مع المغول، و هو في قبرص يستعدُّ لمهاجمة مصر. لكنّ هذه المحاولات باءت بالفشل بل إنها قوبلت بأمر، شديد النبرة، يحُثُّ الأوربيّين على إعلان الخضوع الفوري لهم مما أدّى إلى تلاشي آمال الأوربيّين في هذه المرحلة. لولا أنّ تدخُّل هيثوم الأوّل، ملك أرمينيا الصغرى، بمبادرة ناجحة و التي تمكّن بموجبها من عقد تحالف مع المغول.

أمّا المسلمون فكانوا في غفلة عن هذه الأحداث، بسبب تفكُّك عالمهم إلى إمارات متفرّقة و متشاحنة، أضعفت طاقاتها، الماديّة و البشريّة بشكل كبير، فضاعت من أيديهم مكاسب الوحدة التي حقّقها صلاح الدين الأيُّوبي في بلاد الشام و مصر، بجهود مُضنية. و قد ظهر عجز هذه الإمارات الإسلاميّة، إبّان هذه الظروف، بشكل واضح و ملموس إذ لم تلبث أن سقطت تحت ضربات التحالُف المغولي الصليبي الأرمني، بوتيرة سريعة، و لم تبق إلاّ مصر المملوكيّة التي كُتب لها أن أوقفت هذا الزحف في معركة فاصلة وقعت بعين جالوت سنة 658هـ/1260م.

و لا شكّ أنّ هناك دوافع موضوعيّة شجّعتني على خوض غمار هذا الموضوع المتشابك الأوصال منها نُدرة الدراسات العلميّة المغاربيّة المتخصّصة التي تُعالجُ مثل هذا البحث ممّا أدّى إلى عدم وفرتها في المكتبات الوطنيّة و ممّا حثّني أيضًا على تحقيق هذا العمل، توجُّه معظم اهتمامات الدارسين إلى الظواهر العسكريّة، التي كانت ساحة الشرق مرتعًا لنشاطها، فيما أُهمل جانب العلاقات الإسلاميّة الصليبيّة في ظلّ المعادلة الجديدة المتمثّلة في ظهور عنصر المغول، ولا يفوتني ذكر رغبتي في الوقوف على التطوُّرات التي عاشها المشرق الإسلامي و ما انجرّ

عنها من تكالب الصليبيّين عليه، و مُحاولة ربطها بما يجري في الوقت الحاضر من مُستجدّات من حيث أسبابها و دوافعها و نتائجها.

و لإنجاز هذا الموضوع الذي يحملُ عنوان "المغول و علاقتهم بالقُوى المسيحية والإسلامية في أوربّا و المشرق بين سنتي 1215م/612هـ و 1260م/659هـ "، وضعتُ خطّة يقوم هيكلها على أساس مقدّمة و ثلاثة فصول و خاتمة.

وقد عنونت الفصل الأوّل: " قيام دولة المغول"، تناولت فيه الوضع السياسي لأهمّ الدول المعاصرة للأحداث، ثُمّ تطرّقت إلى الكشف عن أهم القبائل التركيّة و المغوليّة التي أسهمت في بناء إمبراطوريّة جنكيزخان، و انتمائها الديني، و أخيرًا انتقلت إلى توضيح موجز عن ظروف قيام دولة المغول و توسُّعاتها في عهد جنكيز خان، و في هذا الفصل وقفتُ، و بإيجاز شديد، عند فتوحات المغول بعد وفات جنكيزخان على الرغم من أنّ جُزءا منها خارجٌ عن الإطار الزمني المطروح في هذه المذكّرة و ذلك للإشارة إلى امتداد هذه الدولة بعد وفاة باعثها.

أما الفصل الثاني، فقد حرصت فيه على توضيح الاتصالات الحثيثة بين الصليبيّين، شرقيّين كانوا أو غربيّين، و المغول قصد قهر الإسلام، و السيطرة على بلاد الشام، فكان عنوانه :

" العلاقة المغوليّة الصليبيّة حتّى معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م "، فاستهلت بداية هذه الدراسة بالتنقيب حول ظروف إتصال البابويّة بالمغول، و كيفيّتها، و خاصّة أسبابها الظاهرة منها و الخفيّة. ثُمّ انتقلت إلى دراسة اتصال السلطة الزمنيّة الأوربيّة بالمغول، و ظروفها، و مُسبّباتها، و أخيرًا انتقلت إلى دراسة أهمّ علاقة صليبيّة مشرقيّة بالمغول، و المتمثّلة في اتصال ملك أرمينيا الصغرى - هيثوم الأوّل- ، و عُمق تأثيرها على العالم الإسلامي الشرقي بالدرجة الأولى، ثُمّ العالم الصليبي في الشرق و الغرب.

و كمقابل لذلك التحالف أردت أن أبرز في الفصل الثالث تخاذل المسلمين و تفرقهم إزاءه، ما أسفر عن سقوط معقل الإسلام في الشرق، المتمثّل في الخلافة، علي أيدي أولائك البدو و أهمّ التيّارات الإسلاميّة المشاركة فيه، فأعطيتُهُ عُنوان: " علاقة المغول بالمسلمين حتّى معركة عين جالوت"، تطرّقت فيه إلى ذكر بدايات الصدام المغولي الإسلامي و أسبابه الظاهرة و الخفيّة خاصة، منها تحريض كلّ من الخليفة العبّاسي الناصر و الطائفة الإسماعيليّة للمغول حتّى ينقضُّوا علي الدولة الخوارزميّة ببلاد فارس و ما ورء النهر. ثُمّ انتقلت إلى دراسة ظروف و أسباب ونتائج تخاذل الإمارات الإسلاميّة و تحالف بعضها و بعض وُجهائها، أمثال الوزير ابن العلقمي

ونصير الدين الطوسي المنجّم، الشيعيّين الرافضيّين، مع المغول لتدمير بغداد و ما بعدها، وحاولت في هذه المرحلة من البحث إبراز الدور المسيحي و الصليبي، العسكري منه و العقائدي، في اجتياح المغول و خُلفائهم للعراق و بلاد الشام. ثُمّ انتقلت إلى ظروف و بوادر فشل الحلف الصليبي المغولي ضدّ مصر، و سبب انكسارهم في معركة عين جالوت الشهيرة.

و في الخاتمة توصّلتُ إلى بعض النتائج حول الصراع الحضاري الصليبي الإسلامي خلال الفترة الممتدّة بين ظهور المغول على الساحة الإسلاميّة إلى غاية انكسارهم في معركة عين جالوت، و علاقة ذلك الصراع بهذه القوّة المغوليّة الناشئة. كما استعنتُ أيضًا ببعض الأدوات العلميّة التي ساعدتني على تعميق دراسة بعض جوانب هذا البحث و فهمها فهمًا واضحًا و جيّدًا.

II- عرض لأهمّ مصادر هذا البحث:

اعتمدت في إنجاز هذا البحث على مجموعة متنوعة من المصادر. و هي تنقسم إلى قسمين بارزين : أ- المصادر الأجنبيّة، ب- المصادر العربيّة.

أ- المصادر الأجنبيّة:

لا شكّ أنّ المصادر الأجنبيّة تحتل مكانة بارزة في هذا الموضوع، إذ أفادتني في تغطية جانب هام من العلاقات المغوليّة الصليبيّة، و يأتي في مُقدّمتها كتاب المبعوث **يوحنّا دي بلان دي كربين Jean de Plan de Carpin**، و الذي يحمل عنوان **تاريخ المغول** (Historia Mongolarum)(1). هو مبعوث البابا إنوسنت الرابع إلى المغول سنة 1246م، و كان أحد أوائل تلاميذ القديس فرانسوا St Francois d'Assise، رائد هيأة السيسترسيان Cistercien الدينيّة. ولد بإيطاليا، في منطقة تدعى "بلانو- كربينو" Plano-Carpino بناحية بيروجيا Pérouse حوالي سنة 1182م، تنقّل ما بين سنتي 1221م و 1241م من إيطاليا و ألمانيا حتّى إسبانيا لنشر المذهب الفرانسيسكاني، و حين ظهر خطر المغول على أوربّا كان هو من أوائل مبعوثي البابا إليهم لثنيهم عن مُهاجمة أوربا و محاولة تنصيرهم، و حين عودته نصّبه البابا إنوسنت الرابع أسقفًا لمنطقة أنتفاريا Antvari في دلماشيا Dalmatie، و كانت وفاته سنة 1251م في روما أو "بيروز".و قد ساعدني كتابه في كشف مراحل و ظروف سفارته إلى المغول، و الذي احتوى على

---

(1) إعتمدتُ على الترجمة الفرنسيّة و الإنجليزيّة منها. أنظر :

Forestetter(Michel), **Voyageurs Etrangers en Russie** : Textes choisis du X^{e} au XX^{e} Siécle, la Table ronde, Paris, 1947 ; Charton (M. Édouard), **Voyageurs Anciens et Modernes**, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855 ; Dawson, **The Mongol mission**, first edition, London, 1955.

وصف دقيق لأحوال المغول و بيئتهم. و يليه في الأهمية مُذكّرات المبعوث الملكي الفرنسي **وليم روبروك Guillaume de Rubrouck**(1)، و هو من مواليد قرية فرنسيّة قريبة من مدينة كسيل Cassel، أمّا عن تاريخ ولادته فهي مجهولة عند جمهرة المؤرّخين، و لاكنّهم يقدّرون أن يكون سنّه في سنة 1253م ما بين الخمسة و الثلاثين، و الخمسة و الأربعين سنة، و على هذا يكون قد ولد حوالي سنة 1215م أو قبل ذلك. كان مسيحيًا و ينتمي للجيل الفرانسيسكاني الثاني، إلاّ أنّه لم يُقابل القديس فرانسوا، و كان صديقًا للويس التاسع، ملك فرنسا، حيث انظمّ إلى حملته الصليبيّة على مصر، و شهد هزيمته أمام مماليك مصر، و كان سفير لويس إلى المغول سنة 1252م، فقابل "باتو" على نهر الفولجا، و مانكوخان في قوراقورم.

ترك لنا وليم روبروك كتابه، طريق السفارة إلى الشرق (Itenerarium ad Partes Orientales)، و هو عبارة عن رسالة طويلة ذكر فيها ما شاهده في سفره و الطريق التي سلكها، و الحياة اليوميّة للمغول، و احتكاكه بهم، و المفاوضات التي أجراها مع المغول بُغية التحالف معهم ضد المسلمين، و على هذا تعتبر هذه الرسالة مصدرًا من الدرجة الأولى، بحكم أنّ صاحبها هو نفسه طرفاً في الأحداث.

و ثمّة مصدر آخر له أهميّته البالغة في هذه الدراسة و هو للمبعوث البابوي **سيمون دي سانت كانتين Simon de Saint Quentin**(2)، و هو الدومنكاني الذي رافق أسكلين، المبعوث البابوي الرئيسي إلى المغول. أمّا كتابه فهو تحت عُنوان "تاريخ التتر" (Historia Tartarum)، و الحقيقة أنّ أصل هذا الكتاب مفقود و لم يجد الباحث لترجمة صاحبه شيء، إلاّ أن المؤرّخ Vincent de Beauvais المعاصر له ذكر في مستهلّ دراسته للمغول في كتابه Speculum historiale أنّه اعتمد على مصدرين أساسيّين هما "يوحنّا دي بلان دي كربين"، و " سيمون دي سانت كانتين"، و لهذا كان من اليسير استخراج أصل Historia Tartarum عن طريق المقارنة بكتاب Historia Mongolarum المعلوم أعلاه.

---

(1) إعتمدتُ على الترجمة الفرنسيّة و الإنجليزيّة منها. أنظر :

Guillaume de Rubruk, traduction et commentaire de Claude et René Kapler : Voyage dans l'Empire Mongol, Payot, Paris, 1985 **;** Dawson, **The Mongol mission**, first edition, London, 1955.

(2) أنظر :

Simon de Saint Quentin ,Histoire des Tartares, publier par Richard Jean, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1965.

يُسرد هذا المصدر بعض أحداث بعثة أسكلين إلى الشرق، حيث قابل بايجو و هو أحد كبار أمراء المغول في بلاد فارس، و رجوعه إلى المقر البابوي بالرد المغولي و في صحبته مبعوثان مغوليّان إلى أوربّا، هما أيبك Aybeg وسرجيس (أو سركيس) Sargis المسيحيّين النسطوريّين، لمقابة البابا في إيطاليا.

و أُشير أيضًا إلى المُؤرّخ **هيثوم Hayton**(1) الذي يُعتبر كتابه من أهمّ المصادر الأرمينيّة التي كُتبت في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، حول تاريخ و جغرافية الشرق الأسياوي وعلاقته بالمغول، و هو بعنوان: زهرة تواريخ أرض الشرق (بلاد الشرق) La Flor des Estoires de la Terre d'Orient.

و تكمن أهميّته في أنّ صاحبه، هو إبن أخ الملك هيثوم الأوّل(1223-1268م)، ملك أرمينيا الصغرى الذي تحالف مع المغول و دخلت عساكره بغداد إلى جنب هولاكو، وكان مولده في حوالي سنة 1230م، ثُمّ قضى معظم طفولته في بلاط عمّه الملك، فسمع منه و اطلع على وثائق الأحداث، أظف إلى ذلك احتمال تمثيله للأُمراء الأرمن في بلاط خانات التتر، خاصّة عند غازان(أو قازان، إلخان بلاد فارس من 1295م إلى 1304م) و الذي كان يعرفه جيّدًا. و قد أشار هيثومHayton أنّه كان شاهد عيان عن فترة حكم "أبقا خان" منذ توليته عرش المغول سنة 1265م، حتّى نهاية مؤلفه حول التتر عام 1305م. أمّا كتابه هذا فقد قُدّم للبابا كليمانت الخامس(Clément V) في بواتييه Poitiers شهر أوت من سنة 1307م.

يحتوي كتاب Hayton على أربعة أقسام:

يصف أوّلها أربعة عشر إمارة آسيويّة ابتداءً من الصين (Cathay, Chine) حتّى بلاد الشام و أرمينيا، أمّا ثانيها فهي ذكر مختصر لمختلف الأحداث التي مرّت بالأسر الحاكمة العربيّة منها و التركيّة منذ عهد الرسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ألى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، و أمّا القسم الثالث، فهو أطولها، و هو مخصّص لتاريخ المغول منذ جنكيزخان إلى غاية بداية

---

(1) La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, dans Recueil des Historiens des croisades, Documents Armeniens, publication de l'academie des inscriptions et belles letters, Paris, 1869-1906.

و اعتمدتُ أيضًا على النسخة الفرنسيّة المترجمة :

La Fleur des Histoires de la Terre d'Orient, ds Regnier-Bohler, Croisades et Pélerinage, Récit Chronique et Voyages en Terre Sainte XII[e]-XVI[e] siècle, éd. Robert Laffont, Société Asiatique, Paris, 1997.

و انظر أيضًا :

بوعماما(فاطمة) : **العلاقات الخارجيّة لمملكة أرمينيا الصغرى منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتّى سنة1375م،** رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، إشراف د. إبراهيم فخار، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعيّة (1414-1415هـ/1993-1994م)، غير منشورة، ص 10-11.

القرن الرابع عشر الميلادي، و أخيرًا يأتي القسم الرابع و هو عبارة عن دراسة معمّقة حول الحَرْب الصليبيّة و بيت المقدس قام بها المألّف بطلب من البابا كليمانت الخامس.

و أذكرُ أخيرًا **الكونيتابل سمباد Le Connetable Sembad** و هو أخو ملك أرمينيا الصغرى، هيثوم الأوّل، و ابن البارون الكونستال قسطنطين، وُلد سنة 1208م، و كان شابًا لمّا استدعاه الملك ليون الأوّل، ملك أرمينيا الصغرى، إلى بلاطه ليكون له عونًا في تسيير شؤون البلاد، و بعد وفاة هذا الأخير عام 1219م، انتقل الحكم إلى العائلة الروبينيّة بزواج هيثوم الأوّل من إيزابيلا، الوريثة الشرعيّة الوحيدة لليون الأوّل، و بهذا الشكل صار سمباد أكثر إحاطة بأُمور المملكة.

و قد ترأس سمباد السفارة التي بعث بها الملك الأرميني هيثوم الأوّل إلى قراقورم، عاصمة كيوك خان، عام 1246م لتهنئته و طلب التحالف ضدّ المسلمين في الشرق عامّة و قونية خاصّة، لاسترداد المدن الأرمينيّة التي اغتصبها هؤلاء، و قد ترك لنا سمباد معلومات هامّة حول هدف زيارته للخان المغولي من خلال الرسالة المؤوّخة في عام 1243م و التي بعث بها إلى هنري ملك قبرص، زوج أخته سديفنيه، و هو في طريقه إلى قراقورم، و المنشورة في:

Guillaume de Nangis, **vie de saint Louis**, Rec. Des historiens de Gaules et de la France, Academie des Inscriptions Et belles letters, Paris 1840, T. XX, p. 360.

و بقي سمباد يحتفض بمنصبه حتّى وفاته عام 1276م، كما ترك كتاب بعنوان :

Chronique du royaume de la petite Arménie

مجموع ضمن مجموعة المؤرخين الأرمنيّين :

Recueil des Historiens des croisades, Documents Armeniens, publication de l'academie des inscriptions et belles letters, Paris, 1869-1906, T.I.

و يبدأ القسم الأوّل منه من مستهلّ سنة 400 للتقويم الأرميني الموافق لسنة 952م، و هو عبارة عن اختصار لما جاء به كل من "متى الرهاوي" و "جريجوار الراهب"، أمّا القسم الثالث فيبتدأ تأريخه من سنة 1152م، ثُمّ أضاف سمباد إلى كتابه معلومات خاصّة انتقاها إمّا من المصادر الملكيّة بمدينة سيس أو من المعلومات الخاصّة حسب الأحداث التي عاينها أو وصلته أخبارها وكلّ ذلك بحكم منصبه في مملكة أرمينيا الصغرى، و قد انتهى من تأليفه لكتابه هذا سنة 1274م، أي سنتسن قبل وفاته.

ثُمّ أكمل مؤلّف مجهول كتابه من عام 1286م إلى سنة 1331م، و لم يكتفي هذا المؤلّف المجهول بالإكمَال، بل أثراه أيضًا ببعض المعلومات التي غفل عنها سمباد. و يظهر ذلك من خلال استعماله للضمير - هو- إشارة إلى سمباد، و كذا أُسلوبه التي طغت عليه العبارات العاميّة بعكس أُسلوب الكونيتابل سمباد(1).

ب- المصادر العربيّة:

تكتسي المصادر العربيّة أهميّة كبيرة في دراسة موضوع هذه المذكّرة، و لا تقلُّ في الدرجة عن مثيلاتها الأجنبيّة، و خاصّة فيما يتعلّقُ بالعلاقات الثُلاثيّة، و أعني بذلك المغوليّة و الإسلاميّة و المسيحيّة، و يأتي في مُقدّمة هذه المصادر الكتاب المُسمّى **السلوك لمعرفة دول الملوك** لصاحبه مؤرّخ الديار المصريّة، و هو أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العبّاس الحسيني العبيدي تقي الدين **المقريزي**(766-845هـ/1365-1441م)(2)، و أصله إلى حارة المقارزة، ببعلبك في أيّامه، ولد ونشأ و مات في القاهرة، اتصل بالملك الظاهر برقوق المملوكي، و دخل دمشق مع ولده الناصر سنة 810هـ/1404م، ثُمّ عاد إلى مصر.

له عدّة مؤلّفات، و لعلّ أهمُّها الذي ذكرتُ آنفًا، و هو في جزئين لكُلّ جُزء منها قسمين، يشتمل على عدّة أحداث للحروب الصليبيّة، و تاريخًا للمغول منذ ظهورهم إلى معركة عين جالوت، ثُمّ ينتهي عند بعض سلاطين المماليك، إذ استهلّ مُؤَلّفه ابتداء من عام 577هـ/1182م، ليتوقّف عند سنة 822هـ/1418م.

و ثمّة مصدر آخر يُعدُّ من الدرجة الأولى ضمن دراسة هذا الموضوع، و هو كتاب المُؤرّخ **ابن الأثير** عز الدين أبو الحسن علي بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الجَزَريُّ الشَّيبانيُّ، ابن الشيخ الأثير أبي الكرم، مُصنّف "**التاريخ الكبير**" الملقّب "**بالكامل في التاريخ**"، و مصنّف كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة"، و غيرها.

مولده بجزيرة ابن عمر(*) على ضفاف الدجلة بالعراق عام(555هـ/1160م)، نشأ بها، ثُمّ

---

(1) أنظر: Sĕmpad Le Connétable, **Chronique du royaume de la petite Arménie**, ds R.H.C., D. A., publication A.I.B.L., Paris 1869-1906.

(2) المقريزي:**السلوك لمعرفة دول الملوك**، نشره و علّق عليه الد كتور محمّد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، 1956م.

(*) هي مدينة بناها ابن عمر و هو الأمير عبد العزيز ابن عمر البرقعيدي. أنظر:
الذهبي : **سيرة أعلام النبلاء**، تحقيق "بشّار عوّاد معروف" و "مُحيي الدين هلال السحان"، مؤسّسة الرسالة، ط4، بيروت (1406هـ/1986م)، ج22، ص353-355.

تحوّل إلى الموصل و توفّي به عام 630هـ/1238م.

صنّف كتاب "الكامل في التاريخ" في اثني عشر جزءًا، تطرّقتُ إلى ثلاثة من طبعاته(1)، و هي عبارة عن حوليّات، أفادتني، أيّما إفادة، خاصّة عندما تطرّقتُ إلى دراسة جانب العلاقات بين الدولة الخوارزميّة و مغول جنكيزخان. و على الرغم من قيمة المُصنَّف البارزة لما تميّز به من علميّة و دقّة في تناول الأحداث فإنّه يُؤاخذُ على صاحبه غفلته عن ذكر أحداث الجانب الأوربي و علاقتهم بالمغول، و لعلّ ذلك راجع لتعذُّر مثل هذه الأخبار، خاصّة و أنّ المسلمين كانوا في زمانه منشغلين بالفتن الداخليّة المتتاليّة، ما جعلهم يُقصّرون في بثّ العيون في تلك الأصقاع البعيدة.

و تجدُرُ الإشارة أيضًا إلى مصدر آخر من الطراز الأوّل، له أهميّته البالغة في هذه الدراسة، و هُو المُؤَلّف المُسمّى **"جامع التواريخ"** لصاحبه فضل الله(رشيد الدولة، أو رشيد الدين) ابن أبي الخير(عماد الدولة) ابن علي(موفق الدولة) أبو الفضل **الهمذاني**(ت.716هـ/1316م)(2)، من المشتغلين بالفلسفة و الطب و التاريخ، قال عنه الذهبي: "كان له رأي و دهاء و مروءة". اتصل بإلخان التتار "محمود غازان" و خدمه بطبّه إلى أن ولي الوزارة له، ثُمّ اتُهم باليهوديّة و الإلحاد بعد موت الإلخان "خدابنده" و أُحرقت كُتبه بعد قتله، فبقي منها "جامع التواريخ" في أربعة مجلّدات، بالعربيّة و الفارسيّة. و قد استعنتُ في دراستي هذه بقسمين من كتابه ذاك، أعني "تاريخ غازان" و "تاريخ المغول في إيران"(3).

و اعمدتُ كذالك على كتابين مُهمّين **لابن العبري :** غريغوريوس(و اسمه في الولادة يوحنا) ابن أهرون (أو هارون) ابن توما الملطي، أبو الفرج المعروف بابن العبري، أو Aboul-Pharajius باللاتينيّة، أو Bar-Hebræus.

هو مؤرّخ سرياني مستعرب، من نصارى اليعاقبة. ولد في ملطية(من ولاية ديار بكر) و فرّ مع أبيه إلى أنطاكية، سنة 639هـ/1243م، بسبب هجوم المغول، فتعلّم العربيّة و الطب، و اشتغل

(1) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة المطبعة الدمشقيّة و المكتبة التجاريّة، القاهرة (1348- 1358هـ)، و طبعة دار صادر، بيروت (1402هـ/1982م)، و طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة (1400هـ/1980م).

(2) أنظر : خير الدين الزركلي: **الأعلام**(قاموس التراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقين)، دار العلم للملايين، ط7، بيروت- لبنان- (مايو 1986م)، ج5، ص 152.

(3) الهمداني: **جامع التواريخ** (تاريخ غازان خان)، دراسة و ترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1420هـ/2000م، و جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، ترجمة محمّد صادق نشأة، و محمّد موسى هنداوي، و فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، مايو1960م.

بالفلسفة و اللاّهوت، كان أسقفًا لليعاقبة في حلب، ثُمّ ارتقى إلى رتبة "جاثليق"، أي رئيس رؤساء الكهنة السريانيّين في بلاد المشرق و العراق و فارس و ما إليهما، على كرسي المشرق سنة 661هـ/1264م، و توفّي في مراغة، بأذربيجان، سنة 685هـ/1286م. له خمسة و ثلاثين مصنّفًا في علوم مختلفة، منها "تاريخ الدول" باللغة العربيّة و يُعرف بمختصر الدول، انتهى به إلى سنة 683هـ/1284م، استعنتُ بطبعتين مُختلفتين منه، و آخر بعنوان "تاريخ الزمان"، جمع فيهما بعض المعلومات الهامّة عن "بني أُرتق" السلاجقة و عن المغول في آسيا الصغرى و بلاد ما بين النهرين و سوريا، و هذين المُصنّفين ضمن بيبليوغرافيا هذه الدراسة(1). و قد أفادني كتابًا أخر لا يقلُّ أهميّة عن غيره لصاحبه بدر الدين **العيني** (ت. 855هـ/1451م)، أصله من حلب، و وُلد بقرية تُدعى عين طب، و سكن القاهرة، أمّا مُؤلّفه فيحمل عنوان "عقد الجمان"، و هو حسب الباحث "حاجي خليفة" في كتاب تراجمه، يحتوي على تسع عشرة مجلّد، و يحتوي جُزء منها على معلومات غزيرة حول الحروب التي دارت بين سلاطين مصر و فرنجة سوريا ابتداء من سنة(621هـ/1224م) إلى سنة(679هـ/1281م)، و قد أستعنتُ به في الإطلاع على التعصُّب الصليبي في مدينتي دمشق و حلب في الفترة التي أحكم هولاكو قبضته عليهما(2).

و أذكر في ختام هذا العرض الوجيز المؤرخ **ابن تغري بردي** أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي، ولد بمصر و توفي سنة 874هـ/1470م، و قد ألّف كتبًا كثيرة، منها "المنهل الصافي" و"البحر الزاخر"، أمّا أهمُّها و هو ما اعتمدتُ في دراسة هذا البحث فهو تحت عنوان "**النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة**"(3)، و قد جاء في شكل حوليات احتوت على تاريخ مصر منذ الفتح الإسلامي إلى غاية سنة 856هـ/1452م، يذكر فيه مؤلّفه العمليّات الحربيّة المصريّة ضدّ الفرنجة. بينما كان المنهل عبارة عن قاموس لتراجم الرجال المسلمين الفُضلاء ابتداء من سنة 650هـ/1252م إلى زمان المُصنّف، و أمّا البحر الزاخر، فهو ذات حجم ضخم يحتوي على تاريخ حُكّام مصر ابتداء من سنة 32هـ/652م و تمتدُّ إلى غاية الثلث الأخير للقرن الأوّل الهجري.

(1) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول**، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، 1418هـ/1997م، و طبعة المطبعة الكاثوليكيّة، ط1، بيروت، آب1958م، و تاريخ الزمان، نقله إلى العربيّة الأب إسحاق أرمَلة و قدّم له الأب جان مُوريس فييْه، دار المشرق، بيروت، 1406هـ/1986م.

(2) العيني **:** منتخبات من كتاب عقد الجمان، ضمن مجموعة المؤرخين الشرقيّين. أنظر :
Recueil des Historiens des croisades, Documents Orientaux, publication de l'academie des inscriptions et Belles Letters, Paris, 1869-1906.

(3) ابن تغري بردي : **النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة**، طبعة دار الكتاب، مصر، دون تاريخ.

و هناك نصوص، هامّة و معاصرة لهذه الفترة، استمدتُها من بعض المراجع كما وردت في المصادر و التي تعذّر عليّ اقتناءها في الجزائر. أخُصُّ منها بالذكر كتاب **طبقات ناصري** لصاحبه أبو عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين **الجوزجاني**، المتوفى سنة 698هـ، و كتاب تاريخ جهانكشاي لعلاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمّد **الجويني**(623-681هـ)، و أخيرًا كتاب **تاريخ وصاف** للمؤرّخ **وصاف الحضري** المعروف **بالشيرازي.**

غير أنّني واجهتُ عدّة صُعوبات أثناء إنجاز هذا البحث و هي ميزة ترتبط بكل بحث في علم التاريخ، منها نقص بعض المصادر الهامّة على مُستوى المكتبات المحليّة و التي إن وُجدت سابقًا فإنّها تعرّضت للإتلاف و الضياع. و أذكر أيضًا الترجمة التي كلّفتني مشقّة كُبرى و وقتا طويلاً، وذلك لتعريب النصوص الأجنبيّة ذات العلاقة بهذا البحث، و خاصّة ما تعلّق منها بالنصوص اللاتينيّة و الإنجليزيّة و الفرنسيّة. لكن على الرُغم من هذه الصعوبات العلميّة فقد توصّلتُ إلى بناء هذا الموضوع العلمي المُتواضع الذي لا يخلو، دون شك، من النقائص و العيوب التي يتميّزُ بها كُل بحث علمي أكاديمي، و في هذا الصدد، لا يفوتُني أن أعتذر لأعضاء اللجنة المُمتحنة الموقّرة، عمّا صدر فيه من أشكال هذا الخلل. و ينبغي الإشارة إلى أنّ ميدان العلاقات بين الشرق و الغرب، إبّان العُصور الوُسطى، ما يزال ميدانًا خصيبًا للدراسة و ينتظر من يكشف عن أسراره ومكنوناته، و من ثَمّ أتمنّى أن أكون قد وضعتُ لبنة جديدة في صرح البحث العلمي بالجزائر.

كما لا يسعني في ختام هذه المقدّمة إلاّ أن أتقدّم بالشكر و الإمتنان إلى كُلّ الذين ساعدوني على إنجاز هذه المذكّرة المتواضعة، و أخُصُّ منهم بالذكر الأُستاذ المشرف "رشيد تومي". و كذلك عُمّال المكتبة الوطنيّة و الجامعيّة الذين خدموني بإخلاص و تفان كبيرين و وفّروا لي كُلّ المُستلزمات الضروريّة لتحقيق هذه الغاية العلميّة المنشودة.

و الله أسأل أن أكون قد وُفّقتُ إلى ما أصبو إليه و هو المولى "نعم المولى و نعم النصير".

مصطفى بن حُسين.

الفصل الأوّل

قيام دولة المغول

I- الأوضاع السياسيّة في آسيا قبيل نشأة دولة المغول:
1- الصين
2- الدولة الخوارزميّة
3- الإسماعيليّة(شيخ الجبل)
4- روسيا
5- الخلافة العبّاسيّة
6- الدولة الأيُّوبيّة(مصر و الشام)
7- الإمارات الصليبيّة .
8- أرمينيا .
9- دولة سلاجقة الروم و الإمبراطوريّة البيزنطيّة
II- التركيبة الجنسيّة لبلاد منغوليا:
1- الأتراك الإيغوريُّون
2- الأتراك القراخطائيُّون (الخطا)
3- قبائل البدو
- التتر
- المغول
- قوم كريت (Kerait)
- قوم مركيت (Markit)
- قبائل أويرات(Oirat) أو أويراد (Oyirad)
- قبائل نايمان
- أتراك القرلق
- قبائل القرغيز
- الأتراك الأوغوز
III- تأسيس دولة المغول:
1- المغول قبل جنكيزخان
2- جهود جنكيزخان في توحيد المغول
3- توسُّعات جنكيزخان في آسيا
4- توسُّعات المغول بعد جنكيزخان

I- الأوضاع السياسيّة في آسيا قُبيل نشأة دولة المغول:

سجّلت منطقتا آسيا و أوربّا ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري تطوُّرات سياسيّة و عسكريّة هامّة طبعت بشكل ملحوظ العلاقات بين الشرق و الغرب. و قد ميّز هذه التطوُّرات ذلك الصراع الحاد، الطويل و المتشعّب و الذي دارت رحاه بين المسلمين والمسيحيّين، و ما يُمثّله الطرفان من شخصيّة دينيّة و حضاريّة، صراع يُجسّدُ امتدادًا طبيعيًا لما اصطلح عليه المؤرّخون بالحروب الصليبيّة.

إنّ هذه المرحلة التاريخيّة، إذا كانت قد اذنت ببُروز جنس المغول على ساحة الاحداث والذي اشتهر بخشونة طبعه و سلوكه العنيف، فإنّ هذا الاخير-أي عنصر المغول- شكّل محور هذه المستجدّات الغزيرة و دافع عجلتها قُدُمًا.

و كانت أيضًا للاوضاع السياسيّة الدوليّة مكانتها في بعث هذا العنصر الجديد المتميّز بأهمّ أشكال التنافس بين الديانتين المسيحيّة و الاسلام.

إلاّ أنّ هذه الاوضاع في آسيا، و عبر أجزاء واسعة منها، و أوربّا قد عُرفت بالتقلُّبات المتسارعة الطافحة ممّا حوّل هذين العاملين إلى ميدان خصب لديناميكيّة نشطة و فعّالة أثّرت بشكل أو بآخر على المشهد السياسي العالمي في ذلك العصر.

1- الصين:

لقد شكّلت بلاد الصين زمن ظهور المغول المحور الأساسي لأهمّ التطوُّرات السياسيّة والعسكريّة في آسيا. حيث تحوّلت إلى ساحة صراع مرير بين أسرتيْن صينيّتين مُتجذّرتين هما: أسرة "سونج" Song و أسرة "كين" Kin. إنّ أسرة سونج سيطرت على الصين الجنوبيّة، واتّخذت مدينة "هانج تشو" Hang Tcheoعاصمة لها، فيما تربّعت أسرة "كين" Kin على عرش ممالك الخطا (في شمالها) فضلاً عن اقليمي منشوريا و منغوليا، و عاصمتها بكين ، و التي انتقلت بعدها إلى مدينة "كاي فونج" Cai Fong، و كان المغول يُطلقون على حكَّام هذه الأُسرة لقب "التون خان".

تعود بداية حكم أسرة سونج Song بالجنوب إلى شهر فبراير سنة 960م، و كان مؤسّسه "تشاوْ كووَانج يين Tchao K’ouang-Yin، الذي عُرف باسم "تاي تسو" T’ai-Tsou(960-976م)، و قد اشتهر هذا الاخير بالدور الذي لعبه في إحلال السلم في هذه المنطقة بعد حرب أهليّة

استمرّت ما يزيد عن سبعين عامًا و كذا بنجاحه في إعادة توحيد الإمبراطوريّة في هذا الجزء بعد خمس عشرة سنة من القتال(1)، هذا بعد أن كانت مقسّمة إلى سبعة أقاليم متنازعة(2).

على أنّ نشاطه العسكري لم يتوقّف عند هذه المكاسب و إنّما استمرّ في مواصلته هو وأخوه "تاي تسو" و تمّ بسط سيطرة الاسرة على كامل انحاء الصين، منها منطقة أنام ANNAM وعاصمتها "هانوي" على بحر الصين، ما عدا أقاليم أقصى الشمال المعروفة باسم "هوبي" (بكين Ho-Pei (Pékin، و "شان سي" (تاتونج)(Chan-Si (Ta-T'ong و التي تحكُمُها منذ سنة 936م اسرة "ليؤو" Leao من فرع الخطائيّين (الخطا)(*)، و كان من الطبيعي أن تتّجه أنظار "تاي تسونج"، خليفة "تاي تسو" إليها لإنهاء فتحها فهاجم بكين Pékin في جويلية 979م، وكانت

(1) Grousset(René), **Histoire du Moyen Age : l'Asie Orientale des origines au XV siécle**, Paris, P.U.F., 1941, p. 263 ; Ibid, **Histoire de la Chine**, édition Fayard, Paris 1942, pp. 216-217 ; Lévy(Roger), **Trente siécles d'Histoire de Chine**, P.U.F. , Paris 1967, 1ere edition, p. 119 ; Escarra(Jean), **la Chine: passé et present**, collection Armand Colin, Paris 1949, p. 51.

(2) تُشكّل هذه الاقاليم امارة "وُو" Wou التي حكمتها أسرة "يانجْ" Yang (902-937م)، ثمّ أُسرة "سيُو" أو "لي" "Siu" ou "Li"(937-975م) التي غيّرت اسم الإمارة إلى "نان تانج" Nan-T'ang. و إمارة "وُو يُو" Wou-Yue التي حكمتها أسرة "تسيين" Ts'ien(907-978م)، و كانت عاصمتها "هانج تشوُو" Hang-Tcheou. و إمارة "مين" Min(909-944م)، ثمّ في سنة(333هـ/944م) دُمّرت هذه الإمارة و تقاسم أملاكها إمارتان هُما : أسرة "نان تانج" Nan-T'ang و أسرة "وُو يُو" Wou-You. و إمارة :كانت أوّلا تحت اسم "كينج نجان" King-Ngan ثُمّ "نان بينج" Nan-p'ing تحكمها أسرة "كاوْ" Kao(914 أو 925-963م). و إمارة "تشو" Tch'ou(907 أو 927-952م)، و كانت عاصمتها "تشانج شا" Tch'ang-Cha، ثمّ صارت تحت سيطرة أسرة "نان تانج" Nan-T'ang ابتداءً من سنة (341هـ/952م). و إمارة "نان هان" Nan-Han(909-971م). و إمارة "شو" Chouو عاصمتها "تشينج تُو" Tch'eng-Tou (المسمّاة في ذلك الوقت "يي Yi) (907-918م)، ثمّ جاءت أُسرة "وانج" Wang، فسيطرت عليها إلى غاية سنة 925م، العام الذي سيطرت عليها بدورها عائلة "هييُو تانج" Heou-T'ang، و لكن ما بين سنتي 930م و 933م عادت إمارة "شو" Chou إلى السيطرة لتسقط نهائيًا سنة 965م. أنظر:

Grousset(René), Histoire du moyen Age, pp. 258-259.

(*) ميّز المؤرخ الصيني " Hou Kiao " بين K'i-tan و Leao، إلاّ أنّه ذكر انتسابهما لنفس الجنس، فلا بدّ أنّهما يشكلان فرعين لقبيلة واحدة لا تبعد مساكنهم عن بعضها البعض، تحالفتا فيما بعد مع قبائل أخرى لتشكّل دولة الخطا. أنظر:

Hou Kiao, **Relation de Hou Kiao** , Traduction de Chavannes (M. Éd.), Voyageurs chinois chez les Khitan et les Joutchen, Journal Asiatique, Paris, Mais-Juin 1897, T. 9, pp. 404-405.

تُسمّى في ذلك الوقت "ييوُو تشيوُو" أو "يين كينج" Yeou-Tcheou ou Yen-King(*)، لكنّه فشل في محاولتين له لاقتحام قاعدتهم، هذا على الرغم من الهزيمة التي أنزلها بالجيش الخطائي سنة 989م. على أنّ هذا الضغط العسكري لم يُؤدّي إلى ازالة تهديد الخطا بل ظلّ خطرهم جاثمًا على الحدود الشماليّة الشرقيّة للامبراطوريّة و زاد للوضع تفاقمًا تحرُّكات عناصر التانجوت Les Tangout في مناطق الشمال الغربي، حيث احتلّ ملكهم الخطائي Ye-Liu Long-Siu سنة 1004م عدّة مدن جنوبيّة حتّى وصل مشارف العاصمة "كاي فونج" K'ai-fong، و لم يفصلهُ عنها إلاّ النهر الأصفر le Fleuve Jaune، إلاّ أنّ صُلحًا لم يلبث ان عُقد في السنة نفسها بين الطرفين، فساد الأمن و الأمان نسبيًا في إمبراطوريّة "سونج"، و بقيت Pékin و Ta-T'ong(**) للخطا، و Pao-Ting و Ning-Wou للصينيّين و هي مناطق حدوديّة بين الدولتين(1).

على أنّ هذا الصلح انفرط عقدُه بسبب التحالف الذي جرى بين امبراطور السونج "هوي تسونج" Houei-Tsong و الأمير أكوتا Akouta (1113-1123م) زعيم عناصر الجورتشيت

---

(1) أنظر: Grousset(René), Histoire du moyen Age, p. 259, 264, 266 ; Idem, Histoire de la Chine, pp. 217-219 ; Lévy(Roger), op.cit., p. 120 ; Eberhard(W.), **Histoire de Chine**, traduction de Georges Deniker, Paris, Payot, 1952, p.229 ; Lombard(Denys), **la Chine imperial**, Éd. Que Sais-je, Présse universitaire de France, Paris, 1967, p. 81 ; Roux(Jean-Paul), **Histoire de l'empire Mongol**, Librairie Arthéme Fayard, Paris 1993, p. 32.

أمّا Yeou-Tcheou (Yen King) فهي عاصمة الخطا الجنوبيّة، و قد بيّن علماء الآثار الصينيُّون أنّ المدينة التي ملكها الخطا (Leao) ثُمّ أسرة كين كانت تتواجد جنوب غرب بكين الحاليّة(Pekin). أنظر:

Chavannes (M. Éd.), op.cit., p. 393 note 1, 415 note 4.

(*) ذكر أحد السفراء الصينيّين هذه المدينة باسم "Yeou" و هي العاصمة الجنوبيّة للخطا و توافق مدينة بكين الحاليّة، و لكنّ علماء الآثار الصينيّين برهنوا أنّ هذه المدينة التي حكمتها أسرة "كين" بعد انهزام الخطا، كان موقعها الحقيقي الجنوب الغربي لمدينة بكين. لمزيد من المعلومات ارجع إلى :

Kouo tche, **Relation de Wang I**, Traduction de Chavannes(M. Éd.),ds Voyageurs chinois chez les Khitan et les Joutchen, J.A., Paris, Mais-Juin 1897, T. 9, p. 415, note 4.

(**) Ta-T'ong أو Ta-T'ing هي العاصمة الوسطى للخطا Leao . أنظر:

Song Hoan, **Relation de Song Hoan**, Traduction de Chavannes (M. Éd.), op.cit., J.A., Mai-Juin 1897, p. 428 note2, 438.

Voir aussi : Kouo tche, op.cit., p.426, note 2.

Djurtchét(*) القاطنة بغابات شمال شرق منشوريا Manchourie(1). و الواقع انّ هذا التحالف، الذي كان موجّهًا ضدّ الخطا للسيطرة على بكين، سرعان ما أعطى ثماره في الميدان حيث استولت "الجوتشين" Joutchen على عدّة أقاليم خطائيّة ما بين سنتي 1114م

و 1122م منها بكين Pekin التي سلّمتها تنفيذًا لبنود التحالف كهديّة للسُونج Song سنة1123م، و لم تصمد دولة الخطا أمام هذه الهجمة العسكريّة المنشقّة حيث سقطت مع آخر ملوكها "يي ليو يين هي"Ye-Liu Yen-Hi سنة 1125م (2). و نجحت جوتشين إثر ذلك في تأسيس امبراطوريّة لها على أنقاض بلاد الخطا، و عُرفت فيما بعد بأمبراطوريّة "كين" أي (الذهب)(Kin (Or) ، تحكمها أسرة "وان يين" Wan-yen(3).

و بقيام دولة جوتشين انتهت مرحلة السلم و الوفاق بين الإمبراطوريّتين المتجاورتين "سونج" و "كين" التي اعتلى حكمها إبن " أكُونتا" حيث اندلعت الحرب بين الطرفين، فاستولت هذه الأخيرة على أقاليم عدّة. و كان أن استسلم الإمبراطور "هوي تسونج" Houei-Tsong،

و نُقل إلى عاصمة "كين" المسمّاة "نينج كيان" أو "هوي نينج" ("Ning-Kin" ou "Houei-Ming") جنوب نهر "خاربين" Kharbin، في عُمق اقليم منشوريا، أوائل سنة 1127م، غير أنّ أحد أفراد أسرة إمبراطوريّة سونج، و هو كَاوْ تسونج Kaw-Tsong، استطاع الإفلات من الكارثة و الفرار إلى جنوب الامبراطوريّة، و بمدينة نانكين وراء نهر "يانج تسو" Yang-Tseu

---

(1) أنظر: Grousset(René), Histoire du moyen Age, p.268 ; Idem, Histoire de la Chine, p. 233 ; Lévy(Roger), op.cit., p. 125 ; Roux, op.cit.,p. 41 ; Chavannes, ds Voyageurs chinois chez les Khitan et les Joutchen, Introduction, ds J.A., Mai-Juin 1897, p. 385 ; Latourette(Kenneth Scott), **A Short History of the far east**, New York, the Macmillian company, 4th Edition, 1964, p. 127.

(2) أنظر: Grousset, Histoire du moyen Age, pp. 268- 269 ; Idem, Histoire de la Chine, p. 234 ; Roux, op.cit., p. 41 ; Eberhard, op.cit., p. 229, 236 ; Chavannes, Ibidem.

(3) أنظر: Grousset, Histoire du moyen Age, p. 268 ; Idem, Histoire de la Chine, p. 236 ; Lombard, op.cit., p. 82 ; Eberhard, op.cit., p.236 ; Chavannes, op.cit., pp. 384-385.

قد يعني مصطلح Wan-Yen (Wang بالصينيّة)، الأمير (Prince). و يذكر بيليوت أنّ إمبراطوريّة كين Kin تأسّست منذ سنة (906ه/1115م). أنظر:

Pelliot(Paul), **Sur Quelques mots d'Asie central attestés dans les texts chinois, III. Saman**, dans J.A., Paris (Mars- Avril)1913, pp. 466-467, 467 note 1.

(*) تذكر المصادر الصينيّة موقع الجورتشيت، في أقصى شرق آسيا، وراء دولة الخطا، و هم صيّادون مهرة، يعيشون على الترحال مسايرين الطبيعة. تُكتب بالصينيّة جوتشين Joutchen، اشتهرت بالخشونة و طبيعتها البدويّة الحادّة، و تنتمي إلى فرع الطونقوس Toungous و الذي ينحدر منه الأتراك و المغول أيضًا. أنظر: Ngeou Yang-sieou, op.cit., p.404.

نصّب نفسه امبراطورًا ما بين 13 مايو- 11 جوان سنة 1127م و اتخذت أسرته اسم "سونج الجنوب" Song du Sud. و في هذه الأثناء واصل جيش "كين" زحفه نحو الجنوب، حيث ملاذ "كاوتسونج"، فاستولى على العاصمة الجديدة Nankin بعد أن فرّ منها هذا الاخير و كانت أقصى نقطة بلغتها هذه الحملة هي "نينج بو" Ning- Po أواخر سنة1129م أوائل سنة1130م، ثمّ رجع الجيش أدراجه إلى الشمال سنة1130م بعد شعوره بخطر تماديه في التوغُّله جنوبًا. و في سنة1132م تمكّن الإمبراطور "كاو تسونج" (سونج) من العودة إلى مدينة "هانج تشيؤو" Hang-tcheou، حيث استقرّ فيها إلى أن ظهر الغزو المغولي(1). لكن بعض المعارك لم تلبث أن نشبت بين الجارتين، كين و سونج، إلى أن جرى الصلح بينهما سنة 1138م لأنّ المغول، أسلاف جنكيزخان، قد بدءوا يُغيرون على "كين" من جهة شمال الامبراطوريّة المُحاذية لصحراء جوبي Gobi بمنغوليا، ما بين سنتي1135م و1147م (2). و ابتداء من سنة1151م تحوّلت بكين إلى عاصمة لأمبراطوريّة كين. و بعد عشرة سنوات أي سنة 1161م تجدّدت المعارك بين كين

و سونج تخلّلتها فترات من الهدوء الهشّ، و كان بإمكان امبراطوريّة "كين" السيطرة على جميع انحاء بلاد الصين، لولا انشغالها بمواجهة الخطر المغولي الوافد من الشمال الذي سقط فعلاً سنة 1215م تحت ضربات القائد الأسيوي جنكيزخان، و وحّد طوائف المغول سنة1206م، أمّا امبراطوريّة "سونج" في الجنوب فلم تعبأ بهذه المستجدّات السريعة اذ ظلّت بعيدة، غافلة عن خطرها الداهم الذي سيلحقها و يلتهمها لا محالة(3).

هكذا أضحت ساحة بلاد الصين(شمالاً و جنوبًا) ميدانا عارمًا للصراعات العسكريّة

و المناورات السياسيّة دخلت الصين بموجبها عهدًا قوامه الفوضى و عدم الاستقرار، وضع اثّر دون شك على مستقبل هذه البلاد حيث مهّد السبيل للاحتلال المغولي لها حينًا من الدهر.

---

(1) أنظر: Grousset, Histoire du moyen Age, p. 270, 271 ; Idem, Histoire de la Chine, pp. 234-235, 236 ; Latourette, op.cit., p. 127 ; Lévy, op.cit., p. 126. ; Eberhard, op.cit., p. 231, 236 ; Escarra, op. cit., p. 52 ; Lombard, op.cit., p. 82 ; Chavannes, op.cit., pp. 385-386.

(2) أنظر: Grousset(R.), Histoire du moyen Age, p. 272.

(3) أنظر: Grousset, Histoire du moyen Age, p. 273 ; Idem, Histoire de la Chine, p. 236, 270 ; Eberhard, op.cit., p.232.

2- الدولة الخوارزميّة:

كانت الدولة الخوارزميّة تحتل مكانة لا يُستهان بها ضمن المشهد السياسي بالمشرق الإسلامي و الذي تميّز ابّان الغزو المغولي بالضعف و الفتن و النزعات المستمرّة سواء في العراق أو أيران أو في مصر و الشام. قامت الدولة الخوارزميّة في أرض إيران اثر تفكُّك الدولة العبّاسيّة، و مؤسّسها هو "أنوشتكين"(470-490هـ/1077-1096م) أحد عناصر المماليك لدى السلطان ملك شاه الإيراني (465-485هـ/1072-1092م). كان أنوشتكين عبدًا اشتراه أحد أُمراء السلاجقة من غَرْجسْتَانُ(*)، ثمّ شغل منصب "الطشتدار"(**)، إلى أن نُصّب حاكمًا على إقليم خوارزم سنة(490هـ/1096م) أو (499هـ/1096م)، ثُمّ لُقّب ب "خوارزم شاه" (1).

كان أنوشتكين و خلفاؤه يتحيّنُون الفرص للانفصال عن الخلافة العبّاسّة و الدولة السلجوقيّة الضعيفة بإيران، و هو ما تحقّق في عهد خلفائه حينما تحالفوا مع الخطا الصينيّين، فأوقعوا الهزيمة بسنجر سنة 536هـ/1141م، و أخذ خوارزم شاه مدينة مَرْو. و لمّا تُوفّي السلطان سنجر السلجوقي سنة 552هـ/1157م انضمّ إقليم السلاجقة في خرسان و فارس إلى الدولة الخوارزميّة، فامتدّت من جبال الأورال بوسط آسيا إلى حدود نهر الفرات بالعراق و من حدود الخليج العربي

---

(1) المقريزي : **السلوك لمعرفة دول الملوك**، نشره و علّق عليه الد كتور محمّد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية، القاهرة(مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر) 1956م، ج1، قسم2، ص294، حاشية 3 ؛ العمري: **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، مخطوط مصوّر، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة و الإسلاميّة في إطار جامعة فرانكفورت، يُصدرها فؤاد سزكين بالتعاون مععلاء الدين جوخوشا و إيكهارد نويباور، مطبعة شتراوس، هيرشبرج، ألمانيا الإتّحاديّة، (1408ه/1988م)، ج26، ص308-309 ؛ حافظ أحمد حمدي : **الدولة الخوارزميّة و المغول**(غزو جنكيزخان للعالم الإسلامي و آثاره السياسيّة و الدينيّة و الاقتصاديّة و الثقافيّة)، دار الفكر العربي، القاهرة 1949م، ص25 ؛ النسوي : **سيرة جلال الدين منكبرتي**، نشر و تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة 1953م، ص2، 34. و انظر أيضًا:

Bartold, **Turkestan down to the Mongol Invasion**, London 1928, p.323.

و خوارزم شاه: لقب لعدّة ملوك ولاّة السلجوقيّة بما وراء النهر عُرفت دولتهم بالدولة الخوارزمشاهيّة. أنظر: **دائرة المعارف الإسلاميّة**، تأليف بطرس البستاني، دائرة المعارف، بيروت، لبنان(دون طبعة و دون تاريخ)، مادّة خوارزم شاه، ج7، ص495.

(*) غَرْجسْتَانُ أو غَرْشسْتَانُ، ولاية بين غزنة و كابل و هراة و بلخ، و تُعرف اليوم على لسان أهل خرسان بالغور.

أنظر : ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار بيروت للطباعة و النشر، لبنان (1399هـ/1979م)، ج4، ص193-194.

(**) الطشتدار هو أحد الموظّفين الذين يعملون في "الطشت خانة" أي المكان الذي يحوي الطشت أي الإناء الذي تُغسل فيه الأيدي، و الطشت الذي تُغسل فيه الأقمشة. و كان الطشت خانة يحوي ملابس السلطان و كذا المقاعد و المخاد و السجاد الذي يُصلّي عليه السلطان، و يُعرف بعض الصبيان الذين يعملون في هذا المكان بالطشت داريّة، و يُعرفُ بعضهم الآخر بالرختوانيّة. أنظر:

القلقشندي : **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تصنيف محمّد قنديل البقلي و إشراف سعيد عبد الفتّاح عاشور، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميريّة، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر، القاهرة (1390هـ/1970م)، ج4، ص 10-11 ؛ النسوي :المصدر نفسه، ص 2، 34، و 68، حاشية 1.

حتّى حدود نهر السند، ثُمّ ضمّ السلطان تكش خوارزم شاه(568-596هـ/1172-1199م) أراض جديدة إلى دولته، بعد أن قضى على طغرل الثالث بن ألب أرسلان آخر سلاطين السلاجقة في العراق، بإيعاز من الخليفة العبّاسي الناصر لدين الله، و ذلك في ربيع (590هـ/25 مارس 1194م)، و أرسل رأسه إلى بغداد(1). و بعد هذه الانتصارات كلّها نالت الأسرة الخوارزميّة التقليد الرسمي على هذه البلاد من قبل الخلافة العبّاسيّة عام 595هـ/1199م، و يروي ابن الأثير في هذا الصدد "أنّ الخليفة العبّاسي الناصر لدين الله قد سيّر عسكرًا إلى نجدة خوارزم شاه، الذي كان في مُحاربة طغرل، و سيّر الخلع إلى خوارزم شاه و ولده قطب الدين محمّد و قلده ما بيده من البلاد، فلبس الخلعة سنة(595هـ/1198م)(2).

على أنّ تكش لم يقنع بهذه المكاسب الاقليميّة مُهدّدًا بذلك أركان الخلافة العبّاسيّة كلّها ممّا أدّى بالخليفة الناصر لدين الله إلى محاولة احباط أطماعه بتحريض القوى السياسيّة المجاورة ضدّه كدولة الغوريّين و القراخطائيّين الصينيّين(*). و لكن حدث أن أقرّ تكش مبدأ المهادنة فحسّن علاقته مع هؤلاء الجيران. و قد سار ابنه علاء الدين محمّد خوارزم شاه(596-617هـ/1199-1220م) على منواله في تثبيت أسس الدولة الخوارزميّة و توسيع حدودها حيث بلغت في عهده أقصى توسُّعها اذ انتزعت قلعة ترشيش في نواحي نيسابور بإقليم خراسان ردحًا من الوقت من الحشّاشين الشيعة الاسماعيليّة كما ضمّ إلى حوزته أراضي الغوريّين الواقعة بأفغانستان و غرب الهند و استولى أيضًا على أراضي القراخطائيّين بغرب تركيستان. و بسقوط هذه الاخيرة وصلت

(1) ابن خلدون: المصدر نفسه، ج5، ص 94 ؛ ابن الأثير: الكامل(طبعة دار صادر)، ج 11، ص 81-82، 222-223 ؛ ابن القلانسي: المصدر نفسه، ص 345 ؛ القلقشندي: المصدر نفسه، ص 447 ؛ المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص 37 ؛

عبد النعيم حسنين: **إيران و العراق في العصر السلجوقي**، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، لبنان(1402هـ/1982م)، ص 137- 139. و انظر أيضًا : Roux(Jean-Paul), op.cit., p. 179.

(2) ابن الأثير، الكامل(طبعة دار صادر)، ج12، ص 108، 152 ; المقريزي، السلوك، ج1، ق 1، ص 40 ; حافظ أحمد حمدي، المرجع نفسه، ص 30. و انظر أيضًا :

Encyclopedie de l’Islam, Publié par M. TH. Houtsma, A. J. Wensinck, E. Lévi-Provençal, H. A. R. Gibb et W. Heffening, Paris, Librairie C. Klincksieck, 1934, Article Tughril II, T. IV, p.871.

(*) و الخطائيّون أسّسوا دولة لهم في إقليم تركستان في مستهل القرن السادس الهجري(الثاني عشر الميلادي) على يدي " يي لوتاشي"Ye-lu Ta-shi، و سبّبت هذه الدولة متاعب للمسلمين إذ كانت توسُّعاتهم على حساب البلاد الإسلاميّة. أمّا المغول فقد أضافوا لفظ "قره" Kara إلى اسم الخطا، فأصبحوا يسمّون " قره خطا" Khitai Kara. و لفظ قره أو قرا، لفظ مغولي أو تركي معناه أسود. أمّا سبب وصفهم بلون السواد فغير معروف، و لعلّ ذلك راجع للعداوة القائمة بين المغول و الخطائيّين. أنظر: النسوي: المصدر نفسه، ص36 حاشية 3 ؛ حافظ أحمد حمدي: المرجع نفسه، ص 63 حاشية **4**.

حدود دولته إلى تخوم الصين دون أن يفصلها حاجز عن المغول(1).

إنّ الوئام الذي كان يسُود بين علاء الدين محمّد و الخليفة الناصر لم يلبث ان تعكّر صفوه ممّا أثّر على ساحة الاحداث في كلّ من فارس و العراق. فبعد رفض الخليفة العبّاسي أن تُقرأ الخُطبة باسم خوارزم شاه في بغداد دبّت الازمة بينهما و بلغت من الشدّة ما جعل هذا الاخير يفتكُّ فتوى من الائمّة تسمح له بخلع الخليفة الناصر و تنصيب محلّه واحد من العلويّين. و في عام 614هـ/1217م سيّر جيشًا إلى بغداد لعزله عن العرش لولا عواصف ثلجيّة بكردستان حالت دون تحقيق ذلك فعاد أدراجه، هذا فضلاً عن خشيته من مباغتة المغول له بشنّ غزو على إقليم ما وراء النهر(2).

و الواقع أنّ دولة الخوارزميّة، اذا كانت تظهر بمظهر القوّة و البأس بفضل ما حقّقته من انتصارات عسكريّة متواليّة، فإنّ وضعها الداخلي لم يكن على ما يُرام بل يُنذر بالتفكُّك و الانهيار بسبب الحساسيّات العرقيّة القائمة بين عنصر التاجيك الإيراني و العنصر التركي، و كانت

---

(1) فؤاد عبد المعطي الصيّاد: **المغول في التاريخ**، بيروت، دار النهضة العربيّة، 1970م، ج1، ص 63 ؛ ابن الأثير: المصدر نفسه(طبعة دار صادر)،ج12، ص 153، 173-226،177- 230 ؛ النسوي: المصدر نفسه، ص 46 ؛ ابن الأثير: الكامل (طبعة دار صادر)، ج 12، ص267 ؛ ابن خلدون: المصدر نفسه، ج5، ص105-107 ؛ حافظ أحمد حمدي: المرجع نفسه، ص 58، 63، 80.

و عن نشاط علاء الدين محمّد في تحقيق هذا المشروع التوسُّعي، ارجع إلى :

ابن الأثير: المصدر نفسه(طبعة دار صادر)، ج 12، ص 226-230، 268-269، 303، 309 ؛ النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 48 ؛ ابن خلدون: **العبر في ديوان المبتدأ و الخبر**، مؤسّسة الأعلمى، بيروت 1971م، ج5، ص517-518 ؛

رشيد الدين الهمداني: **جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)**، ترجمة محمّد صادق نشأة، و محمّد موسى هنداوي، و فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، مايو 1960م، ج1، ص 91 ؛ الباز العريني: **المغول**، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، بيروت 1981م. ص 108- 112 ؛ فؤاد عبد المعطي الصيّاد، المرجع نفسه، ص63-65. و انظر أيضًا :

Roux(Jean-Paul), op.cit., p. 179.

(2) ابن خلدون: المصدر نفسه ، ج5، ص 118 ؛ الباز العريني: المرجع نفسه، ص 111 ؛ أبي الغازي بهادر خان: **شجره ترك** (تاريخ الشعوب في آسيا الوسطى)، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة و الإسلاميّة في إطار جامعة فرانكفورت، يُصدرها فؤاد سزكين، ترجمه إلى الفرنسيّة البارون ديسميزونس Baron Desmaisons مطبعة شتراوس، هيرشبرج، ألمانيا الإتّحاديّة، (1415هـ/1994م)، رقم 226، ص108.

و انظر أيضًا : Roux(Jean-Paul), Loc.cit.

و ما وراء النهر: يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان من شرقه يقال له بلاد الهياطلة و في الإسلام سموه ما وراء النهر، و ما كان من غربيّه فهو خراسان و ولاية خوارزم، و خوارزم ليست من خراسان إنّما هي إقليم برأسه. أنظر:

ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج5، ص45.

مؤسّسة الجيش أكثر تعرُّضا لهذا التمزُّق، و يعود ذلك إلى اعتمادها على عساكر مأجورة قد يهتزّ ولاءها في كلّ وقت فاضطرّ السلطان محمّد شاه إلى التعامل معها بحكمة و حنكة كبيرتين(1). و ما زاد لهذا الوضع قتامة الازمة التي بات يعيشها بلاط السلطان حيث تحوّل هذا الأخير (البلاط) إلى بؤرة توتُّر حاد بين أم السلطان توركان خاتون و ابنه جلال الدين، و كان أن تحمّل السلطان من جرّائه أجواء لا قبل له بها، انعكست سلبًا على نفسيّته و كذاعلى علاقته بمن لفّ حوله قريبًا أو بعيدًا(2).

لكن هذه الصعوبات لم تُثني من عزيمة السلطان محمّد على تقويض أركان الخلافة العبّاسيّة و تعويضها بخلافة شيعيّة، و من ذلك لم يجد غضاضة من الارتماء في أحضان طائفة الشيعة التي اعتنق مبادءها. و التي كان الخليفة العبّاسي الناصر قد أوْعز إلى إحدى طوائفها، و هي الاسماعيليّة، بقتل القائد "أغلمش" مُمثّل السلطان الخوارزمي بالعراق العجمي بل حرّضها على استهداف كلّ الخوارزميّين دون استثناء. و سعيًا لتحقيق هدفه بادر علاء الدين محمّد خوارزم شاه باختيار رجل علوي من مدينة " ترمذ"(*) بالتركستان يُسمّى علاء الملك وخطب له على منابر الدولة الخوارزميّة، و سكّ اسمه على العملة بعد أن قطع الخطبة للخليفة العبّاسي الناصر، فدخلت الدولتان (العبّاسيّة و الخوارزميّة) في توتُّر شديد أضعف قدراتهما(3)، الأمر الذي مكّن المغول، اثناء غزوهم، من القضاء عليهما في وقت وجيز.

3- الإسماعيليّة:

كانت طائفة الاسماعيليّة أو الحشّاشين(الباطنيّة)(**) تحتلُّ مكانة هامّة في المشهد السياسي بمنطقة الشرق الاسلامي لما لها من دور فعّال في ساحة الاحداث، و كان لها أكبر الأثر على

---

(1) الباز العريني: المرجع نفسه، ص112- 113.

(2) الهمذاني: المصدر نفسه، ج1، ص 97 ؛ الباز العريني: المرجع نفسه، ص114 -115.

(3) أبي الغازي بهادر خان: **شجره ترك** (تاريخ الشعوب في آسيا الوسطى)، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة و الإسلاميّة في إطار جامعة فرانكفورت، يُصدرها فؤاد سزكين، ترجمه إلى الفرنسيّة البارون ديسميزونس Baron Desmaisons مطبعة شتراوس، هيرشبرج، ألمانيا الإتّحاديّة، (1415هـ/1994م)، ص 107-108 ؛ حافظ أحمد حمدي: المرجع نفسه، ص 47- 48.

و انظر أيضًا : Bartold, op.cit., p.323.

(*) ترمذ، من أمّهات المدن، على نهر جيحون من جانبه الشرقي، و المشهور من أهلها "الترمذي" صاحب السُنن. أنظر : ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 26-27.

(**) سمّيت هذه الطائفة بالإسماعيليّة، لانتساب دعوتهم لإسماعيل بن جعفر الصادق، و سمُّوا بالباطنيّة أيضًا، لأنّهم كانوا يُبطنون دعوتهم و يدعون لها سرًا، كما سمُّوا بالملاحدة لأنّ مُغالاتهم وصلت بهم إلى الإلحاد، و سمُّوا بالفداويّة لأنّهم كانوا يأخذون فدية أنفسهم نظير من يُسلّطون عليه و يقتلونه. و من جهة أخرى يُشير ابن خلدون أيضًا إلى أنّ الباطنيّة كأنوا =

الأوضاع السياسيّة و العسكريّة و الاجتماعيّة إبّان القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.

يُعتبر الحسن الصبّاح المؤسّس الحقيقي لهذه الفرقة في إيران، ولد في "قُم" Qum في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي و توفي في 06 من ربيع الثاني 518هـ/1124م، بدأ نشاطه بالاستيلاء على عدد من المناطق الايرانيّة زارعًا الخراب و الهلع في قلاعها حتّى نجح في تأسيس سلطة قويّة تجاوزت حدود بلاده، و قد اتخذت هذه الطائفة في خضمّ الحركة الصليبيّة الأولى في القرن الثاني عشر الميلادي، سوريا موطنًا لها، و بين ثنايا جبالها الوعرة أقام أميرها الملقّب بشيخ الجبل مركزه ليكون حصنًا لحركته، و كانت قلعته "ألموت" Alamut التي استولت عليها هذه الطائفة سنة 494هـ/1090م، عاصمة للاسماعيليّة هي الاخرى ببلاد فارس حيث تحوّلت إلى قاعدة انطلاق لهجماتها على الإمارات المجاورة لها، و اغتيالاتها لأمرائها، و محاربتها لصلاح الدين الأيُّوبي و حلفائه خاصّة في عهد سنان مقدّم الإسماعيليّة الرهيب المتوفّى عام 588هـ/1192م. و كانت القاعدة عندهم هي اغتيال الحكّام الأقوياء المجاورين لهم في بلاد الإسلام، و إشاعة الفوضى، و زعزعة الاستقرار فيها، و من ذلك تسبّبوا في انهيار قوى سياسيّة إقليميّة منها السلجوقيّة و ذلك بسبب تصفية رموزها الفعّالة(1)، و في سنة 487هـ/1094م استولى الإسماعيليّة على قلعة "شاهدر" المُشْرِفَة على أصفهان بفارس، فهدّدوا الدولة السلجوقيّة، ما حمل السلطان محمّد السلجوقي(498-511هـ/1105-1118م) على إحتلالها عام 500هـ/1106-1107م

= يتّصلون بالصليبيّين في بلاد الشام و يُساعدونهم ضدّ صلاح الدين الأيُّوبي الذي كان قد قضى على الخلافة الفاطميّة الشيعيّة، و أنّ بعض الحكّام المسلمين كانوا يستأجرونهم لقتل خصومهم السياسيّين سواء كانوا من المسلمين أو غيرهم. أنظر:

ابن خلدون: تاريخه(طبعة بروت1971م)، ج5، ص 291،26 ؛ النسوي: المصدر نفسه، ص51 حاشية 1.

(1) ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول**، المطبعة الكاثوليكيّة، الطبعة الأولى، بيروت (آب سنة 1958م)، ص266 ؛ ابن الأثير: الكامل، طبعة دار صادر، بيروت، ج10، ص 317، ج11، ص 419، 436. و انظر أيضًا :

Guillaume de Tyr, **Continuation de Guillaume de Tyr, de 1229 à 1261, dite du Manuscrit de Rothelin**, R.H.C., H.O., Paris 1869-1906, T. II, chapitre XVII, p. 523 ; Max Van Berchem(M.), **Épigraphie des Assassins de Syrie**, dans J. A., Paris, (Mais-Juin) 1897, T. 9, p. 453, 464, 472 ; Lewis(Bernard), **les Assassins**, éd. Berger-Levrault, Paris, Avril 1982, pp.75, 80-81, 85, 88-90, 101, 142,144.

و من بين هذه الرموز ما ذكره أبو شامة في قوله: " وزّر نظام الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي للسلطان ألب أرسلان و ولده السلطان ملك شاه أربعًا و ثلاثين سنة، أي أربعة سنوات قبل تولّي ألب السلطة، قيل قتله أحد صبية الباطنيّة سنة 485هـ". أنظر : أبو شامة (شهاب الدين): **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة و الصّلاحيّة**، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط1، مؤسّسة الرسالة،بيروت (1418هـ/1997م)، ج1، ص 99.

و القضاء على زعيمها أحمد بن عبد الملك(1).

و هكذا فقد كانت هذه الطائفة عُنصُر اضطراب و فتنة ساهمت في انقسام القوى الإسلاميّة و إضعافها، و هو ما سهّل مُهمّة المغول و الصليبيّين على حد سواء في منطقة الشرق الإسلامي ونجاحهم في القضاء على مُقدّراتها(2).

4- روسيا:

تُعتبر روسيا الارثوذوكسيّة(*)، بحكم موقعها الجغرافي الضارب في آسيا، أكثر الدول تعرُّضًا لبلاء الغزو المغولي. و قبل ظهور المغول على الساحة الروسيّة، و المعروفة بالكييفيّة La Rus'de Kiev، عاشت هذه الاخيرة أوضاعًا مضطربة لا تُحسد عليها و ذلك من جرّاء الحروب الطاحنة و الطويلة التي استحكمت بين الإخوة الستة إثر وفاة أبيهم ياروسلاف عام 1054م. و ممّا زاد هذا الصراع اشتعالاً لجوء هؤلاء الإخوة الورثة المتخاصمين إلى العناصر الأجنبيّة كالبولنديّين و المجريّين و قبائل القفجاق(**) البدويّة للاستعانة بسواعدهم ضدّ بعضهم. و قد استمرّت هذه الاضطرابات المفعمة حتّى بعد هذه الازمة حيث امتدّ لهيبها إلى عام1223م تاريخ ظهور المغول على أديم روسيا. و إبّان هذه المرحلة الحالكة المتمادية قاست روسيا كربًا

(1) ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، بيروت (1326هـ/1908م)، ص 153 ؛ عبد النعيم حسنين: **سلاجقة إيران و العراق**، المكتبة التاريخيّة، القاهرة، 1959م، ص 98-99 ؛ حافض أحمد حمدي: **الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي**، دار افكر العربي، ط1، القاهرة(1420هـ/2000م)، ص 74-75.

و انظر أيضًا : Lewis(Bernard), op.cit., p.88, 92, 93.

(2) الديار بكري: **الخميس في أحوال أنفس نفيس**، المطبعة الوهبيّة، القاهرة (1283هـ/1866م)، ج2، ص 362 ؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، طبعة بيروت (آب سنة 1958م)، ص266 ؛ فؤاد عبد المعطي الصيّاد: المغول في التاريخ، ص 74 ؛ حافض أحمد حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص 76.

و انظر أيضًا : Lewis(Bernard), op.cit., p. 164.

(*) Orthodoxe، أخذت روسيا بالمذهب الأرثوذوكسي في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي، و ذلك في عهد الحاكم فلاديمير (972-1015م)، و الإرثوذوكسيّة مصطلح مركّب يعني المذهب القويم أو السليم، تمّ إقرارُه أثناء المجمّع الكنسي العالمي الذي انعقد في مدينة نيقية بآسيا الصغرى عام 325م. أنظر :

Rambaud(Alfred), **Histoire de la Russie depuis les Origines jusqu'à l'Année 1877**, Librairie Hachette et Cie, Paris 1878, p. 58.

(**) كان البلغار و الكومان و الذين يسمّون أيضا بَالُوزين Palowziens، يقطنون شمال بحر قزوين بين أنهار الإياك و الفولجا و التناي، و كان الكومان أقرب إلى هذا النهر الأخير. و يسمّي الكومان بلفظ "قفجاق Kaptschaks". و هم ذووا أصول تركيّة شرقيّة، كانوا يحتلّون جنوب روسيا حتّى القرن الثاني عشر الميلادي، و تحاربوا مع بيزنطة، و امتزجوا آخر الأمر مع سكّان بلغاريا و هنغاريا و القبيلة الذهبيّة المغوليّة فيما بعد في القرم. أنظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص 429، 461. و انظر أيضا :

Matthiew Paris, **La Grande Chronique**, traduction de A. Huillard-Breholles, Paris 1840 (Paulin Libraire-éditeur.33 Rue de Seine- St Germain), T.5, pp.148. note 1.

ثقيلاً أتى على الحرث و النسل بهذه البلاد حتّى استحقّت هذه الفترة عنوان "السنوات المظلمة" تنافس خلالها مائة و ثلاثة و تسعون أميرًا، فيما سُجّلت ثمانون معركة وُصفت بالشراسة و الشدّة(1).

و في ظلّ هذه الفوضى حاول الأمير فلاديمير مونماخ Monmakh (1113-1125م) حفيد ياروسلاف فرض الاستقرار و الأمن في البلاد الروسيّة و نجح في إسقاف التمزُّق الداخلي لمدّة اثنيْ عشر عامًا، و تمكّن أيضًا من صدّ غارات قبائل الكومان Cumans البدويّة على حدود روسيا الغربيّة، و حارب كذلك الإمبراطور البيزنطي أليكسي كومنينAlexis comnene(2). و هكذا ظهرت روسيا في عهده نسبيًا بمظهر القوّة و العزّة لكن بعد وفاته أخذ الفساد ينخر عظام الدولة بوتيرة سريعة، و اندلع التنافس بين المدن الروسيّة حول نيل الريادة و السُّؤدد إلى أن ظهرت مدينة موسكو عام 1147م في قلب الأراضي الروسيّة الواقعة على نهر موسكوفا Moscova و هي نقطة المرور للخطّ التجاري الرابط بين نهري أوكا Oka و فولجا العليا Volga، فبسط أُمراؤها سلطتهم السياسيّة و العسكريّة على الإمارات الروسيّة المجاورة لها، و قد تعاقب على روسيا الكيفيّة ما بين سنتي 1132م و 1169م ستّة عشر أميرًا. و في عام 1169م تعرّضت مدينة كييف لاجتياح قوّات متحالفة لمجموعة من الأمراء الروس، و ذاق سكّانها خلال ثلاثة أيّام مرارة الاعتداء و النهب و التخريب، كما سجّلت أيضًا هجمات مريعة دبّرتها ضدّها القبائل الرحل القاطنة شمال البحر الأسود، و لعلّ هذه الأحداث توحي بعودة عصر الظلمات الذي كثيرًا ما خيّم على روسيا في السابق. و عندما وقعت القسطنطينيّة في أيدي الصليبيّين عام 1204م و تدهورت بيزنطة سياسيًا و اقتصاديًا من جرّاء ذلك، أصاب الحياة الاقتصادية في كييف الركود و الفتور بسبب فقدانها الدعم الذي كان يأتيها من لدن بيزنطة، و كانت نتيجة هذه التطوُّرات أن دخلت روسيا الكييفيّة عهدًا جديدًا قوامه الوهن و الضعف ثُمّ زاد هذا الوضع تفاقمًا تعرُّضها لغزوات قبائل القفجاق البدويّة، و الليثوانيّين و السويديّين الذين أرادوا السيطرة على نهر

---

(1) Hofman(Michel R.), **les Grandes Figures Slaves de russie**, Paris, ed. du sud, 1965, p. 8 ; Chadwick(Nora K.), **The Beginning of Russian History: an enquiry into Sources**, C.U.P., 1966, pp. 71-73 ; Klutchevsky(B), **Histoire de la Russie des origines au XIVe siècle**, Paris, Gallimard, 1956, p. 98 ; Kovalevsky(Pierre), op.cit., p. 54 ; Rambaud(Alfred), **Histoire de la Russie depuis les Origines jusqu'à l'Année 1877**, Librairie Hachette et Cie, Paris 1878, p. 58, 74, 81-82, 84.

(2) Florinsky(Michael T.), **Russia a Short history**, New York, The Macmillan company, 1964, p. 11, 14 ; Portal(Roger), **les Slaves: Peuples et nations**, Paris, librairie Armand Colin, 1965, p. 36 ; Kovalevsky(Pierre), op.cit., p. 65.

نيفا Neva و خرّب تجارة نوفجورود الحسّاسة، وفي الجنوب الغربي ظهر المجريُّون المندفعون نحو الشرق، و في النهاية جاءت الضربة القاضية من المغول الوافدين من الجنوب الشرقي فاكتسحوا روسيا من منطقة القوقاز عام 1223م (1). و بهذه الحركة انتهت كييف ككيان سياسي في عالم البحر الأسود ردحًا من الزمن.

5- الخلافة العبّاسيّة:

كانت الخلافة العبّاسيّة قبيل ظهور خطر المغول في آسيا الغربيّة والوسطى تعيش وضعًا لا تُحسد عليه تمامًا حيث بات ينخرها من الداخل الصراع بين العرب و الفرس و الترك، كانت نتيجته استأثار الأسر الفارسيّة بالوزارة و بلوغ العنصر التركي إلى السلطة في بغداد، ثُمّ نجاح حُكّام الشيعة من بني بُوَيْه(*) في احتواء شخصيّة الخليفة و فرض تأثيرهم عليه في بغداد، و كان بوسعهم إلغاء الخلافة العبّاسيّة و الحاقها بدولتهم بجنوب غرب ايران لولا خشيتهم من ردود فعل العالم السنّي و معارضته لهم. لا شكّ أنّ هذا الواقع السياسي السيّء إنّما يدلُّ على الضعف الذي آلت اليه الدولة العبّاسيّة. و قد بلغ ذروته في عهد الخليفة الناصر لدين الله(575-622ه/1179-1225م) الذي انحصرت سلطته في الجانب الروحي فقط، فيما لم تتعد حدود الخلافة السياسيّة منطقتي العراق العربي و خوزستان.

و في ظلّ هذه الازمات الحالكة أظهر الخليفة العبّاسي الناصر العزم على تسوية رُقعة دولته على حساب السلاجقة(**)، و من ذلك انطلق في تحريض الخوارزميّة على قتالهم و وعد قائدهم تكش خوارزم شاه بملكهم في حالة النصر، و في ذات الحين راسل الخليفة الناصر ملك

---

(1) أنظر : Ostrogorsky(Georges), **Historire de l'état Byzantin**, Payot, Paris, 1977, pp. 373– 424 ; Rambaud(Alfred),op.cit., p. 86-88, 92 ; Kovalevsky(Pierre), op.cit., p. 82 ; Florinsky(M. T.), op.cit., p. 15, 39 ; Portal(Roger), op.cit., p.36.

(*) بني بويه، نسبة لأبي شجاع بويه، كان ابنه الأكبر واليًا على الكَرَج جنوبي همذان، ثمّ احتلّ أصفهان الإيرانيّة مدّة، و في سنة(322ه/933م) احتلّ شيراز، و أعلن الدولة البويهيّة مستقلّة عن الخلافة العبّاسيّة، ثمّ دخل البويهيّون بغداد سنة (334ه/945م)، إلاّ أنّهم أبقوا على الخلافة العبّاسيّة على الرغم من انتمائهم الشيعي. سقوطت دولتهم على يدي طغرل بك السلجوقي حين دخل بغداد سنة(447ه/1055م).

ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة دار صادر، بيروت (1402ه/1982م)، ج8، ص264-267 ؛ ابن خلكان: **وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت- لبنان- (1414ه/1994م)، ج1، ص 405-406.

(**) المقصود هنا سلاجقة العراق الذين سيطروا على العراق و الري و همدان و كردستان، و قد تمكذن الخوارزميُّون من القضاء على "طغرل الثالث" آخر سلاطينهم.

الدولة الغوريّة(*)، غيّاث الدين يحُثُّه على غزو أراضي الخوارزميّة(1) فيتمّ بذلك إضعاف القوى المجاورة و المؤثّرة في المنطقة. على أنّ هذه الدسائس العسكريّة لم تجد نفعًا في الميدان لأنّ السلطان علاء الدين محمّد خوارزم شاه قد كشف أمرها و عرف خيوطها ومن ثمّ قرّر الاجهاز عسكريًا على مدينة بغداد(2). و أثناء زحفه، و في العراق العجمي، أنزل الهزيمة بقوّة عبّاسيّة يقودها الاتابك(*) سعد بن دكلا و ذلك سنة 614هـ/1217م(3). ثُمّ واصل طريقه نحو بغداد، حتّى إذا بلغ " أسد آباد بهمذان، وقع عليهم ثلج عظيم عشرين يوما، فغطّاهم في غير أوانه في فصل الخريف أهلكت العاصفة الثلجيّة جُندًا كثيرًا، و عتادًا، و دواب، و تعرّض الباقي لغارات الأتراك و الأكراد، و بلغه أنّ أمم الترك قد تألّبوا عليه، و طمعوا في البلاد لبعده عنها، فاضطرّ إلى العودة إلى بلاده و كُفي الناصر شرّه بلا قتال"(4).

و قد أثّرت هذه الأحداث سلبًا على هيبة الخلفاء العبّاسيّين، و استقلّ بعض الحكّام بولايتهم، و غدا ولاؤهم للخلافة اسميًا فقط، فيما تعرّضت الخلافة لسيطرة السلاجقة الأتراك السنيّين الذين عُرف حُكّامهم الأوائل بالسلاطين العظام، هؤلاء نالوا حظوة ملحوظة عند العبّاسيّين حيث مُنحت الأراضي و المدن لأُمرائهم الذين تسموا بالأتابكة، و عندما انهار عهد السلاطين العظام، صارت أعالي بلاد الفرات و شمال الشام ثُمَّ جنوبه عبارة عن دويلات لا تتعدّى سلطتها المدينة و ما

(1) ابن خلدون: **العبر و ديوان المبتدأ و الخبر**، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت- لبنان- (1391هـ/1971م)، ج5، ص94-95 ؛ ابن الأثير: المصدر نفسه، ج12، ص135.

(2) النسوي: **سيرة جلال الدين منكبرتي**، نشر و تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة 1953م، ص 49، 53، 64.

(3) ابن الأثير: الكامل (طبعة دار صادر)، ج12، ص316 ؛ النسوي: المصدر نفسه، ص 53- 54.

(4) السيوطي: **تاريخ الخلفاء**، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط1، مصر(1371هـ/1952م)، ص 449. و عن هذا الموضوع ارجع إلى : ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة**، طبعة دار الكتاب، مصر (دون تاريخ)،ج6، ص 219-220.

(*) الغوريُّون، أو آل شنسب: يُنسبون إلى الضحّاك الذي يُحكى أنّه حكم إيران في القديم ألف سنة و قضى على دولته أفريدون، أمّا شنب، جدّهم الذي يُسمون باسمه، فيزعم المؤرّخون أنّه كان معاصرًا لعلي بن أبي طالب و أنّه أسلم على يديه. و هم طائفتين:

الأولى: ملوك الغور بالمعنى الأخص و هم الذين حكموا في غور نفسها و كانت عاصمتهم فيروزكوه.

الثانية: ملوك طخارستان، شمال غور، و كانت عاصمتهم باميان و لذا فإنّهم يسمون ملوك باميان و غورية باميان.

و قد حكمت هذه الأسرة حكمًا مستقلاً زهاء سبع و ستين سنة(543-612هـ/1148-1215م) منذ تمكّنوا و غلبوا الغزنويّين إلى أن قضى عليهم الخوارزمشاهيّة. أنظر:

القزويني(محمّد بن عبد الوهّاب): **خُلاصة حواشيه، على كتاب "جهار مقالة" للنظامي العروضي السمرقندي**، نقله إلى العربيّة عبد الوهّاب عزّام و يحيى الخشّاب، الطبعة الأولى، القاهرة، لجنة التأليف، (1368هـ/1949م)، ص 94.

جاورها، و حدث على إثرها ذلك الصراع بين هؤلاء الأتابكة(*) و الفاطميّين في بلاد الشام(1). و الواقع انّ هذا التفكُّك السياسي يُعدُّ ظاهرة خطيرة العواقب على السلطة المركزيّة تُنذر بمستقبل مشؤوم على الخلافة العبّاسيّة برُمّتها و زاد للازمة تفاقُمًا سيْطرةبطانة السوء على الخلافة في عهد المستعصم(640-656هـ/1242-1258م) ممّا أعجز هذه الاخيرة عن مواجهةالتحدّيات التي فرضها الغزو المغولي على بلاد الشرق الاسلامي في نهاية الامر(2).

6- الدولة الأيوبيّة (مصر و الشام) :

كانت الشام و مصر في يد سلاطين بني أيّوب و أتابكتهم يسوسهم التنافس و الأحقاد بعد وفات السلطان صلاح الدين الأيّوبي سنة(590هـ/1193م)، و انقسمت دولته إلى سبعة أقسام(3) متصارعة، حتّى استعان بعضهم بأعدائهم الصليبيّين ضدّ بعضهم، و الذين طمعوا في الإستيلاء

---

(1) ابن القلانسي: **ذيل تاريخ دمشق**، مطبعة الآباء اليسوعيّين، بيروت، 1908م، ص 101الحاشية، ص 106.

(2) ركن الدين بيبرس الدوادار: **زبدة الفكر في تاريخ الهجرة**، تحقيق دونالدس ريتشاردز، الشركة المتحدة للتوزيع، ط1، بيروت، 1998م، ص 35 و ما بعدها.

(3) هذه الأقسام هي: مصر و دمشق و حلب و بلاد ما وراء النهرين و حماه و حمص و بلاد العرب. خضعت دمشق لمصر اسميًا بعد وفاة العادل، و كذالك كان حال بلاد ما بين النهرين و كانت تحت حكم أبناء العادل، أمّا حلب و حماه و حمص و بلاد العرب فكانت مستقلّة تمامًا. و هكذا فإنّ كلّ هذه البلاد، ما عدا حمص، كانت خاضعة لسلالة أيُّوب الخامس و هم صلاح الدين و العادل و توران شاه و طغتكين، أمّا حمص فكانت خاضعة لسلالة شيركوه أخي صلاح الدين.

فكان الملك الأفضل نور الدين علي (أكبر أبناء صلاح الدين) على دمشق و الساحل و بيت المقدس و بعلبك و صرخد و بصرى و بانياس و هونين و تبنين إلى الداروم قرب حدود مصر، أمّا الملك العزيز عثمان (الإبن الثاني لصلاح الدين) فقد بقي على مصر(589-595هـ/1193-1198م)، و احتفظ الثالث (الملك الظاهر غازي) بحلب و الشام (589-613هـ/1193-1215م)، و كانت الكرك و الأردن و الجزيرة و ديار بكر للملك العادل سيف الدين أبو بكر(أخو صلاح الدين) (589-613هـ/1193-1215م)، و بقيت الأقاليم الأخرى مقسّمة بين أبنائه الآخرين و أعمامه، و كذا احتفاظ البيوت القديمة الحاكمة بإقطاعاتهم مثل آل زنكي: عز الدين مسعود الأوّل ابن مودود أتابك الموصل(576-589هـ/1180-1193م) و أخيه عماد الدين زنكي الثاني بن مودود أتابك سنجار(566-594هـ/1170-1197م)، و غيرها. أنظر:

ابن الأثير: الكامل(طبعة دار صادر)، حوادث سنة 589هـ، ج 12، ص 95-101 ؛ ابن واصل: **مفرّج الكروب في أخبار بني أيُّوب**، مطبعة جمال الشيال، القاهرة(1953-1957م)، ج2، ص 378-379 ؛ سعيد عبد الفتّاح عاشور: **مصر و الشام في عصر الأيُّوبيّين و المماليك**، دار النهضة العربيّة، دون طبعة و دون تاريخ، بيروت، ص 68-69 ؛ حافظ حمدي: **الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي**، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة، 2000م، ص 122.

و انظر أيضًا:

Michel le Syrien, **Extrait de sa Chronique ou Histoire Universelle**, in R.H.C., D.A., publication de L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T.I, p. 404.

(*) و الأتابك هو الذي يُربّي أولاد الملوك، فالأتا، بالتركيّة، هو الأب، و بك هو الأمير، و هكذا فإنّ اللفظ بمعنى " الأمير الوالد" أو " أبو الأمير". و كان سلاطين السلاجقة يعهدون في تربية أبنائهم إلى المقرّبين إليهم من الأتراك، ثمّ صاروا أصحاب النفوذ الفعلي في البلاد من خلال نصائحهم لأمراء المدن(أبناء السلطان)، أو مناصبهم كقُوّاد جيوش الدولة السلجوقيّة. أنظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص 241 ؛ النسوي: المصدر نفسه، ص 52 حاشية 5 ؛ القلقشندي: المصدر نفسه، ج4، ص18 ؛ عبد السلام محمّد هارون: **معجم مقيّدات ابن خلّكان**، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1987م، ص 14.

على مصر، فيما نجحوا في استرداد بيت المقدس من المسلمين. و لا شكّ أنّ الدولة الأيُّوبيّة

و نظرًا للدور الفعّال الذي لعبته في الصراع الاسلامي الصليبي، شكّلت عُنصُرًا محوريًا في الساحتين الشاميّة و المصريّة، و كان بوسعها أن تُؤثّر أكثر على ميزان الصراع في المنطقة الشرقيّة كلّها لولا الازمة التي باتت تنخر نسيج هذه الاسرة الحاكمة من جرّاء الخلافات الحادّة المُستحكمة بين أعضائها. و هذا الوضع المتردّئ ضرب أُسس هذه الدولة في الصميم ممّا أعجزها عن ردّ غائلة الخطر عنها بل في صدّ أكثر التحدّيات شراسة و تهديدًا عليها ألا و هو الهجوم المغولي(1).

7- الإمارات الصليبيّة:

تُعتبر الإمارات الصليبيّة في بلاد الشام، بمثابة خنجر في جسم الأمّة الإسلاميّة، إذ هي وليدة الحركة الصليبيّة أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر و الثاني عشر الميلاديَّين، و تُعرف أيضًا باسم "المملكة الآتينيّة".

و تتكوّن هذه الإمارات التي بلغت أقصى اتساعها سنة 539ﻫ/1144م، من أربعة أطراف رئيسيّة هي :

- إمارة الرها Comté d'Édesse إلى الشرق، تمتد على ضفّتي الفرات، فشمالا إلى ملطيّة، و غربًا إلى ماردين ممتدّة جنوبًا إلى سروج، و سكّانها خليط من المسيحيّين و المسلمين، أمّا الفرنجة فكان عددهم قليلاً، و في الشمال توجد إمارة أنطاكية على الضفّة الشرقيّة لنهر العاصي التي حوت أرمينيا الصغرى إلى نهر جيحون، لكنها تقلّصت على إثر تأسيس مملكة أرمينيا الصغرى و لم تتجاوز حدودها بعد ذلك البورتيلا Portella، و سكّانها من الفرنجة و العرب و الإغريق واليهود، أمّا في الوسط فتتمركز إمارة طرابلس التي تمتدُّ من "المرقب" في الشمال إلى جنوب الجبل Giblet، و أخيرًا في الجنوب توجد مملكة بيت المقدس المعروفة "بأورشليم" Jérusalem وامتدّت من النهر إلي شبه جزيرة "سيناء" Sinai حيث ملك الصليبيُّون ردحًا من الوقت ميناء العقبة على البحر الأحمر، و بالرغم من أنّ المدن الكبيرة الداخليّة لم تكن محتلّة إلاّ أنّها كانت تدفع

(1) خرج الإمبراطور فريدريك الثاني، امبراطور ألمانيا و جنوب إيطاليا و صقليّة في الحملة الصليبيّة السادسة إلى الشرق سنة (626ﻫ/1228م)، ثُمّ عقد معاهدة مع السلطان الكامل الأيُّوبي سنة(627ﻫ/1229م) تنازل له هذا الأخير عن بيت المقدس، و كان الكامل قد طلب العوْن من الإمبراطور ضدّ خُلفاء المعظّم المتوفى سنة(623ﻫ/1226م). أنظر:

المقريزي: السلوك، ج1، ص296 ؛ إبن واصل: مفرّج الكروب، ج2، ص 337 ؛ حافظ حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص 143 ؛ عبد المعطي الصيّاد: المغول في التاريخ، ص 88-89 ؛ أحمد مختار العبّادي: **قيام دولة المماليك الأولى في مصر و الشام**، دار النهضة العربيّة، لبنان، 1969م، ص 92-93.

الجزية للصليبيّين، و كانت منطقة البقاع بلبنان تدفع لهم ثُلُث المحصول الزراعي(1).

كانت هذه الإمارات تعيش في خلاف دائم فيما بينها و خاصّة مع إمارة أرمينيا، و لم تتمكّن من توحيد صُفوفها لمواجهة المسلمين الذين تجمّعوا تحت لواء السلطان "زنكي"، ثمّ بعده "نور الدين"، و "صلاح الدين الأيُّوبي"، الذين انتزعوا منهم ما بين سنتي539هـ/1144م و583هـ/1187م، و هو تاريخ معركة حطّين، جميع مدنهم ما عدا أنطاكية و طرابلس و صور(2).

و مهما يكن من أمر هذه الأحداث التي أعقبت سقوط مدينة القدس في أيدي المسلمين، فإنّ صلاح الدين كان قد حسم الأمر و ألحق بتلك الإمارات أضرارًا جسيمة لم تكن لتتعافى منها بعدها، و خاصّة بعد ضربات الملك الكامل الأيُّوبي سنة (642هـ/1244م) التي قضت على آمال الصليبيّين نهائيًا (3). و هكذا دخل الصليبيُّون بلاد الشام و ثبّتوا أقدامهم بها و مكروا بأرضها و أهلها مكرًا كُبَّارا ما ينيف عن قرن من الزمن، لكن إذا كانت القوى الاسلاميّة الناشئة قد تمكّنت من تقليص نفوذها و إضعاف سطوتها إلاّ أنّها ظلّت جزءًا من الواقع السياسي و الاجتماعي في المنطقة كما أنّها وقفت شاهدة أمام عصر جديد طبعه ظهور المغول بطابعه الخاص.

8- أرمينيا :

تمتدّ منطقة أرمينيا(*) تاريخيًا من شرق الأناضول غربًا إلى حدود إيران شرقًا، و من شمال العراق و سوريا جنوبًا حتّى مشارف البحر الأسود شمالاً(4)، أمّا الأرمن فقد قسّموا هذه البلاد إلى أرمينيا كُبرى، تمتدُّ من نهر الفرات غربًا إلى الإقليم المجاور لنهر كر شرقًا، و أرمينيا الصُغرى، المسمّاة قيليقيا Cilicie، واقعة بين الفرات و منابع نهر هالي بين أنطاكيا و طرسوس(5).

(1) Mouterde(Rene S.J.), **Precis d'Histoire de la Syrie et du Liban**, l'Imprimerie Catholique, Betrouth, 1932, pp. 70-71 .

و انظر أيضًا :
بوعماما(فاطمة):**العلاقات الخارجيّة لمملكة أرمينيا الصغرى منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتّى سنة1375م**، ص48- 49. رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، إشراف د. إبراهيم فخار، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعيّة (1414-1415هـ/1993-1994م)، غير مطبوعة.

(2) أنظر : Guillaume de Tyr, **L'Estoire de Eracles Empereur et conqueste de la terre D'Outremer**, Rec. Hist. Crois., Hist. Occidentaux, Paris 1869-1906, T. II, Li vintetroisiesmes Livres, chapitre XXVI, p. 37 **;** Mouterde (R.S.J.), op.cit., pp. 71-72.

(3) ابن الأثير: الكامل، ج11، ص224، 301.
و انظر أيضًا : Mouterde(Rene S.J.), op.cit., pp. 72-73.

(4) صالح زهر الدين: **الأرمن شعب و قضيّة**، الدار التقدُّميّة، ط1، لبنان، نيسان 1988م، ص19-20.

(5) المقريزي: السلوك، ج1، ق1، ص 203، حاشية 6 ؛ أبو الفدا: **تقويم البلدان**، تصحيح زينود و البارون ماك كوكين ديسلان، باريس 1840م، ص 256-257 ؛ دياب حسن: **أرمينيا من الفتح الإسلامي إلى مستهلّ القرن الخامسالهجري**، دون طبعة، مصر، 1978م، ص3.

(*) اسم لصقع عظيم واسع في جهة الشمال. و قيل هما أرمينيّتان الكبرى و الصغرى و أحدهما من برذعة إلى بابا الأبواب و من الجهة الأخرى إلى بلاد الروم و جبل القبق و صاحب السرير و قيل أرمينية الكبرى خلاط و نواحيها و أرمينية الصغرى تفليس و نواحيها. أنظر: ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج1، ص219-220.

و بعد هزيمة بيزنطة في معركة مانزكرت سنة 463هـ/1071م أمام السلطان السلجوقي "ألب أرسلان"، و اندلاع الفتن في ربوع الأراضي البيزنطيّة باتت هذه الاخيرة(1)، مفتوحة أمام هجومات السلاجقة الأتراك، و هذا الواقع دفع ببيزنطة إلى تشجيع قيام كيان أرميني في قيليقيا على حدودها الشرقيّة الجنوبيّة و المتاخمة للأراضي العربيّة لتجعل منه خطًا يقي ظهرها من هذا الخطر الاسلامي (2)، و هكذا تزامن ظهور أرمينيا الجديدة مع بداية الحروب الصليبيّة، و شاهد فيها قنسطنطين الأوّل بن روبين (1095-1100م)، وصول الصليبيّين الأوائل إلى قيليقيا، و أثناء هذه المواجهة الصليبيّة الاسلاميّة ساهم الارمن بكلّ ما أوتوه من قدرات في سبيل نصرة إخوانهم في العقيدة و شاركوا حتّى في حصار مدينة أنطاكية(3).

لكن على الرغم من التحالف القائم بين الأرمن و البيزنطيّين إلاّ أنّ العداء لم يلبث أن فرّق بينهما و من ثَمّ كان على الأرمن مواجهة خطرين لا يرحمان، أحدهما مسيحي و الثاني إسلامي(4). فبعد موت قسطنطين الأوّل، خاض أبناؤه ثوروس الأوّل و ليون الأوّل حروبًا مريرة ضدّ

(1) السيّد أديب: **أرمينيا في التاريخ العربي** ، المطبعة الحديثة، حلب، الطبعة الأولى 1972م، ص 210-212.
و على إثر كارثة مانزكرت و اضطهاد البيزنطيّين للأرمن بسبب اختلاف طقوس كنيستيهما، هاجر عدد كبير من العائلات الأرمينيّة من أرمينيا الكبرى إلى مناطق طرطوس و مرعش و دولوق و الرها و كيليكيا، فاقطع كل حاكم منهم إمارة له، أنظر:
ابن الأثير: الكامل، طبعة القاهرة، ج8، ص109-110. و انظر أيضًا :
Vahram D'Edesse, **Chronique Rimée des Rois de la petite Arménie**, in R. H.C., D.A., publication de l'A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. I, p. 498.

(2) تقول المصادر الأرمينيّة أنّه بعد الكارثة التي حلّت بمدينة آني Ani التي كانت عاصمة الأرمن في القرنين العاشر و الحادي عشر الميلاديّين، و التي احتلّها ألب أرسلان في يوم 5- 16 أوت 1064م، انقسم الأرمن إلى فئتين، إحداهما آثرت البقاء تحت النفوذ البيزنطي، و الثانية أبت عليها قوميتها أن تعيش تحت سلطة الدولة العدوّة الغادرة، فآثرت الهجرة عن البلاد.
و في عام 1075م جاء إلى قيليقيا أحد الأمراء الأرمن، و كان اسمه "أوشين" قادمًا من أرمينيا، فاستقرّ في قلعة نمرود المشرفة على منطقة "كبادوكيا" بقيليقيا. و في عام1080م وصل إلى قيليقيا الأمير "روبين"، فاحتلّ منطقة "بارتزرابرت" و أعلن استقلال البلاد عن الحكم البيزنطي، و سارع الأمراء و البطارقة إلى الإنضواء تحت لوائه معلنين بذالك ميلاد أرمينيا الجديدة. أنظر:
Orbêlian (Étienne, archeveque de Siounik), **Histoire des Orpélians**, in Saint-Martin(J.), Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819, chapitre III, T. II, p. 75 ; Saint-Martin(J.), **Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie**, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819, T. I, pp. 112-113 ; Qazwini(Hamdullah Mustaufi), op.cit., p. 437- 438, 440-443 ; Al-Azimi, op. cit., pp. 358-360 ; Ensslin(W.), op.cit., Vol. IV. Part II, Chapter XX, p. 41.

و انظر أيضًا :
ابن خلدون: المصدر نفسه، ج5، ص3-4 ؛ محمود سعيد عمران: معالم تلريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ص 242، 243، 244، 245 ؛ الجوزي: المنتظم في تواريخ الملوك و الأمم، ج9، ص 504-506 ؛ شكيب أرسلان: تاريخ الدولة العثمانيّة، ص 44 ؛ محمود سعيد عمران: السياسة الشرقيّة للإمبراطوريّة البيزنطيّة، ص 44 ؛ السيّد أديب: المرجع نفسه، ص212-214.

(3) Alem(jean-pierre), l'armenie, P.U.F., Paris 1959 ,p. 33 ; Pasdermadjian H., op.cit., p. 201.

(4) أنظر: Alem(jean-pierre), Loc. cit. ; Pasdermadjian H., op.cit., p. 202.

البيزنطيّين و الأتراك السلاجقة في ذات الحين حيث تمكّنوا من الانتصار على السلاجقة عام 1109م، و طرد البيزنطيّين من معظم مناطق قيليقية(1). وفي سنة 1135م انتزع ستيفان Stephan، أخو ليون الأوّل، مدينة مراغة ببلاد أذربيجان من السلاجقة ، و لكنّ الإمبراطور البيزنطي يوحنّا الثاني كومنين (1118-1144م) Jean II Comnene انتهز فرصة الصراع الدائر بين ليون الأوّل و أُمراء أنطاكيا Antioche ، و اجتاح قيليقية سنة 1137م، و مات ليون الأوّل في أسره، و بعدها تعرّضت أرمينيا الجديدة ما بين سنتي 1137م و 1145م إلى التخريب من قبل اليونانيّين و الأتراك السلاجقة في وقت واحد. أمّا أبناء ليون الأوّل الأربعة فقد قَتل البيزنطيّون أحدهم، و أسروا آخر اسمه ثوروس، أمّا ستيفان و "ملاح" Mleh فقد لجأ إلى نور الدين، سلطان حلب، فيما تمكّن ثوروس من الفرار من سجنه بالقسطنطينيّة، و أسترجاع بلاده من الالبيزنطيّين، فبعث الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين(1143-1180م)Manuel Comnene جيشًا قوامه إثنا عشر ألف رجل لاسترجاعها، إلاّ أنّه هُزم، ثُمّ حرّض سلطان قونية Ikonium(Konia)، مسعود، للهجوم عليها إلاّ أنّ ثوروس الثاني تمكّن من ردّه على أعقابه، واضطرّ الإمبراطور إلى التحالف مع رينود دي شاتيُون Renaud de Chatillon، الوصي على عرش أنطاكية (2)، و خصم ثوروس اللدود، غير أنّ الحملة لم تفلح في كسر شوكة هذا الأخير وكان أن قرّر الإمبراطور سنة 1158م معاودة الهجوم عليه بعشرين ألف رجل، ولكنّ الصلح تقرّر بينهما سنة 1159م بوساطة ملك بيت المقدس بلدوين الثالث (1143-1161م) Baudouin III،

و في السنة التالية سجّل ثوروس الثاني انتصارات باهرة ضدّ سلاطين قونية و حلب، و كانت آخر هذه الحروب موجّهة لمساندة الصليبيّين ضدّ أعدائهم. و مع ذلك فإنّ هذا الدور العسكري الفعّال في محاربة المسلمين لم يُؤدّي إلى تغيير موقف بيزنطة تجاه الأرمن، ذلك أنّ الإمبراطول البيزنطي حاول مجدّدًا احتلال قيليقية Cilicie سنة 1163م لولا أن أنزل به الأرمن هزيمة موجعة و انتُزعوا هذا الإقليم من بيزنطة نهائيًا(3).

و في عهد روبان الثاني Rouben II، بن ثوروس الثاني، عرفت أرمينيا اضطرابات ثقيلة، حيث اعتنق عمّه "ملاح" Mleh الإسلام، و صار في خدمة نور الدين، سلطان حلب، و تربَّع بعونه على عرش أرمينيا الجديدة، و لمّا ضاق الأرمن ذرعًا من هذا التحالف قتلوه في مدينة سيس

(1) Vahram D'Edesse, op.cit. , p. 499 ; Pasdermadjian H., op.cit., pp. 202-203 ; Saint-Martin(J.), op.cit., T. I, p. 113.

(2) أنظر : Vahram D'Edesse, op.cit., pp. 500-505, 508 ; Pasdermadjian H., p. 204.

(3) أنظر : Vahram D'Edesse, op.cit., pp. 505-507.

Sis (قيليقيا). و لمّا تولّى روبان الثالث بن ستيفان، أخي ثوروس الثاني، عرش الأرمن لم يلبث أن وقع في أسر بوهيموند الثالث Bohémond III أمير أنطاكية(1)، و الذي لم يتورّع عن غزو أرمينيا الجديدة، لكنّ الحملة توّجت بالفشل فأطلق بعدها سراح روبان الثالث، الذي فضّل على إثر ذلك اعتزال الحكم و السياسة لصالح أخيه ليون الثاني(1187-1219م) و الالتحاق بأحد أديرة بلاده (2).

على أنّ ليون الثاني لم يكد يتسلّم الحكم سنة 1187م حتّى أعلن الحرب على صاحبي حلب و دمشق. و كانت للمعارك التي خاضها ضدّ هاتين الإمارتين الإسلاميّتين دورها الواضح في إضعاف الجبهة الاسلاميّة في بلاد الشام لأنّها نجحت في حرمان صلاح الدين من سواعد هذه القوّات التي كان بوسعها أن تحسم الموقف العسكري ضدّ مملكة بيت المقدس(3). و قد سُجّل لليون الثاني نشاطًا حثيثًا من شأنه تعزيز موقعه في المنطقة، ذلك أنّه نقل عاصمة ملكه، أرمينية الجديدة من طرسوس إلى سيس Tarse à Sis ، و ضاعف من عدد جنده، و استعان بقوّاد عسكريّين من الألمان و الإنجليز و الفرنسيّين و الإيطاليّين، و قام أيضًا بعدّة تحصينات على حدود بلاده مع المسلمين(4)، و لمّا أيقن بأنّ مصير دولته مرهون بما تقدّمه أوربّا الغربيّة من دعم له و لخلفائه، سعى إلى عقد تحالفات مع هذه الاخيرة و الصليبيّين في الشرق على حد سواء.

و قد حرص ليون الثاني على نيل عون فريدريك بربروسا(1155-1190م)(*)، إمبراطور ألمانيا، حينما قدم إلى بلاد الشام لمحاربة صلاح الدين الأيُّوبي(5)، و أمّا ابنه هنري السادس فقد بعث له بتاج الملك فيما رضي عنه البابا و ملوك الغرب الأوربّي، فوافقُوا على تنصيبه ملكًا على أرمينيا، و تمّت مراسيم التقليد في كنيسة القدّيسة سوفيا بمدينة ترسوس sainte-Sophie de tarse سنة 1199م(6).

---

(1) أنظر : Vahram D'Edesse, op.cit. , pp. 508-509, 510 ; Pasdermadjian H., p. 205.

(2) أنظر : Vahram D'Edesse, op.cit. , p. 510 ; Pasdermadjian H., p. 206.

(3) Vahram D'Edesse, op.cit., pp. 510-511 ; Sempad Le Connétable, **Chronique du royaume de la petite Arménie**, in R.H.C., D.A., publication de l'A.I.B.L., Paris, 1869-1906, pp. 628-629 ; Stevenson (W.B.), the crusaders in the East, p.243; Pasdermadjian H., p. 208.

(4) أنظر: Vahram D'Edesse, op.cit., p. 511 ; Pasdermadjian H., op.cit. , p. 208.

(5) أنظر: Pasdermadjian H., p. 209 ; Alem(jean-pierre),op.cit., p.34.

(6) Vasiliev (A.), Hist. De lemp. Byz., paris 1932, T. II, pp. 94-95 ; Pasdermadjian H., p. 210 ; Vahram D'Edesse, op.cit., pp. 511-512 ; Alem(jean-pierre), op.cit., p. 34.

(*) هو من بيت الهوهنشتاوفن Hohenstaufen الألمانيّة، و قريب لعائلة ويلف Welf. نُصّب ملكًا على ألمانيا سنة 1152م، ثمّ إمبراطورًا سنة 1155م، كان في صراع دائم مع البابويّة ما عرّضه للحرمان الكنسي في عهد البابا أسكندر الثالث Alexandre III(1159-1181م)، و في سنة 584هـ/1188م خرج على رأس حملة صليبيّة إلى الشرق لانتزاع بيت المقدس من يدي صلاح الدين الأيُّوبي، لكنّه غرق يوم 10جوان 1190م في مياه نهر ساليف Salef بأرمينيا دون أن يبلُغ مُبتغاه.
للمزيد أنظر: Grand Larousse Encyclopedique, Paris VI^e, Librairie Larousse, 1968, T.5, pp.256-257.

و سار الإمبراطور البيزنطي ليون الثاني على منوالهم، ذلك أنّه لمّا علم بهذا التتويج أظهر الاعتراف بالمبادرة حيث أرسل إليه تاجًا ملكيًا مُذهّبًا موشّحًا بالأحجار الكريمة و معه علمٌ عليه صورة أسد. و قد قبلها ليون الثاني دون تردُّد ثُمّ ردّ عليه بأن وجّه له بهدايا قيّمة معلنًا بذلك عن ولائه للإمبراطوريّة الغربيّة (أوربّا)(1).

و هكذا نعمت أرمينيا الجديدة في عهد ليون الثاني بالاستقرار النسبي و انجرّ عن ذلك تحسُّن في أوضاعها الإقتصاديّة، و تحويل سيس، عاصمته الجديدة إلى مدينة راقية و زاهية، و لو استمرّت أوضاع أرمينيا الداخليّة في هذا الاتجاه لاحتلّت هذه الاخيرة مكانة في مصاف القوى المؤثّرة في المنطقة كلّها، إلاّ أنّ ليون الثاني لم يلبث أن زجّ بأرمينيا في دائرة الحرب مجدّدًا حيث شنّ حربًا ضدّ أنطاكية و استولى عليها و على قلعتها المُسمّاة باغراس "Bagh'ras"(*)، هذا بعد أن أحبط هجومًا سلجوقيًا من صاحب قونية، و الهزيمة نفسها أنزلها على إثر ذلك بأمير حلب ابن صلاح الدين. و هكذا تحوّلت أرمينيا إلى مصدر قلق و خطر بالنسبة للمسلمين في عهد هذا الملك و جعل منها قوّة لا غنى عنها في التعاملات السياسيّة و العسكريّة في منطقة آسيا الصغرى غير أنّ هذه الصحوة لم تدم طويلاً، فبعد موت ليون الثاني دخلت أرمينيا عهدًا جديدًا قوامه الفتور و الوهن. إذ لم يترك ليون الثاني إلاّ ابنة واحدة اسمها "زبيل" Zabel فتزوّجها ابن قائد جيوشه، هيثوم الأوّل، و بهذا الزواج آل الملك إليه بصفة شرعيّة. و في بداية عهده تلقّت أرمينيا ضربات قاسية من القوى الاسلاميّة، المصريّة و السلجوقيّة، أثّرت سلبًا و بشكل عميق عليها و على حُلفائها الصليبيّين و كان هذا الخطر الاسلامي على أرمينيا مُرشّحًا للتفاقم ممّا سيُؤدّي حتمًا إلى إضعافها و أُفول نجمها في ساحة الصراع بالشرق لولا ظهور المغول الذي قلب جذريًا كل موازين المنطقة و طبعها لوقت من الزمن(2).

9- دولة سلاجقة الروم و الإمبراطوريّة البيزنطيّة:

يُقصد بسلاجقة الروم الفرع السلجوقي الاسلامي المقيم في آسيا، و المجاور للإمبراطوريّة البيزنطيّة. و كانت قاعدة ملكهم مدينة نيقيّة Nicée الواقعة بشمال غرب آسيا الصغرى المسمّى

(1) أنظر: Vahram D'Edesse, op.cit., p. 512 ; Pasdermadjian H., p. 210.

(2) Vahram D'Edesse, op.cit., p. 512, 516, 517 ; Pasdermadjian H., op.cit., p. 211 ; Alem(J.-P.), l'armenie, P.U.F., Paris 1959, p. 34.

(*) كانت هذه القلعة قد سقطت في قبضة صلاح الدين الأيُّوبي سنة 1188م. أنظر: Vahram D'Edesse, op.cit., p. 512 note 2.

بالأنضول. و أوّل حكّامها سليمان بن قتلمش بن أرسلان الذي اعتلى الحكم عام470هـ/1077م، و آخرهم سعود الثالث(707-708هـ/1307-1308م). و قد شكّلت هذه الدولة أوّل حاجز اصطدمت به جيوش الحملة الصليبيّة الأولى عام 491هـ/1097م، و على إثر ذلك سقطت مدينة نيقية في أيدي الصليبيّين، فنُقلت العاصمة إلى مدينة قونية بشرق الأنضول. و في عهد هذه الدولة تحوّلت آسيا الصغرى إلى ساحة نزاع مستمر بين حُكّامها و غيرهم من سلاطين المسلمين من جهة و مع الروم البيزنطيّين من جهة اخرى(1).

اعتلى الإمبراطور قسطنطين العاشر دوقاس Ducas (1059-1067م) عرش الإمبراطوريّة البيزنطيّة بعد تخالفه مع الكنيسة الشرقيّة الارثوزكسيّة التي كان على رأسها البطريرك قسطنطين ليكودس Leichudes(1059 -1063م). و في عهد هذا الامبراطور، وُصفت أوضاع الامبراطوريّة الداخليّة بغير الجيّدة بسبب السياسة غير الحليمة التي مارسها الامبراطور دوقاس في تدبير شؤون الدولة. لقد سعى هذا الأخير حثيثًا إلى إضعاف قوّة الإستقراطيّة العسكريّة، التي كان يُمثّلها الامبراطور المخلوع إسحاق الأوّل، و ذلك بإهمال مؤسّسة الجيش، و توجيه جزء كبير من أموالها إلى مجالات أخرى، و هذا في ظلّ عمليّة صرف أموال طائلة، كنفقات البلاط و الهدايا النفيسة الموَجّهة للكنيسة و القوى المجاورة للامبراطوريّة

و المُهَدّدة لمصالحها حتّى تكُفّ عن تهديداتها من خلال الاقلاع عن شنّ غاراتها على أراضي الأمبراطوريّة منها النورمان في جنوب إيطاليا و المجريُّون الذين غزوْا أراضي غرب الإمبراطوريّة و استولوا عام 1064م على مدينة بلغراد Belgrade على نهر الدانوب، و كذا القبائل السلافيّة المهاجرة إلى منطقة البلقان و التي عاثت في أراضيها خرابًا و دمارًا، و أخطر هذه الشعوب الأتراك السلاجقة في جزئها الشرقي و الذين تسلّطوا على الخلافة العبّاسيّة آنذاك(2). و كانت عاقبة هذه السياسة تجاه الجيش البيزنطي بروز قوّة السلاجقة في وسط و شرق الاناضول بقيادة السلطان ألب ارسلان(455-465هـ/1063-1072م)، و تعرّضت هذه البلاد إلى التهديد و الاحتلال من قبلها، إذ تمكّن هذا الأخير من التوغُّل داخل بلاد الكرج، المعروفة بجورجيا

---

(1) محمود سعيد عمران: **السياسة الشرقيّة للإمبراطوريّة البيزنطيّة**، دار المعارف، الإسكندريّة 1985م، ص 44 ؛
فؤاد عبد المعطي الصيّاد: المرجع نفسه، ص 89- 90. و انظر أيضًا :
Runciman(S.), **The Place of Byzantium in the Medieval World**, in Cambridge Medieval History, Great Britain 1967, Vol. IV. Part II, Chapter XXX, p. 357, 367.

(2) محمود سعيد عمران: **معالم تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة**، دار النهظة العربيّة، بيروت، 1981م، ص 241-242.

فهزم الجيش البيزنطي ثُمّ تصالح معه، و اتّجه إلى منطقة أرمينيا و استولى على مدينة آني Ani عام 458هـ/1065م و خرّب عاصمتها قيليقية Cilicie، و دمّر مدينة قيصريّة في أعالي الفرات عام 460هـ/1067م (1).

و في غرّة شهر جانفي/ يناير عام 1068م تولّى القائد العسكري رومانوس الرابع ديوجينس Romanus IV Diogenes عرش بيزنطة خلفًا لدوقاس المُتَوفَّى. و في عهده اتبعت الامبراطوريّة سياسة هجوميّة تجاه السلاجقة في آسيا الصغرى. و قد حالفها الحظ في بدايتها حيث سجّلت بعض الانتصارات المشجّعة لكنّ الكفّة سرعان ما مالت لصالح السلاجقة بقيادة القائد ألب ارسلان، ذلك أنّ هذا الأخير استطاع،على رأس اثني عشر ألف رجل، أن يُنزل هزيمة نكراء بالجيش البيزنطي في مانزكرد (ملازجرد Mélazdjerd) بآسيا الصغرى في 17 من ذي القعدة 463هـ/ 16أغسطس 1071م، و فيها أسر الامبراطور الذي دفع الفدية لخلاصه و وقّع مُعاهدة مُهينة قبل أن يرجع إلى العاصمة. كانت هذه النتيجة كارثة ثقيلة حقًا بالنسبة لبيزنطة إذ أثّرت سلبًا على مكانتها في آسيا و أوربّا و شكّلت أيضًا بداية تراجع لسطوتها في المجالين السياسي

و العسكري، كما أدّت إلى صعود ميخائيل السابع Michael VII (1071-1078م) إلى سدّة الحكم في بيزنطة عنوة. لكنّ هذا الأخير لم يلبث أن ضرب بعرض الحائط مُعاهدة مانزكرت المبرمة مع السلاجقة، و هو ما أثار استنكار القائد ألب ارسلان الذي قرّر تأديبه، غير أنّ بلوغ أجل هذا الاخير حال دون وقوع ذلك.

في عام 465هـ/1072م اغتيل السلطان ألب ارسلان بقرية برزم على ضفّة نهر جيْحون تاركًا وراءه مُلكًا عريضًا بعد أن عزّزه بضمّ كلّ أرجاء إيران إليه(2). و بعده اتّسعت حدود دولته

---

(1) Qazwini(Hamdullah Mustaufi) (قزويني(حمد الله، **تاريخ كزيدة,Tarikhi Guzideh**, traduction de Defremery(M.),Histoire des Seldjoukides, dans J. A., Paris, (avril-mais) 1848, pp. 435-436**.**

و انظر ايضًا : محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ص 242**.**

(2) الجوزي: **المنتظم في تواريخ الملوك و الأمم**، تحقيق سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، 1995م، ج9، ص504-506 ؛ ابن خلدون: المصدر نفسه، ج5، ص 3-4 ؛ شكيب أرسلان: **تاريخ الدولة العثمانيّة**، تحقيق حسن السمّاحي سويدان، دار ابن كثير، ط1، دمشق، 2001م، ص 44 ؛ محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ص 242، 243،244،245 ؛ محمود سعيد عمران: السياسة الشرقيّة للإمبراطوريّة البيزنطيّة، ص44**.** و انظر أيضًا :

Qazwini(Hamdullah Mustaufi), op.cit., p. 437- 438, 440-443 **;** Ensslin(W.), **The Government and administration of Byzantine empire**, dans C. M. H., Great Britain1967, Vol. IV. Part II, Chapter XX, p. 41 **;** Al-Azimi, **la Chronique abrégée d'Al-Azimi**, texte Arab présentée et traduit par Cahen(C.), dans J. A., Paris, (Juillet- Septembre) 1938, pp. 358-360.

بشكل ملحوظ. فعلى الرغم من الخلاف الذي كان يسود احيانًا البيت السلجوقي الحاكم فإنّ حركة الفتح قد تواصلت دون كلل، فضُمّت إلى حوزة التاج العديد من المناطق و المدن كخرسان وسمرقند في آسيا الوسطى و مدينتي نيقية بآسيا الصغرى و أنطاكية ببلاد الشام. و في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي امتدّت الحدود الغربيّة للدولة السلجوقيّة من البحر الأسود شمالاً إلى شواطئ البجر المتوسّط جنوبًا(1).

لكن ظاهرة الانقسام التي عشعشت داخل الإمارات السلجوقيّة أضعفت جانب الصف السلجوقي ممّا سمح للامبراطوريّة البيزنطيّة بالنفوذ إلى عُمقه و ذلك بالتحالف مع بعض ضدّ البعض الأخر. و في عهد الإمبراطور أليكسيوس الأوّل Alexus I (1081-1118م) استرجعت بيزنطة جانبًا كبيرًا من أراضيها التي استولى عليها السلاجقة هذا في الوقت الذي كان جيشها يضم عددًا لا يُستهان به من الأتراك بمختلف أعراقهم. و هكذا ظلّ الصراع سجالاً بين قُوّتين بارزتين، السلجوقيّة و البيزنطيّة، في ساحة الشرق، آسيا الوسطى و الصغرى. و كان هذا الصراع مصيريًا بالنسبة للجانبين، لكن في خضمّ هذا الوضع لم يكترث أحدهما بما يُحضّره المغول من رسم جديد لخريطة عالم الشرق برُمّته، و بما يُخفيه المستقبل القريب أيضًا من تطوُّرات و تحدّيات ستَقلب أوضاع المنطقة كلّها(2).

إنّ هذا العرض الذي يكشف عن الأوضاع السياسيّة و العسكريّة في آسيا بشكل عام، يُبرز بما لا ريب فيه بأنّ الأحوال في هذه المنطقة متشابهة إلى حد بعيد، قوامها الحروب و الفوضى وعدم الاستقرار، عوامل تُعدُّ من مُبطلات كُلّ أسباب التطوُّر و العزّة و الهيبة. و لا شكّ أيضًا أنّ هذا الواقع هيّأ الأرضيّة للغزو المغولي في البلاد المذكورة، و يسّر لقادته مهمّة الظفر بها و

---

(1) ابن الأثير: الكامل، طبعة دار صادر، بيروت، أحداث سنة 473هـ، ج10، ص 118-119، 171 ؛ ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 5، ص 4-6، 10. و انظر أيضًا :

Qazwini(Hamdullah Mustaufi), op.cit., pp. 443-446 ; Al-Azimi, op.cit., p. 360, 361 ; Defremery, Histoire des Seldjoukides, p. 445 note 2.

(2) Anna Comnéne, **Alexiade**, traduction de Bernard Leib, éd. les belles lettres, Paris 1937, T.I, Livre III, pp. 136-138, T.III, Livre XI, pp. 26-27, 36-38 ; Matthieu d'Edesse, **Extraits de la Chronique –Expeditions de Nicephore Phocas et de Jean Zimisces dans la misopotamie, la Syrie et la Palestine**, dans R.H.C., D.A., publication de L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T.I, pp. 56-79 ; Al-Azimi, op.cit., p. 368 ; Stevenson(W.B.), **The crusaders in the East**, C.U.P. warehouse, London, 1907, p. 21 ; Ensslin(W.), op.cit., p.42, 47 ; Diehl(Charles), **L'Empire Byzantin**, Ed. A. et J. Picard, Paris, 1924, p.168.

السيطرة عليها لحقبة ليست بخفيفة. هذا فقد أنذر كذلك بميلاد عصر سيطبع المنطقة كلّها بطابعه المميّز شرقًا و غربًا.

II- التركيبة الجنسيّة لبلاد منغوليا:

كان يعيش في شمال منشوريا، و منغوليا، و تركستان، في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، قبائل بدويّة متنقّلة تعيش على الرعي في شمال صحراء جوبي Gobi الشديدة الحرارة صيْفًا و البرودة شتاءً، عند جبال ألتاي(*) Altai و خانقاي Khangai و كانتي Kentei الشديدة الوعورة، و كانوا يَصيفُونَ بنواحي بُلْغَار، و يَشْتُون بنواحي بلاساغون، و تنتمي هذه القبائل من الناحية اللغويّة إلى ثلاثة مجموعات:

المجموعة التركيّة، و المجموعة المغوليّة(**)، و المجموعة التونغوزيّة (أو التانجوت) (1).

و من الناحية الجسمانيّة فتصفهم المصادر بأنّ لهم صدور و وجوه عريضة بعيون صغيرة و مجعّدة، و أنف صغير مُفلطح، و أقدام صغيرة، و لكنّ بُنيتهم قويّة تتحمّل أقصى الضروف

---

(1) ابن الأثير: الكامل(طبعة دار صادر)، ج9، ص520 ؛ الباز العريني، المغول، ص 28. و انظر أيضًا :
Grousset(René), **l'Empire des Steppes: Attiya, Gengis-Khan, Tamerlan**, Paris(16, Boulevard S[t] Germain), Payot 1939, p. 243.

و التانجوت (أو التونغوز أو الطانغوط)، و هم قسم من تتار المانجو، و قدأطلق عليهم الروس هذا الإسم(تونغوز)، و يُسمّون أحيانًا(صولون) و معناها بلغة المانجو: الصيّادون، و الرماة. و كانوا يحكمون دولة صينيّة ثالثة أقل أهميّة في الغرب الصيني، ما بين أمبراطوريّة كين و أمبراطوريّة الصونج شرقًا، و منغوليا شمالاً. أمّا الجيش فكان مكوّنًا من عدّة أجناس منها الصينيون و التانجوت و التبتيّين و قبائل أخرى من عرق تركي مغولي. أنظر:
Pelliot(Paul), **A propos des Comans**, dans J.A., Paris (Avril-juin) 1920, pp. 146-147 ;
Grousset(R.), l'empire des Steppes, p. 247.

(*) جبال التاي: سلسلة جبليّة شرق تركيستان، تفصل بين أكبر نهرين في تركستان، هما لاموداريا l'Amou-Daria و سيرداريا Sir-daria الذان يصبّان حاليًا في بحيرة أرال Lac d'Aral أنظر:
Gerard(N), **Introduction sur la Geographie de l'asie**, Paris 1889, T. 1, p. 34 ; Edvige Toeplitz Mrozowska, **Lacs et montagnes des Pamirs**, dans Bultin de la société de géographie (Revue Monsuelle publiée sous la direction de M.G. Grandidie), Paris 1931, T. 55, p.101 ;
Marco-Polo, **La Description du monde**, texte integral en français moderne avec introduction et Notes, éd. Louis Hambis, librairie C. Klincksieck, 1[ere] edition, Paris 1955, p. 377.

(**) يُشير كثير من المؤرخين القدامى إلى الأصل المشترك للمغول و الترك، و إلى تداخل اللغتين التركيّة و المغوليّة، و أنّ المغول و الترك يشتركون في الطبائع، و يختلفون في بعض العادات و التقاليد بسبب بداوة المغول، حتّى سمّاهم البعض بأنّهم أعراب الترك، و يدخل في جنس الترك القفجاق، و هم الخفشاج، و الطغرغر، و هم التتر.
أمّا كلمة تتر فهي تختلف بالمعنى العام باختلاف العصور، فقد ظهرت في نقوش تركيّة ترجع إلى القرن الثامن الملادي، كما أطلق هذا الإسم على المغول عامّة أو على فريق منهم خاصّة(بقي هذا اللفض متعلّقًا بهم في جميع فتحاتهم في القرن السابع الهجري سواء في الصين أم في بلاد الإسلام أم في بلاد الروس و غربي أوربا)، و أمّا لفض المغول فقد ظهر على صفحات التاريخ في القرن العاشر الميلادي، و قد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيزخان المغولي في بلاد منغوليا و أواسط آسيا بكلمة مغْلْ. أنظر:
ابن الأثير: الكامل(طبعة دار صادر)، ج 9، ص 520 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج1، ص 366 ؛ رشيد الدين الهمذاني: =

الطبيعيّة المحيطة بهم، و يُمكن لأحدهم أن يتّخذ من الزوجات ما استطاع إطعامه، و إن مات فإنّهم لا يرون حرجًا أنّ يتّخذهُنّ أبناؤه زوجات لهم بعده، و معظم لباسهم من الفراء و جلد الحيوان(1).

و من المؤكّد أنّهُ كان للشامانيّة دورًا محوَريًا في حياة هذه الأجناس التركيّة المغوليّة، فقد كان يُسيطرُ عليها السحرة Sorciers (qam بالتركيّة القديمة، boga et chaman عند المغول، و chan-man في الكتابات الصينيّة)(2)، و قد ذكر السيوطي في مستهلّ ذكره لحال سُكّان منغوليا يقول: " و أمّا ديانتهم فإنّهم يسجدون للشمس عند طلوعها، و لا يُحَرّمُون شيئًا، و يأكلون جميع الدوابّ، و بني آدم، و لا يعرفون نكاحًا، بل المرأة يأتيها غير واحد"(3). و مهما يكن فإنّ هذا الجنس المنعزل تمامًا عن الحظارات القائمة في تلك الآونة لم يكن يختلف كثيرًا في الحقيقة عن غيره في تفرُّع قبائله التي نذكر منها :

1- الأتراك الإيغوريُّون Ouigours:

ينتسب الإيغور إلى جنس من الترك نزلوا شمال منغوليا، على نهر سلنجا Selenga، وظلُّوا طوائف دون ملك لمدّة طويلة، ثمّ انتقل إليهم المُلك حوالي سنة 745م إلى سنة 840م، لتكون قوراقورم عاصمة دولتهم، و كانوا يُؤلّفون حلفًا من تسع قبائل(4).

تقع مساكن الإيغور شمال شرقي تركستان الحاليّة، و "أيغور" هي كلمة تركيّة بمعنى

= جامع التواريخ، م2، ج1، ص212 ؛ إبن خلدون: تاريخه، ج 5، ص 515-516 ؛ الديار بكري: الخميس، ج2، ص 268 ؛ الرمزي: **تلفيق الأخبار و تلقيح الآثار في وقائع قزان و بلغار و ملوك التتار**، أورنبورغ، د. ت.، ج 1، ص 22، 26، 122، 123، 333، 335 ؛ محمّد الخضري: **تاريخ الأمم الإسلاميّة(الدولة العبآسيّة)**، ط6، دار المعرفة، بيروت-لبنان-(1422هـ/2001م)، ص 395 ؛ بارتولد: **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مطبعة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1958م، ص 125، 163 ؛ ستودارد الأمريكي(لوثروب): **حاضر العالم الإسلامي**، تعريب الأستاذ عجّاج نويهض، دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة جنيف 15 ذي القعدة 1351هـ، ج4، ص 109، 110، 173، 175 ؛ علي محمّد الصلابي: **الدولة العثمانيّة(عوامل النهوض و أسباب السقوط)**، دار التوزيع والنشر الإسلامي، القاهرة، 2001م، ص25؛ حسن إبراهيم حسن: **تاريخ الإسلام(السياسي، و الديني، و الثقافي، و الإجتماعي)**، مكتبة النهضة المصريّة، ط1، القاهرة، 1967م، ج4، ص130-131 ؛ فامبري(أرمنيوس): **تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتّى العصر الحاضرة**، تعريب أحمد محمود الساداتي، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1965م، ص 161، 295، 296، 298.
و انظر أيضًا : Lane-Pool, The Muhammadan dynasties, pp. 228-229.

أمّا لفظ الترك، فهو توكيو Tu-Kue في الصينيّة، بينما يُطلق عليه Toup-Koi في اليونانيّة، وقد ظهر في القرن السادس الميلادي حين أسّسوا إمبراطوريّة قويّة امتدّت من منغوليا و شمال الصين إلى حدود البحر الأسود(و يُطلقُ عليهم أيضًا لفظ الغزّ). أنظر : الباز العريني: المغول، ص 28.

(1) Jean de Plan de Carpin, **Histoire des Mongols**, dans M. Édouard Charton, Voyageurs Anciens et Modernes, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris 1855, pp. 242-243.

(2) أنظر: Pelliot(Paul), Sur quelques mots., op.cit., p.466 ; Grousset, l’empire des Steppes, p. 250.

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص 471.

(4) السيّد الباز العريني: المغول، ص 29.

الارتباط و التعاون(1)، أمّا ديانتهم فكانت مانويّة(*)، و بوذيّة، و مسيحيّة(2)، فقد اعتنق الإيغور المانويّة حوالي سنة 762م، و نشط دعاة البوذيّة و المسيحيّة النسطوريّة(**) في بثّ الدعوة في الصين، و بين الترك. و في سنة 840م تمكّن القرغيز من طرد الإيغور من منغوليا، فأقام المطرودون مملكتهم الأولى في كانسو، و الأخرى في بش بالق و قره خوجا، ببلاد الصين وانتشرت المانويّة في هاتين المملكتين.

و في سنة 1028م غزا التانجوت مملكة كانسو الأويغوريّة بينما بقيت المملكة الأخرى حتّى أزالها المغول في عهد جنكيزخان(3).

---

(1) رشيد الدين: جامع التواريخ، ج1، ص 33.

(2) فؤاد عبد المعطي الصيّاد: المغول في التاريخ، ص 22.

(3) السيّد الباز العريني: المغول، ص 29-30.

(*) المانويّة، أصحاب ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر بعد عيسى بن مريم عليه السلام، و قتله بر هام ابن هرمز بن سابور، أحدث دينًا بين المجوسيّة و النصرانيّة، و كان يقول بنبوّة المسيح، و لا يقول بنبوّة موسى عليهما السلام. للمزيد أنظر:

الشهرستاني(أبي الفتح محمّد عبد الكريم ابن أبي بكر)(479-548ه): **الملل و النحل**، تحقيق عبد العزيز محمّد الوكيل، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ، ص 245.

(**) نسبة إلى نسطور، أسقف مدينة القسطنطينيّة، عاش في القرن الخامس الميلادي. جاء بمقولة مفادُها أنّ للمسيح عليه السلام طبيعتين إلاهيّة و بشريّة. و في سنة 431م عُقد مجمع كنسي بمديمة أفسوس Ephese في آسيا الصُغرى انتهى بإدانتها. و لا يعترف مذهب نسطوريُوس بالسيّدة مريم العذراء أُمًا للمسيح عليه السلام بوصفه إلهًا. و قد عرفت نظريّته انتشارًا ملحوضًا في الجزيرة العربيّة و سوريا و فلسطين و مصر. و أمّا في الصين شهد لها بالوجود منذ سنة 638م، كما عرفت رواجًا في أوساط طبقات المغول الحاكمة. و لمزيد من التفاصيل إرجع إلى :

القلقشندي: صبح الأعشى، ج 13، ص 280 ؛ الشهرستاني:أبي الفتح محمّد عبد الكريم ابن أبي بكر(479-548ه): الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمّد الوكيل، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ، ص225 ؛ **الموسوعة العربيّة العامّة**، مؤسّسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض(1419ه/1999م)، الطبعة2، ج25، ص332**.**

و وصلت النسطوريّة إلى الصين ابتداء من سنة 638م، و لكنّها انقرظت سنة 845م. أمّا في وسط آسيا فقد تغلغلت بين سكّان المدن و كذا البدو الرُحّل، مثل الإيغوريُّون Ouigours ابتداء من القرن الثامن الميلادي، و بين الترك الكرايت les Turcs Keraits بداية الحادي عشر الميلادي الذين تحوّلوا إليها جماعيًا ، و لا شكّ أنّ هؤلاء كانوا أساس أسطورة الكاهن يوحنّا. و كذا كان حال شعب الأنغوط Ongut في شمال غربي الحلقة الكبيرة للنهر الأسفر، الذي كان يُمثّل سورة لمملكة مسيحيّة. ثُمّ ظهرت المسيحيّة في الصين مرّة أخرى في تلك الفترة في المناطق الشماليّة و بين أقوامها الأجنبيّة. أمّا المغول فإنّهم لم يتعرّضوا للمسيحيّة النسطوريّة أثناء حملاتهم، فقد كانت العائلة الإمبراطوريّة الجنكيزخانيّة تظُمُّ العديد من الأمراء، و الأمّهات، و الزوجات على المذهب النسطوري، و في غالب الأحيان من أصول قبيلة كريت Kerait، و كان عددٌ من الخانات يتعاطفون أو يميلون إلى المسيحيّة، و لو لم يتعدّواْ ذلك إلى التعميد، و أمّا وُزراؤهم الأكثر نفوذًا فكان أغلبهم على النسطوريّة من قبيلتي الإيغور، و الكريت. أنظر:

Guillaume de Rubruk, traduction et commentaire de Claude et René Kapler : **Voyage dans l'Empire Mongol**, Payot, Paris, 1985, pp. 267-268**.**

2- الأتراك القراخطائيُّون (أو الخطا):

و القراخطائيُّون(أو قره خطا) قوم خليط من المغول الترك و التانجوت، يدينون بالبوذيّة، و لغتهم أقرب إلى لغة المغول، أقاموا دولة قويّة في بداية القرن العاشر للميلاد في منشوريا وشمال الصين، و لمّا انقضى عهد هذه الدولة في تلك البقاع في الرُّبع الأوّل من القرن الثاني عشر للميلاد، سكن الفارُّون من فلولها المنطقة الواقعة بين الصين و تركستان(*)، و اتخذهم ملوك الأُويغور في تركستان حماة لحدودهم مع الصين نظير جرَايَات و إقطاعات، و لمّا ساءت العلاقات بين هؤلاء القراخطاي و بين ملوك تركستان المسلمين، زحف القراخطاي على بلادهم و قضوْا على الدولة الخاقانيّة(الأُويغوريَّة) عام 1141م، و استولوْا على كاشغروختن(**)، و كوّنوا دولتهم فيها، ثُمّ زحفوا على بلاد ما وراء النهر، و استولوْا عليها من يد السلاجقة، و امتدّت دولتهم من بلاد القرغيز شمالاً إلى مدينة بلخ جنوبًا، و من خوارزم غربًا إلى صحراء جوبي شرقًا. و بما أنّ هؤلاء القراخطائيُّون كانوا غير مسلمين، لم يكن التعاون بينهم و بين الرعيّة المسلمة في تركستان قائمًا، ممّا سهّل القضاء على دولتهم.

كانت هذه الدولة سدًا منيعًا بين الدولة الخوارزميّة في الغرب و دولة الكفر الأُخرى في الشرق(و من بينهم المغول)، فكان إزالة السلطان علاء الدين محمّد خوارزم شاه لهذه الدولة سنة 1210م خطأً فاحشًا إذْ لمّا أغار المغول لم يحل دونهم حائل، فساروا حتّى أقصى بلاد المسلمين(1).

(*) إلاّ أنّ جانبًا من الخطا بقي في الصين حتّى استعادوا مملكتهم التي صارت من توابع المغول. أمّا الذين ساروا نحو الغرب، فامتدّت مملكتهم من بلاد القرغيز(على نهر ينيسي) شمالاً حتّى بلخ جنوبًا، و من خوارزم غربًا إلى بلاد الأويغور شرقًا، و كانت "بالاساغين" عاصمة ملكهم، فكانوا على حدود العالم الإسلامي، وبقي إقليم ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن انتزعه منهم علاء الدين محمّد خوارزم شاه سنة(612هـ/1211م). أنظر:
السيّد الباز العريني: المغول، ص 32-33.
أمّا بلخ، فمدينة مشهورة بخرسان، تُحمل غلّتها إلى جميع خراسان و إلى خوارزم، و يُقال لجيحون: نهر بلخ. أنظر:
ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت (1399هـ/1979م)، ج1، ص 479-480.

(**) كاشغر، هي من المدن الكبرى في تخوم الصين. أنظر:
عبد السلام محمّد هارون: معجم مقيّدات ابن خلّكان، ص274.

(1) "قره" لفظ تركي بمعنى أسود، و يبدو أنّ المغول هم الذين أضافوا هذا اللفظ إلى قبائل الخطا للتعبير عن عدائهم و كراهيّتهم لهم. أنظر :

ابن الأثير: الكامل، طبعة دار صادر، ج12، ص 267 ؛ النظامي العروضي السمرقندي: **جهار مقالة(المقالات الأربع)**، نقله إلى العربيّة عبد الوهّاب عزّام و يحي الخشّاب، ط1، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1949م، ص108 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص 447 ؛ ابن خلدون: العبر، ج5، ص 137-141، 192 ؛ بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص56 ؛ فؤاد عبد المعطي الصيّاد: المغول في التاريخ، ص 22-24، 65 حاشية1، 66-68. و انظر أيضًا :

Bretschneder(E), **Mediaeval Researches from eastern Asiatic sources**, St Petersbourg, 1887, Vol. I, pp. 208-209 ; Roux(Jean-Paul), op.cit., p. 32. =

3- قبائل البدو:

تقطن بعيدًا عن الدول الآسيوية المتحضّرة، و في أقصى الشمال على حدود سيبيريا المغوليّة، و في السهول شمال صحراء جوبي نحو جبال "التاي" و "خانجاي"، و "كنتاي"، مجموعة كبيرة من القبائل كثيرة الحركة، و قد ولّد هذا الزخم خصامًا داخل الإستبس بين جموع الترك و المغول حول المراعي. و من أشهر هذه القبائل :

- التتار:

كان التتار في القرن الثامن الميلادي قسمين، الأول يتألف من تسع قبائل ”Neuf Tatar”(Toqouz Tatar)، و الآخر من ثلاثين قبيلة ”Trente Tatar”(Otouz Tatar)، وعاشوا جميعًا في الجنوب الغربي من بحيرة بايكل، و امتدّت منازلهم حتّى أسفل نهر كيرولين منذ القرن الثامن الميلادي، وهم ثلاثة أجناس:

التتار البيض، و يعيشون خارج سور الصين مباشرة، و تأثّروا بالحضارة الصينيّة،

و التتار السود يَقطنون شمال صحراء جوبي، و كانوا يُمارسون حياة البداوة و التنقُّل،

و أمّا تتار الغابة، فكانوا يعيشون على الروافد العُليا لنهري أونون و كيرولين، و مارسوا حياة الصيد، و أنكروا على أقاربهم ما كانوا عليه من ذلّة و ضعف.

يُعتبر تتار القرن الثاني عشر الميلادي أشرس هذه الأجناس، و شكّلوا خطرًا عظيما من جهة منشوري لمملكة كين في بكين Kin de Pekin التي قرّرت مساعدة جنكيزخان في بداية أمره لمُحاصرتهم(1).

و على الرغم من أنّ الغزاة في الفتوح المغوليّة في القرن الثالث عشر الميلادي كانوا يُعرفون باسم التتار في كلّ مكان(في الصين و في العالم الإسلامي، و في روسيا و غرب أوربّا)، فضلاً عن إطلاق هذا الاسم على أسلاف جنكيزخان، و على النايمان، فإنّ التتار كانوا قبيلة مستقلّة عن المغول(2)، و كانوا يقطنون المنطقة التي تحدُّ شمالاً بنهري أرقون و سلنجا Selenga و مملكة القرغيز، و شرقًا بإقليم الخطا(الصين الشماليّة)، و غربًا بممالك الأيغور، و جنوبًا بإقليم التبت،

= و قد ورد اسم قبائل الخطا في المصادر الصينيّة منذ القرن الرابع الميلادي، و هم خليط من المغول و التانجوت. و في بداية القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي نُصّب تاي تسو T’ai tsu إمبراطورًا على هذه القبائل من سنة 304هـ/916م إلى سنة 315هـ/927م، ثمّ أخضع خلفاؤه شمال الصين، و تلقّبت أسرته " لياو"، و استمرّت هذه الأسرى من سنة 304هـ/916م إلى سنة 519هـ/1125م. أنظر: أحمد حافظ حمدي: الدولة الخوارزميّة و المغول، ص 60 حاشية 2.

(1) السيّد الباز العريني: المغول، ص 33.
و انظر أيضًا : Grousset(René), op.cit., 246-247.

(2) السيّد الباز العريني: المغول، ص 34.

ومملكة التانجوت، و هم يتشعّبون إلى شعوب كثيرة، و هم أشدّ قبائل الجنس الأصفر جبروتا في إقليم آسيا الشماليّة و أكثر البدو رفاهيّة(1). و كانوا يعيشون في صراع دائم مع بعضهم البعض، ومع ملوك الخطا، و لم يكن لهم قانونا يحكمهم و لا شريعة يسيرون عليها(2).

استطاع التتار إخضاع القبائل و كانت قبائل الترك الأخرى يتسمّون باسمهم(*)، و لمّا كان هؤلاء التتار أعداء للمغول، كاد جنكيزخان المغولي أن يُفنيهم حين صارت إليه نواصيهم(3).

و في بدء هجوم المغول على الممالك الإسلاميّة كانوا يعرفون بالتتار، و لكنّهم اشتهروا في التاريخ بهذين الاسمين لتداخل الأجناس.

- المغول:

أطلق اسم المغول(4) في بداية الأمر على الشعوب التي خضعت بقوّة الحديد و النار لجنكيزخان(**)، ثُمّ لم يلبث أن تغلّب لفظ التتار في الجهات الغربيّة من الإمبراطوريّة المغوليّة بصفة خاصّة، أمّا موطن المغول فقد حُدّد في الشطر الشرقي من آسيا الوسطى و في الشمال الغربي من الصين، و تحديدًا في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي وحول بحيرة "بايكل"، و هي تمتدُّ في أواسط آسيا جنوبَيْ سيبيريا، و شمال التبت، و غربي منشوريا، و شرقي التركيستان بين جبال التاي غربًا، و جبال كنجان شرقًا(5)،على أنهار أولدزا Uldza، و كيرولين، و أرخون، و أونون، و سائر روافد نهر عامور، الواقعة بين نهري

(1) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج1، ص 61.

(2) المصدر السابق، ج1، ص 57.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 62-63.

(4) يبدو أنّ اسم المغول قد ظهر في عهد أسرة تانك الصينيّة T’ang، حيث تشير النصوص الصينيّة إلى وُجود بين قبائل شيوي(أسفل نهر كيرولين) و التي كانت تتكلّم المغوليّة(بدون شكّ)، لقبيلة مونغ وُو، أو مونغ وا-(Mong-Wou, ou Mong-Wa) أين يظهر إسم مغول لأوّل مرّة. أنظر: Pelliot(Paul), A propos des Comans, p.146.

(5) Grousset(René), l’empire des Steppes, pp. 248-249.
و انظر أيضًا : ستودارد الأمريكي(لوثروب): حاضر العالم الإسلامي، م2، ج4، ص 173 ؛ فامبري(أرمنيوس): تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتّى العصر الحاضرة، ص161.

(*) يقول رشيد الدين الهمذان: " إنّه لهذا السبب لا يزال للآن في بلاد الخطا و الهند و الصين و منشوريا و بلاد القرغيز و الكلار و الباشغر و صحراء القبجاق و ولايات الشمال و أقوام الأعراب و الشام و مصر و المغرب يُطلقون اسم "تتار" على أقوام الأتراك ". أنظر: جامع التواريخ،ج1، ص 58.

(**) يذكر السيّد الباز العريني أنّ المؤرّخ الصيني المعاصر Meng-hung يُشير إلى أنّ لفظة "جنكيزخان" ليست إلاّ تحريفًا للّفظة الصينيّة Tien-tze و معناها ابن السماء. و في اشتقاق صينيّ آخر Ching-Sze معناه المحارب الكامل. أمّا اشتقاقها المغولي، فإنّ المؤرّخ "رشيد الدين الهمذاني" يُشير إلى أنّ Cingiz، هي صيغة جمع للصفة Cink بمعنى قويّ و باسل. و وفقًا لما جرت به الرواية من أنّ جنكيزخان تلقّى لقبه من راهب شاماني فيصحُّ تبعًا لذلك أن تكون لفظة Cingis مُستمدّة من العقائد الدينيّة عند المغول. أنظر: الباز العريني: المغول، ص55.

"سيحون" و "جيحون"، هكذا يتبيّن جوار التتار و المغول(1).

و قد عاشت القبائل المغوليّة مُستقلّة عن بعضها البعض و في حُروب دائمة مع القبائل المجاورة لها و خاصّة قبيلة التتار، و ضمن هذه القبائل كانت تعيش طائفة صغيرة تحمل إسم قيات Qiyat و تُعرفُ باسم بورُجتين Bordjigine، و تكمن شُهرتُها في كونها موطن جنكيزخان(2)، و هي تنتمي بدورها إلى التتار السود، و هم أقلّ حضارة من قبائل أخرى مثل قبيلة الكريت في منغوليا الوسطى التي اعتنقت المسيحيّة النسطوريّة بين عامي 1007م و 1009م على يد أسقف نسطوري، و اتخذ زُعماؤهم في القرن الثاني عشر أسماء مسيحيّة، و كان للكريتيّين الغلبة على سائر العناصر المغوليّة و التتاريّة، و كان لملكهم طغرل صداقة مع " يسوكاي" والد جنكيزخان.

أمّا المركيت التي تنتمي إليها والدة و زوجة جنكيزخان، فهي أيضًا من أصل مغولي، و يُجاورون منازل مغول جنكيزخان جنوب بحيرة بايكل.

و النايمان قبيلة أخرى مغوليّة، و لكنّها اعتنقت الشامانيّة(*)، ثمّ نفذت إليها المسيحيّة النسطوريّة، و تأثّروا بحضارة الأويغور الترك جيرانهم في الجنوب.

و في زمن جنكيزخان، انقسمت القبائل المغوليّة إلى قسمين:

القسم الأوّل يشمل عشائر بيرون(أوْ بُولس)، و التايجوت(أوْ التانجوت)، و جاجيران، وبرلاس، و دوربان، و سالجيوت، و كتاكين، و كلّها تفوق القسم الثاني في أصالة النسب.

أمّا القسم الثاني، فيشمل عشائر دورلوكين Durlukin، و أرلات، و باياوت، و قورلاس،

---

(1) السيّد الباز العريني: المغول، ص 34. و انظر أيضًا :
Blochet(F), **Introduction à l'Histoire des Mongols**, Paris1924, pp. 10, 13 ; Cahun(Leon), **Introduction a l'Histoire de l'Asie Turcs et Mongols des Origines à 1405**, Librairie de la Société des gens de Lettre, Paris 1896, pp.7-12.
و انظر أيضًا : مقدّمة الدكتور حافظ أحمد حمدي في "سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي" للنسوي، ص11، إذ يحدّد موقع المغول اختصارًا بقوله: "... تعيش في الأقاليم الواقعة بين بحيرة بيكال في الغرب و جبال كنجاي على حدود منشوريا في الشرق،...".

(2) Grousset(René), l'empire des Steppes, pp. 248-249.

(*) كان المغول يدينون بالوثنيّة فيما يُعرف بالديانة الشامانيّة البدائيّة التي تقوم على عبادة الكواكب و الأصنام و أرواح الأجداد القدامى، و القليل منهم كانوا يدينون بالنصرانيّة، و منهم من كان لا يتديّن بدين معيّن. أنظر:
القلقشندي: صبح الأعشى، ج4، ص 310 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص 220 ؛ الرمزي:المصدر نفسه، ج1، ص354-356 ؛ أرنولد(سير توماس و.)Sir Thomas W. Arnold: **الدعوة إلى الإسلام**(بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميّة)، ترجمه إلى العربيّة و علّق عليه حسن إبراهيم حسن و عبد المجيد عابدين و إسماعيل النحراوي، ط2، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة 1957م، ص 251.

وإيكراس، و جلائر، وكلُّها خضعت لأجداد جنكيزخان(1).

و اختلف نمط معيشة القبائل المغوليّة من رعي إلى صيد السمك و الحيوانات الغابيّة بواسطة الحبال و النبال. و كان استعمالهم لعربات اليد الخشبيّة في ترحالهم مُلْفت للنظر(2).

و بصفة عامّة كانت القبائل التي تقطن الغابات، أكثر بدائيّة و أقلّ تمدُّنا، أمَّا القبائل الرحّالة فكانوا يستفيدون من جوارهم للإيغور في منطقة جوبي، أو إمبراطوريّة كين في بكين، و لم تكن لهم مدن لكثرة ترحالهم، و كانوا لا يُؤمنون بدين، و لا بشريعة، و لا يعرفون حلالاً أو حرامًا، و لا منطق بينهم إلاّ القوّة، و لا حكم إلاّ للسيف(3)، و ضلّ حالهم كذالك لفترة طويلة، ثُمّ تطوّرت اعتداءاتهم الانتقامية إلى غارات للفتح و التوسُّع حتّى زمن جنكيزخان (4).

ومهما يكن من أمر فقد عاشت مُختلف القبائل المغوليّة حياة امتازت بالشتات و التمزُّق، حتّى ظهر جنكيزخان، الذي ارتبط اسمه بتاريخ المغول كُلّه، و أخذ مرتبة الريادة على كُلّ القادة بسبب ما حقّقه من انتصارات تاريخيّة جعلت من دولة المغول تمتدُّ من الصين شرقًا إلى البحر الأدرياتيكي غربًا، و هذا في وقت زمني قياسي أرعب الشرق و الغرب على حدّ سواء(5).

- قبيلة كريت(Kérait) :

كانت تُقيم في الواحات الشرقيّة الداخليّة في صحراء جوبي، و جنوب بحيرة بايكل Baikal إلى حُدود سور الصين، و أصلهم من المغول. و يذكر المُؤرّخ "بيليُوت" Pelliot أنّه "لا يعلم على وجه الدقّة ما إذا كان هؤلاء من المغول فتأثّروا بالترك، أم أنّهم من الترك الذين اندمجوا وسط المغول، لكنّ المعروف أنّ كثيرًا من رؤسائهم كانوا أتراكًا"، و كانوا يدينون بالمسيحيّة النسطوريّة منذ أن اعتنقها ملكهم في سنة 1007م، و في القرن الثاني عشر الميلادي لم يزل أفراد حُكَّام هذه العائلة يحملون أسماء مسيحيّة، فذاع أمرهم في أوربّا و راجت الخرافات و الأساطير عن هذه الطائفة و ملكهم منها أُسطورة "الكاهن يُوحنّا" Prester Jean. أخضعت هذه القبيلة معظم أقوام المغول منذ القرنين الحادي عشر، و الثاني عشر الميلاديّيْن، و كان لملكهم طغرل صداقة مع " يسوكاي"، والد جنكيزخان، الذي كان أحد رؤساء المغول، كما هزم التتار سنة 1199م برغبة

(1) السيّد الباز العريني: المغول، ص 34، 35، 36. و انظر أيضًا :
Grousset(René), Histoire de la Chine, p.270.
(2) أنظر : Grousset(René), l'empire des Steppes, pp. 248-249.
(3) فؤاد عبد المعطي الصيّاد: المغول في التاريخ، ص 33-34 ؛ حافظ حمدي: الدولة الخوارزميّة و المغول، ص 126- 127.
(4) الباز العريني: المغول، ص 12.
(5) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج1، ص 156. و انظر أيضًا :
Pelliot(Paul), A propos des Comans, pp.145-146.

ومُساندة بلاط كين، و عُرف في التاريخ بلقبيْه الملكيّين الصيني و التركي:"وانج خان" Wang Khan(1)، و بهذا كان الكريت يُعادون جمعًا كبيرًا من الأقوام، و خاصّة النايمان على حدّ قول رشيد الدين الهمذاني، و حتّى جنكيزخان كان مضطرًا إلى محاربة " أونك خان" ملك الكريت و القضاء عليه(2).

- قوم مركيت (Markit):

كان المركيت نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، قبيلة قويّة تندرجُ ضمن القبائل المغوليّة(3)، الواقعُ موطنُها شمال بلاد الكريت على مجرى نهر سلنجا Sélenga و جنوب بُحيْرة بايكال Lac Baikal، و قد شنُّوا عدّة حروب ضدّ كُلّ من جنكيزخان و أونك خان، بالرُّغم من أنتمائهم لجنس المغول، فكاد جنكيزخان أن يُفنيهم لميلهم إلى العدوان و إثارة الفتن(4)،و قد وُجد ضمن هذا القوم طيفٌ من الديانة المسيحيّة(5).

- قبائل أويرات (Oirat) أو أويراد (Oyirad):

يعود أصلهُم إلى المغول، و يقعُ موطنهم بين نهر "أونُن" Onon و بحيرة بايكل، و يتشعّبون إلى عدّة فُروع، ما جعل لُغتهم تفترق نسبيًا عن لغة القبائل الأخرى(6)، و لمّا جاء جنكيزخان، خضعوا له بالطاعة رغم عددهم الكبير.

- قبيلة نايمان (Naiman):

أصلهم من الأتراك الذين غلب عليهم الطابع المغولي، يقطنون الحوض الأعلى لنهر أرخن، و منحدرات جبال التاي، و بالرغم من أنّهم يُدينون بالمسيحيّة على المذهب النسطوري، إلاّ أنّهم كانوا في نزاع مع قبيلة كريت، و كانوا بدوًا رُحَّلْ يُقيم بعضهم في الجبال، و البعض الآخر في الصحاري. أمّا مبادئ ثقافتهم فمستوحاة من الأوغوريّين، جيرانهم في الجنوب، و يُطلق علي ملوكهم اسم "كوشلوك خان" Kutchlug(*)، و معنى كوشلوك: ملك عظيم و قوي، أمّا بويروق،

(1) أنظر : Grousset(R),op.cit., pp.245- 246.
أمّا لفظ "وانج" Wang أو Ung، أو Ong، فتُطلق على الملك عند المغول، مثلما جرى إطلاقها على أتراك القرن الثامن الميلادي. أنظر: الباز العريني، المغول، ص 50.
(2) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج1، ص87.
(3) أنظر : Pelliot(Paul), op.cit., p. 146.
(4) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج1، ص 71-73.
(5) Grousset(René), l'Empire des steppes, p. 246 ; Barthold(W.), **Histoire des Turcs d'Asie central**, traduction de M. Donskis, librairie d'Amerique Et d'Orient, Paris 1945, p. 120.
(6) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج1، ص 77.
(*) يقول الدكتور حافظ أحمد حمدي في سياق حديثه عن النزاع القائم بين قبيلتي نايمان و كريت: "كان جنكيزخان قد أمر قائده شبي Chépé" بالبحث عن كشلوخان و إحضاره إليه حيًا أو ميّتا. و قد استطاع هذا القائد أن يُثير الشعور الديني =

فمعناه معطي الأمر، و كانت علاقتهم بجنكيزخان علاقة حرب و تآمر(1).

- أتراك " قرلق" أو القارلوق :

كان القرلوق يعيشون في المنطقة الواقعة بين جبال التاي و المجرى الأعلى لنهر أرتش، وهم من الأتراك أيضًا، يُعرفون في الشعر الفارسي باسم " خلُّخ"، و يُوصفون باستقامة القامة وجمال الوجه، و رُغم تأثُّرهم بالحضارة الفارسيّة المجاورة لهم، حيثُ "تمتدُّ بلادهم من فرغانة مسافة يجتازها المسافر في ثلاثين يومًا" حسب ما ذكره ابن حوقل، إلاّ أنّهم بقوْا يدينون بغير الإسلام إلى غاية القرن العاشر الميلادي، كما حدث أن تحالفوا مع الخطا ضدّ السلطان سنجر السلجوقي(2).

- قبائل القرغيز:

هم ترك نزلوا أعالي نهر ينيسي، و نمت شوكتُهم ابتداء من النصف الأوّل للقرن التاسع للميلاد حين طردوا الإيغور من منغوليا، و امتدّت بلادهم إلى حُدود المحيط، حتّى طردهم الخطا من منغوليا في أوائل القرن العاشر للميلاد، و انحصروا في أعالي نهر ينيسي إلى أن خضعوا للمغول زمن جنكيزخان سنة 1218م (3).

- الأتراك الأوغوز:

أُطلق إسم الأوغوز على مجموعة من القبائل التي تمّ توحيدها تحت سُلطة واحدة في القرن السادس الميلادي، و هي تُعرفُ أيضًا في اللُغة العربيّة باسم "ألغز"، و امتدّت حُدودها من الصين شرقًا مُجاورة بلاد القارلوق، إلى البحر الأسود غربًا حيثُ بلاد الخزر و البلغا، و أمّا شمالاً

= لسكّان التركستان ضدّ كشلوخان، و ذلك بأن أعلن الحريّة الدينيّة في كل مكان، و كان الأهالي و بخاصّة المسلمين منهم قد حرموا هذه الحريّة في عهد كشلوخان، فثار الأهالي و استقبلوا المغول استقبالاً حسنًا.

أنظر : Ross(E.D.) & Skrine(F.H.), The Heart of Asia, London 1899, p. 157.

و يذكر ڤامبري Vambery(A.), History of Bokhara from the Earliest Period down to the Present, London, 1873, p. 121, note 1. أنّ كشلوخان كان يعتنق الديانة البوذيّة و أنّه أخذ يعمل على نشرها في دولته، كما يذكر أنّ كشلوخان كان متزوّجًا من سيّدة مسيحيّة و كانت أيضًا تعمل على نشر دينها في هذه البلاد. و يذكر برتشنيدر Bretchneider(E.), Mediaeval Researches from eastern Asiatic sources,St Petersbourg, 1887, vol. i, p. 231. ، أنّ كشلوخان هو الذي كان يعتنق الديانة المسيحيّة شأنه في ذلك شأن غالب أفراد قبائل نيمان Naiman و هم أهله و عشيرته، و أنّ زوجته، ابنة كورخان الخطا (سلطان الخطا)، هي التي كانت بوذيّة الدين و أنّها كانت تعمل على نشر الديانة البوذيّة. و مع أنّنا نميل إلى الأخذ بالرأي الأخير، فإنّنا نخلص من هذا إلى أنّ المسلمين هم الذين كانوا موضع اضطهاد البوذيّين و المسيحيّين على السواء.". أنظر : النسوي: المصدر نفسه، ص46، حاشيية 3.

(1) رشيد الدين الهمذاني: جامع التواريخ، ج1، ص 96. و انظر أيضًا :
Guillaume de Rubruk, traduction et commentaire de Claude et René Kapler : **Voyage dans l’Empire Mongol**, Payot, Paris, 1985, p. 277 ; Barthold(W.), op.cit. , p. 120.

(2) ابن حوقل، أبي القاسم بن حوقل النصيبي: **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ، ص 381 ؛ فؤاد عبد المعطي الصيّاد: المغول في التاريخ، ص 30 ؛ السيّد الباز العريني: المغول، ص 31.

(3) الباز العريني: المغول، ص 29.

فيفْصلُ بينها و بين قبائل الكيماك المجرى الأعلى لنهر آتل. و قد دخل ألغز إلى البلاد الإسلاميّة في نهاية القرن العاشر الميلادي(الرابع الهجري)، و منهم السلاجقة الذين أقاموا إمبراطوريّة امتدّت من تركستان الصينيّة إلى حدود مصر، ثُمّ ثارت بعض بطون ألغز على السلطان سنجر سنة (548هـ/1153م)، و استطاعوا أن يأسروه، و أن ينهبوا خرسان، و أمّا البلاد التي جلا عنها ألغز من نهر سرداريا و قزوين، فقد حلّ بها القبجاق الذين جاوروا خوارزم سنة 421هـ/1030م (1).

و مهما يكن فإنّ الطبيعة الصحراوية الجرداء لمنطقة جوبي الشديدة الحرارة صيفًا و الشديدة البرودة شتاءً، و وُعورة مناطقها الجبليّة، و صعوبة العيش فيها، و اختلاف المشارب العقائديّة لسكّانها، و مدى الإنتشار الواسع لتلك القبائل المختلفة كان له الأثّر الواضح في تكوين المزاج العنيف لهذه الأجناس و الأقوام الإستبسيّة، و المعرفة التامّة بمن يُجاورُها، ما هيّأها لخوض غمار معارك أهليّة مريرة أثّرت سلبًا على قوّتها، و لفت أنظار الطامعين لاستعبادها، و لم يكن لها لتسترجع هيبتها و وحدتها لو لم يوجد بين أظهرها من يُوحّدها تحت راية واحدة لهدف لم يكن ليخطر ببال بشر في تلك الأزمنة، ألا و هو الغازي المغولي تيموجين المعروف في صفحات التاريخ باسم جنكيزخان.

III- تأسيس دولة المغول :

1- المغول قبل جنكيزخان:

لم يكن المغول شعبًا قويًا في بداية أمرهم، كما أنّ إسمهم ظهر للمرّة الأولى في الكتابات الصينيّة في عهد أسرة "تانج" T'ang الصينيّة(القرن ال8م-ال9م) بلفظ "مونج-وا" أو "مونج-وُو" أو "مونجهول" ("Mong-wa" ou "Mong-wou" ou "Mongghol") لتعيين مجموعة من القبائل القاطنة بمحاذات الجهة العليا لنهر "أمور" Amour، ثُمّ انتقلت إلى الجنوب الغربي أثناء القرنين العاشر و الحادي عشر الميلاديّين مجاورة لنهري "أونون" و "كيرولين" Onon et Kerulen ليستقرُّوا نهائيًا في منغوليا الشماليّة(2)، و مُقارنة بالشعوب الأُخرى، مثل الترك، التي احتكّت بحضارات كانت تفرض نفسها على الساحة مثل الحضارة الإسلاميّة، فإنّ المغول بسبب الجغرافية القاسية التي كانت تُحيط مساكنهم، فقد عاشوا في عُزلة حضاريّة(3). و

(1) الباز العريني: المغول، ص 30-31.

(2) أنظر: Roux(J.-P.), op.cit., pp. 31-32.

(3) ستودارد الأمريكي(لوثروب): المرجع نفسه، م2، ج4، ص 109-110. و نظر أيضًا : Roux(J.-P.), op.cit., p. 33.

أمّا التاريخ المدوّن للمغول فإنّه لم يبدأ إلاّ مع نهاية القرن الثاني عشر و بداية القرن الثالث عشر فحسب، بظهور كتاب "التاريخ السرّي للمغول" لصاحبه "Chigui Koudoukou" إبّان القرن الثالث عشر الميلادي، و ظهور بعض المصادر =

إظافة إلى انقسام هذا الجنس و تشتُّته فإن قبائله كانت دائمة المعارك ضدّ بعضها البعض، و بهذه الصفة لم تكن لتشكّل خطرًا على من يجاورها من الأجناس الأخرى، إلاّ ان تتوحّد، فحرصت أسرة كين الصينيّة على تغذية ذلك الصراع(1).

تذكر المصادر الصينيّة و المغوليّة أنّ المغول عرفوا تنظيمًا سياسيًا قبل عهد جنكيزخان، وإسنادًا إلى نفس المصادر فإنّ أوّل خانات المغول كان يُسمّى كايدو Kaidou، على أنّ هذه الإمارات بلغت قمّة مجدها في عهد حفيده كابول Qaboul الذي قاد عدّة حُروب ضدّ أُسرة كين الصينيّة خاصّة فيما بين سنتي 1135م و 1147م، ثُمّ خلفه أحد أقاربه (son cousin) و كان يُدعى أمبكي Ambaqai ، و كانت نهايته حين هزمه التتر ثُم سلّموه إلى أُسرة كين فقتلوه. ثُمّ جاء دور قريبه الآخر(son cousin) و كان اسمُه كوتولا Qoutoula لتسقط خانيّة المغول سنة 1161م تحت ظربات التتر و كين المتحالفتان، فدبّت الفوضى مجدّدًا بين المغول(2).

كان يسوكاي Yésugéi ba'atour، أبو جنكيزخان و حفيد كوتولا، رئيسا لفرع صغير لقبيلة من قبائل المغول، استطاع أن يهزم و يقتل أحد رُؤساء التتر، و كان اسمه "تيموجين-أوجي"، و حين رجوعه إلى زوجته Ho'élun، التي كانت من ذي قبل زوجة أحد رؤساء قبيلة المركيت Merkit فاختطفها "يسوكاي" ثُمّ تزوّجها، وجدها وضعت له إبنًا، فسمّاه "تيموجين"(*) ذكرى لانتصاره على التتر سنة 1167م. و في سنة 1176م قتل التتر عدوّهم يسوكاي بالسُّم، و لم يكُن جنكيزخان يبلُغُ من السنّ حينها إلاّ التاسعة من العُمر، فانفضّت وحدة القبائل المغوليّة التي كان قد تمكّن هذا القائد من توحيدها(3).

و مهما يكن فإنّه يبدو من تواتر الأحداث في أسرة جنكيزخان، أنّ ثمّة فكرة متأصّل و متجذّرة طامحة إلى توحيد الجنس المغولي و تكوين أمبراطوريّة تسود على الأقل في منغوليا، و مبارزة

= الفارسيّة و الصينيّة المكتوبة عن هذه الفترة، أمثال "عطا ملك الجويني" و "رشيد الدين فضل الله الهمذاني" و هما اثنان من الكتبة الفرس العاملين في خدمة المغول. أنظر:

كليرفورد(ا. بوزورث): **الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي(دراسة في التاريخ و الأنساب)**، ترجمة حسين علي اللبودي، مراجعة سليمان إبراهيم العسكري، مؤسّسة الشراع العربي، الطبعة الثانية، الكويت 1995م، ص 199.

(1) أنظر: Roux(J.-P.), op.cit., p. 40.

(2) أنظر: Grousset, hist. du moyen age, pp.278-279.

(3) أنظر : Grousset,op.cit., pp. 279-280.

أمّا "بيليوت" Pelliot فذهب إلى أنّ ولادة "تيموجين" كانت سنة(563هـ/1167م)، و ليست سنة(550هـ/1155م) مثل ما ذكر رشيد الدين الهمذاني، و لا سنة(557هـ/1162م) التي أقرّها المُؤرّخ "يوأن-شي" Yuan-che. أنظر:

Grousset, op.cit., p. 280, et 280 note 1014, et note 1015.

(*) تيموجين، لفظة صينيّة معناها الصلب الفائق، و منها تيمورج بمعنى الحدّاد، و من معانيها أيظًا الفارس الكامل. أنظر: الباز العريني: المغول، ص 43.

الحكومات المجاورة لها، و لذا لا يُستغرب من سرعة تكوينها و اتساعها في عهد جنكيزخان، سليل هذه الأسرة الملكيّة، كون الأصل و المصير الواحد لشعوبها و قبائلها، جعل منها جسدًا واحدًا صلبًا يغزُو و لا يُغزى، و يُذِلُّ و لا يُذلُّ، و يُحسبُ لها ألف حساب.

2- جهود جنكيزخان في توحيد المغول:

قويت شوكة المغول منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي، بفضل ما قام به تيموجين ابن يسوكاي من توحيد القبائل البدويّة في منغوليا، بعد أن أزاح مُنافسه جموكا (Djamouka) سنة 1204م، و هو الذي كان صديق طفولته ثُمّ تحوّل إلى عدوّ بجمع القبائل ضدّه، و بعد انتصاره على قبيلتي المركيت و النايمان سنة 1204م، و قبيلة كريت المغوليّة المسيحيّة سنة 1206م، فاضطُرّت الأوليتان إلى النزوح تجاه القراخطائيّين، و أمّا الثانية فاتجهت إلى الشمال نحو القبجاق ، و انتصر كذلك على بعض خوانين الصين المعادين له، فذاع صيْطه و توحّد المغول تحت لوائه ثُمّ لقّبه الكوريلتاي الذي هو تجمُّع استشاري لرؤساء القبائل باسم "جنكيزخان"، أي الملك الأعظم، ثُمّ وضع لدولته دستورًا سمّاه"اليساق" أو "الياسا"(*)، فكان عندهم كالقرآن عند المسلمين، على حدّ قوْل القلقشندي، ثُمّ زحف على شمال الصين سنة 1215م و استولى عليها، و جعل مدينة "قراقورم" بمنغوليا عاصمة له، أمّا آخر فلول "المركيت" فقد قضى عليها "سوبوتاي"، و هو أحد قُوّاد جنكيزخان، سنة1217م ثُمّ خضعت له قبائل القرغيز سنة 1218م (1).

(1) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 394-395 ؛ ابن كثير: البداية و النهاية، ج 13، ص 118 ؛ أبو الفدا(عماد الدين إسماعيل): **المختصر في أخبار البشر**، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ، ج3، ص 122-123 ؛
الرمزي: **تلفيق الأخبار و تلفيق الآثار في وقائع قازان و بلغار و ملوك التتار**، أورنبورغ، دون تاريخ، ج1، ص 345، 346 ؛ بارتولد: **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، عرّبه عن الإنجليزيّة أحمد السعيد سليمان، طبع و نشر مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، 1960م، ص 154. و انظر أيضًا :
Grousset, hist. du moyen age, p. 282, 284, 291, 296 ; Barthold(W.), Histoire des Turcs d'Asie central, pp. 119-120.
يُشير المؤرّخ جروسي Grousset إلى وجود اختلاف في تحديد تاريخ قضاء جنكيزخان على فلول المركيت، فبينما يذكر المؤرّخ رشيد الدين الهمذاني، و المصدر الصيني "Cheng-wou ts'in-cheng lou" سنة 1217م، يُشير المصدر المغولي "l'Histoire secrete des Mongoles " إلى سنة 1206م. أنظر:
Grousset, Histoire du moyen age, p. 291.

(*) اليساق أو اليسق أو اليسا أو ياسا أو ياسه أو ياساق، هو لفظ مغولي، و قانون جنكيزخان الذي جعله خليطًا من أحكام جمعها من الإسلام و المسيحيّة و البوذيّة و أضاف إليها ما شاء من مُخيّلته. و ألزم قومه باتباعه. يقول العمري :"قال الصاحب علاء الدين عطا الجويني، الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانيّة الله تعالى و أنّه خلق السماوات و الأرض و أنّه يُحيي و يُميت، قال في جهانكشاي، أنّ من أولاده من كان بملّة عيسى و من كان بملّة موسى، و منهم من أطرح الجميع، و كل من اعتقد من بنيه مذهبًا لم يكن له تعصُّب على غيره، و منهم من تقرّب بالأصنام...و أمّا الياسّه و أحوالها كثيرة، فمنها ما يُوافق الشريعة المحمّديّة... و ليعلم أنّ هذا الرجل لم يقف على سيرة ملوك و لا طالع كتابًا و جميع ما نُسب إليه من ذلك صادر عن قُوّة ذهنه و حسّه و استدراك الأصل من قبل نفسه... ". أنظر:
العمري: المصدر نفسه، ج3، ص 43-44 ؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج7، ص 183 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج 4، ص 310- 311 ؛ محمّد الخضري: تاريخ الأمم الإسلاميّة(الدولة العبّاسيّة)، ص 468، 469 ؛ الباز العريني: المغول، ص 60.

و هكذا بعد انتصار تيموجين على النايمان و حلفائهم، أصبح أعظم أُمراء السهوب، وانضوى تحت لوائه أكثر الزعماء جموحًا في كلّ أواسط آسيا، فيما توقّفت الفتن الداخليّة، و اعتقد الناس بأنّ جنكيزخان هو مبعوث الآلهة و مُمثّلُها على الأرض، و برز كباعث للأمبراطوريّة البدويّة القديمة، ثُمّ أخذ يُفكّرُ في توسيع حُكمه إلى ما وراء حدود منغوليا.

3- توسُّعات جنكيزخان في آسيا:

إنتهى جنكيزخان من السيطرة على جميع بلاد المغول في سنة 1206م، ثُمّ توجّه إلى غزوالصين(*)، فسيطر أوّل الأمر على التونغوز سنة 1209م، ثُمّ شنّ حربًا ضروسًا على كين، لسنتين متتابعتيْن عند مشارف حائط الصين، إنتهت بسُقوط عاصمتها بكين سنة 1215م، و التي كان الإمبراطور الصيني قد نقلها، قبل ذلك، سنة 1214م إلى مدينة كاي فونج (K'ai- fong) وراء النهر الأسفر، ثُمّ حوّل جنكيزخان نظره سنة 1219م إلى التركيستان و شرق إيران(1).

و بعد أن نظّم جنكيزخان دولته الواسعة و ألزم حكّامها بتنفيذ قانون الياساق و أحكامه، اتجه بعد ذلك بعامين غربًا إلى آسا الوسطى، التي كانت تُمثّلُ في ذلك الوقت بوّابة للعالم الإسلامي من الشمال الشرقي، و لم يكن يفصل بينه و بينها إلاّ دولة القراخطائيّين، و قبيلة النايمان المغوليّة المُتمرّدة عليه، و اللتين تمكّن من القضاء عليهما سنة 1218م. و قد واصلت حملته سيرها إلى أن بلغت بلاد ما وراء نهر جيحون و دولة خوارزم، و لم يلبث أن استولى عليها ما بين سنتي 1218م و 1222م (2). و من ذلك يكون جنكيزخان قد احتلّ إمبراطوريّة كين الصينيّة و جميع ما وراء النهر و بلاد فارس بجنوب إيران، ثُمّ ظهرت فلول جُيوشه لأوّل مرّة في جنوب روسيا سنة 1223م(**)، ثُمّ سارت بعدئذ إلى منطقة جورجيا التي سقطت هي الأُخرى في قبضتها إثر الهزيمة

(1) أنظر: Grousset, hist. de chine, pp. 272-274.

(2) ابن الأثير: الكامل(طبعة دار صادر)، ج12، ص 270-271،(و لاكنّه يذكرها في حوادث سنة 604ﻫ عوض 606ﻫ) ؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص 398 ؛ أبو الفدا: **تاريخه(المختصر في أخبالا البشر)**، دار المعرفة للطباعة و النشر، دون طبعة، بيروت، دون تاريخ، ج3، ص116 ؛ العمري: المصدر نفسه، ج3، ص 43 ؛ ابن خلدون: العبر، ج5، ص 137-141 ؛ الديار بكري: الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج2، ص367 ؛ القلقشندي: المصدر نفسه، ج4، ص 304 ؛ بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص 154-155 ؛ حافض أحمد حمدي: الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، ص 134-136.

أمّا المؤرخ"جروسي" Grousset فيذكر انقسام دولة الخطا بين خان النايمان و بين الخوارزميّة سنة(608ﻫ/1211م). أنظر: Grousset, hist. du moyen age, pp. 297, 300-301.

(*) كانت الصين مُقسّمة في ذلك الوقت إلى ثلاثة دول هي: "كين" و عاصمتها "بكين" Pékin، و "سونج" و عاصمتها "هانج-تشيو" Hang-tcheou، و أخيرًا أقوام "التونغوز" في شمال غرب الصين (التبت) le Tibet. أنظر: Grousset, hist. de chine, pp. 270-271.

(**) كان جيش جنكيزخان، حسب المؤرّخ فرنادسكي(ج) (Vernadsky G.)، تضمُّ عددًا غير قليل من النساطرة المسيحيّين قدموا من بلاد فارس بعد الفراغ من خوارزم شاه. أنظر: Kovalevsky(Pierre), op.cit., p. 84.

التي أوقعتها بالجورجيّين و حُلفائهم الروس، و ذلك على ظفاف نهر كالكا Kalka(*) غير بعيد عن بحر أزوف Azov. غير أنّ هذه الحملة العسكريّة قُدّر لها أن تتوقّف وتيرتها ردحًا من الوقت، بسبب موت جنكيزخان سنة 1227م، و ذلك بعد أن رجع المغول إلى آسيا الوسطى(1).

و مهما يكن من أمر فإنّ فتوحات جنكيزخان تُعدُّ مرحلة حاسمة في بناء إمبراطوريّة المغول. و كان لشخصيّته دورُها الفعّال في إنجاز هذا المشروع لما اتسم به من طموح مُفرط و شدّة بأس ورباطة جأش و قُدرة مُتميّزة في جمع فلول المغول. و من ثَمَّ كُلّلت جُهوده، و في وقت وجيز بتأسيس مُلك عريض لا تُضاهيه قُوّة في ذلك الزمان، امتدّت حدوده من كوريا شرقًا إلى حدود الدولة الخوارزميّة الإسلاميّة غربًا، و من سهول سيبيريا شمالاً إلى بحر الصين جنوبًا.

4- توسُّعات المغول بعد جنكيزخان:

كان العرف المغولي يقضي بتقسيم المُلك بين ورثة الخان المُتوفّى. لكنّ جنكيزخان بادر قبل وفاته عام 1227م بتقسيم مُمتلكاته المفتوحة على أبنائه الأربعة، كي يتخذوها وطنًا يعيشون فيه مع أتباعهم و قطعانهم(**)، و بمُقتضاه نال باتو Battu حصّة والده جوجي، أكبر أبناء جنكيزخان، الذي تُوفي قبل هذا الأخير، و هي تُمثّلُ غربي سيبريا و سهب القبجاق و جنوب روسيا و إقليم خوارزم، فأسّس في جنوب روسيا "القبيلة الزرقاء" La Horde bleu التي تعتبر نواة "القبيلة الذهبيّة" المُقبلة La Horde d'Or، كما أسّس ابن جوجي الثاني، أوردا Orda، ما يُسمّى بالقبيلة البيضاء في غربي سيبريا، و قد توحّدت هاتان القيبلتان المغوليّتان في القرن الرابع عشر الميلادي. و من رحمهما امبثقت مختلف الخانيات في سائر انحاء روسيا و سيبريا و تركستان، و هي خانيات القرم و استرخان و قازان و قاسيموف و تيومن و بخارى و كيو. و خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديّين، ظهر لشيبان، أحد أبناء جوشي، أحفاذ يُقال لهم الشيبانيون أوْ الأوزبك،

(1) أنظر : Kovalevsky(Pierre), op.cit., p. 84.

(*) و نهر كالكا kalka، في جنوب روسي و يصبُّ في نهر أزوف Azov. و لمزيد من التفاصيل أنظر:
ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، منشورات مكتبة الأسدي رقم7، دون طبعة، طهران، 1965م، ج4، ص300. و انظر:
Marco-Polo, La Description du monde, p. 417 ; Florinsky(Michael T.), op.cit., p. 39.
Grekov(B.) et Iakoubovski(A.), **la Horde D'Or: la domination tatare au XIII[e] et au XIV[e] siécles de la mer jaune à la mer noire**, tr. Du russe par François thuret, Paris, Payot, 1939, p. 190 note1.

(**) و يُطلق على هذه القطع من المراعي "يورت" Yurt أو youte "ننطوق" Nuntuq و هي أراض شاسعة تليق لرعي العدد الهائل لجياد و ماشية المغول. أنظر:
D'Ohsonn(C.), **Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'a Timour-Lang**, Paris, 1824, Seconde partie, livres 2, chapitre 1, p. 320.
و انظر أيضًا : كليرفورد(ا. بوزورث): المرجع نفسه ، ص 200.

و قد حكموا في خوارزم و ما وراء النهر(1).

أمّا جغتاي، الإبن الثاني، فكان نصيبه الأقاليم الممتدّة شرقًا، من إقليم ما وراء النهر حتّى القسم الشرقي من تركستان المعروف بتركستان الصين، و سرعان ما وقع الفرع الغربي لأحفاد جغتاي في نطاق النفوذ الإسلامي، فيما أظهر الفرع الشرقي منها مُقاومة في وجه ذلك النفوذ. و مع هذا فقد أسهم أحفاد جغتاي، في آخر الأمر، في نشر الدين الإسلامي في تركستان الصينيّة، و ظلُّوا هناك حتّى القرن السابع عشر الميلادي(2).

و وقع اختيار القوريلتاي(*) على الابن الثالث، أوكتاي، ليكون خليفة لوالده، جنكيزخان، كخان أعظم للمغول، غير أنّ حُكم الخانيّة الكبرى انتقلت على مدى جيل أو جيلين إلى ذريّة تولوي و إن كان كايدو، حفيد أوكتاي، قد احتفظ بأراضيه في منطقتي البامير Pamir و تيان شان Tien Shan، و دخل في مناوشات مع المغول الجغتائيّين، الذين هم من سلالة جغتاي، و مع الخان الأكبر قوبلاي إلى أن توفي كايدو عام 1301م (3).

أمّا الإبن الرابع و هو الأصغر، و المُسمّى تولوي، فقد كان من نصيبه قلب الإمبراطوريّة المغوليّة، و هو منغوليا ذاتها. و قد خَلَفَ إبناه منكو و قبلاي سُلاَلَةَ أوكتاي كخانين كبيرين في تاريخ المغول، غير أنّ مونكو وحده هو الذي أبقى على قرا قورم حاضرة لحكمه. أمّا أملاكهما فضمّت كلّ ما تمّ فتحه من أراضي الصين، حيث أصبح المغول يُعرفون فيها باسم أسرة "يئوان"، و استمرّ حُكم هذه الأُسرة حتّى النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، و عاصمتها بكين. و قد اعتنق حُكّامها الديانة البوذيّة، مما أحدث تصدُّعًا في علاقتهم مع خانات المغول التابعين لهم في غرب آسيا و روسيا، الذين اتخذوا من الإسلام دينًا لهم. و قام هولاكو، أحد إخوة قوبلاي، باجتياح العراق و الشام، و أسّس في بلاد فارس سلالة سُمّيَت بالإلخانيّين، التي توقّفت فيما بعد عن

(1) القلقشندي: المصدر نفسه، ج4، ص 308-310 ؛ ابن خلدون: المصدر نفسه، ج5، ص527 ؛ العمري: المصدر نفسه، ج3، ص 48 ؛ كليرفورد(ا. بوزورث): المرجع نفسه، ص 200-201.

(2) القلقشندي: المصدر نفسه، ج4، ص 308-310 ؛ كليرفورد: المرجع نفسه، ص 201.

(3) القلقشندي: المصدر نفسه،ج4، ص308-310 ؛ ابن خلدون: المصدر نفسه،ج5، ص527 ؛ العمري: المصدر نفسه، ج3، ص 47 ؛ كليرفورد: المرجع نفسه، ص 201.

(*) القوريلتاي، في المصطلح المغولي عبارة عن مجلس عظيم حافل يضم جميع الأمراء وأركان الدولة، و ينعقد عند تنصيب أحد أعضاء الأسرة المالكة إمبراطورًا أعظم على جميع المغول. أنظر:
رشيد الدين اهمذاني: جامع التواريخ، م2، ج1، ص 234 حاشية1.
و قد انعقد الكورلتاي في قراقورم Karakoroum سنة 633هـ/1235م، بهدف إعادة تنضيم الغزو بعد وفاة جنكيزخان، و عُزم على ثلاثة حملات، كانت إحداها موجّهة إلي جنوب الصين و كوريا، أمّا الثانية فإلى بلاد فارس و آسيا الصغرى، و الثالثة إلى روسيا و هنغارياHongrie . أنظر: Kovalevsky(Pierre), op.cit., p. 84.

الإعتراف بسلطة الخانات الكبار في منغوليا و بكين(1).

و هكذا يُعتبر ميلاد دولة المغول و تطوُّرها حدثًا مفصليًا في تاريخ الشرق كلّه إبّان القرن الثالث عشر الميلادي/السابع الهجري. و تعكس هذه الأهميّة ما أحرزه عنصر المغول في هذه المنطقة من تحوّلات و انقلابات جذريّة، على الصعيدين السياسي و العسكري، و تَبرُز من خلال هذه التطورات طموحات المغول و قُدراتهم التي تبدو متميّزة في ذلك الوقت، و بفضلها نجحوا في بناء أقوى إمبراطوريّة و أوسعها سُلطانا في عالم العصور الوسطى.

(1) القلقشندي: المصدر نفسه، ج4، ص 308-310 ؛ ابن خلدون: المصدر نفسه، ج5، ص527 ؛ كليرفورد: المرجع نفسه، ص 201-202.

الفصل الثاني

علاقة المغول بالقُوى المسيّحيّة(شرقًا و غربًا) حتّى معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م

I- المغول و شرق أوربا.
1- حركة التوسُّع المغولي في بلاد شرق أوربا:
2- رد فعل القُوى الأوربيّة لهذا الاجتياح:

II- مشروع التحاف بين صليبيّي أوربّا و المغول:
1- أوربّا و أسطورة الكاهن يوحنّا Pretre John
2- سفارات البابا إنوسنت الرابع إلى المغول
- سفارة لورنس البرتغالي Laurent de Portugal
- سفارة يوحنّا دي بلان دي كاربين Jean de Plan de Carpin (643هـ/1245م)
- سفارة أسكلين Ascelin
- سفارة أندرو دي لونجمو الأولى
3- اتصال ملوك أوربا بالمغول
- سفارات لويس التاسع إلى المغول
- سفارة أندرو دي لونجمو الثانية
- سفارة وليم روبروك و بارثولوميو دي كريمونا

III- مشروع التحالف بين الأرمن و المغول:
1- أولى بعثات هيثوم الأوّل إلى المغول
2- بعثة سمباد Sembad من طرف هيثوم الأوّل إلى المغول
3- قدوم الملك هيثوم الأوّل بنفسه على المغول

I- المغول و شرق أوربا.

1- حركة التوسُّع المغولي في بلاد شرق أوربا:

إنّ أوّل ظهور لفلول المغول في البلاد النصرانية سنة 1220م كان في إقليمي أرمينيا والكرج(جورجيا الحالية)، بغرب و شمال أذربيجان، و قد اتجه إليهما المغول قبل الانتهاء من احتلال مدن أذربيجان نفسها، لأنهم سمعوا بتجمع قبائل الكرج، الوثنيّة و النصرانيّة، لحربهم.

و كان الكرج في صراع مرير مع المسلمين وقتذاك، ذلك أنّ هؤلاء علموا بالخطر المغولي الداهم فتجمعوا في مدينة تفليس بجورجيا، و في هذا الموقع وقع اصطدام عنيف بينهما انتهى بانتصار المغول و امتلاكهم أرمينيا و جورجيا(1). و استمرّ زخف المغول سنة 1221م، تمكّنوا جرّاءهُ من اجتياح منطقتي داغستان و الشيشان المسلمتين الواقعتين في شمال أدربيجان على ساحل بحر قزوين ، ثم اتجهوا نحو الشمال صوب نهر الفولجا الروسي فقاتلوا أهله النصارى، و ارتكبوا فيهم بشاعة كبيرة شبيهة بتلك التي مارسوها تجاه المسلمين، و بذلك نجح المغول في بسط سيطرتهم على كل البلاد الواقعة بين شرق الصين و جنوب غرب روسيا و امتدّ الهجوم المغولي إلى الأراضي الروسيّة في غضون سنة 1222م(2).

وفي سنة 1223م بينما كان جنكيزخان يبسط سطوته على الدولة الخوارزمية، توغل جيش مغولي في روسيا غير أنّ عناصر من البلغار(*) الروس أوقفت هذا الزحف الذي يُعد ضربة موجعة للمغول لأنّها تُشكلُ أوّل هزيمة لهم في هذه الجهة مما أدّى إلى توقف حركة زحف المغول في أرض الروس، كما انعكس سلبًا على تواجدهم في روسيا و في بعض المناطق الأُخرى كجورجيا وأرمينيا، حيثُ فقدت سيطرتها عليها(3). و من ثَمّ توقفت الحملات المغولية في هذ الجُزء الأسيوي حتى مات جنكيزخان في سنة 1227م. و تولى من بعده حكم الدولة المغولية ابنه أوكتاي(4)، و لم

(1) ابن الأثير: الكامل، بيروت 1982م، ج12، ص382-384.

(2) المصدر السابق، ج12، ص385-388.

(3) المصدر السابق، ج12، ص388-389.

(4) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج5، ص113.

(*) طائفة على بحر نيطش(بحر القرم)، و هم خليط من الترك و الصقالبة السلافيّين، مدينتهم ضاربة في الشمال، شديدة البرد لا يكاد الثلج يقلع عن أرضها صيفًا و لا شتاءً. أنظر:

القلقشندي: صبح الأعشى، ج3، ص235، ج5، ص417 ؛ ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار بيروت للطباعة و النشر، لبنان، 1979م، ج1، ص485 ؛ الإصطخري(ابن إسحاق إبراهيم بن محمّد الفارسي المعروف بالكرخي): **المسالك و الممالك**، تحقيق محمّد جابر عبد العال الحيني و مراجعة محمّد شفيق غربال، وزارة الثقافة، الجمهوريّة العربيّة المتحدة، 1961م، ص 132.

يلبث هذا الأخير أن وجّه حملات عسكريّة، بين سنتي 1237م و 1242م، كانت نتيجتها إعادة احتلال المناطق النصرانيّة كأرمينيا و جورجيا و أوكرانيا و كذا روسيا بعد أن دُمرت مدينة موسكو بأكملها.

و قد استمرّ هذا الزحف بقيادة بايدر Baidou إلى أن وصل الجيش المغولي إلى أبواب أوربا الشرقيّة ثُمّ دخل أراضي مملكة بولندا، و دمّر الكثير من مُدنها. و لمواجهة هذا التهديد المغولي، اضطرّ الملك البولندي، الذي ضاق بهم ذرعًا، إلى الإستنجاد بفرسان الألمان الثيوثون(*) Les Chevaliers Teutoniques و الدوق هنري Henri حاكم سيليزيا بألمانيا. غير أنّ هذا الحلف المسيحي لم يُفلح في صدّ المغول حيثُ سجّل هزيمة نكراء أمام جيشهم و سقطت على إثرها بولندا. و لم تنج مملكة المجر من الخطر المغولي إذ اجتاح أراضيها القائد باتو، في نفس السنة أي 1242م، و تمكّن من احتلالها بعد انتصاره على المجريّين، على أنّ هذا الفوز العسكري سرعان ما دفع بالمغول إلى السير قُدمًا نحو الجنوب، فبعد أن تلاحمت قوات القائدين، بايدو و باتو، بالمجر، سارت نحو الجنوب فبسطت سيطرتها على دولتي سلوفاكيا و كرواتيا بوسط أوربا(1).

و بذلك تكون جيوش المغول قد وصلت إلى سواحل البحر الأدرياتي، و يكون المغول قد ضموا إلى أملاكهم نصف أوربا تقريبا. وكان من الممكن أن تستمر الفتوحات المغولية في أوربا لولا وفاة خان المغول الكبير، أوكتاي، في عام 1241م، فاضطر القائد باتو إلى إيقاف الحملات العسكريّة، و استخلف أحد قواده على المناطق المفتوحة ليعود إلى قراقورم، للمشاركة في اختيار الخان الجديد.

بعد وفاة أوكتاي تولت أرملته توراكينا خاتون حكم دولة المغول من سنة 1241م الى سنة 1246م، ثم خلفها ابنه كيوك عام 1247م. و في عهدهما توقفت حركة الفتح المغولي، التي أوصلت حدود الدولة من كوريا شرقا إلى بولندا غربا ومن سيبيريا شمالا إلى بحر الصين جنوبا، مما أضفى عليها صفة الإمبراطوريّة، مثّلت أكبر قوّة في العالم آنذاك، بعد أن شكل خطرها كابوسا مريعًا على الأوربيّين المسيحيّين إذ ذاقوا ويلات شديدة جرّاء بشاعة أعمالهم تجاه الأهالي الأوربيّين من تنكيل و تقتيل و تدمير، و قد وصلت أصداء تهديدات المغول درجة حتّى ساد الإعتقاد في أوربّا بأنّ مدينة روما نفسها، عاصمة العالم الكاثوليكي، أضحت حتمًا ضمن أطماعهم

(1) أنظر: Roux(J.P.), Histoire de l'empire Mongol, pp. 285-291.

(*)الثيوثون هيأة دينيّة عسكريّة ينتمي أعضاؤها إلى طبقة النبلاء الألمان. أُسّست ببيت المقدس سنة 1198م بموافقة البابا إنوسنت الثالث. للمزيد أنظر: Grand Larousse Encyclopedique, Paris VI^{e}, Librairie Larousse, 1968, T.10, p.273.

في أجل قريب.

إنّ التبعات الوخيمة التي أفرزها هذا الغزو لم يدفع بالقُوى المسيحيّة الأوربيّة إلى اتخاذ سياسة عسكريّة رادعة و ناجعة تجاه المغول و إنّما سارت وفق سبيل يرمي إلى مُهادنتهم وتنصيرهم حتّى تتمكّن من تحويلهم من عدو لدود إلى حليف استراتيجي يُساعدُها على تطويق المسلمين، و خاصّة أنّ المشروع الصليبي ضدّ هؤلاء ما زال قائمًا يُداعب مُخيّلة الأوربيّين.

2- **<u>رد فعل القُوى الأوربيّة لهذا الاجتياح</u>**:

لقد تواترت أخبار المغول على الساحة الأوربية ابتداءً من سنة 1221م، ثُمّ بعدها وصلتها أخبارٌ سارة عن الحملة الصليبية الخامسة(1228-1229م)، تُفيد بقرب وصول النجدات العسكريّة من لدن الملك، الأُسطورة، المعروف باسم داود(*) لنجدتها، غيرأنّه اتضح بعد فترة وجيزة هجوم هذا الملك على جورجيا La georgie و أرمينيا النصرانيّتين خلال سنتي 1226م و 1235-1236م. أما المجريون فقد وصلتهم أخبار المغول ابتداء من سنة 1236م، و بعد عام وصلت مسامع البابوية أنباء اكتساح المغول لمناطق هامّة في إيران وأرمينيا و بلغاريا.

إنّ اكتساح روسيا و جورجيا، ثم حملة باطوBattu سنة (1241-1242م) على هنغاريا وبولونيا و بوهيميا(1)، و نزوح اللاجئين إلى المناطق الغربيّة، تسبّب في إحداث الهلع في جميع أنحاء أوربا، و الشرق اللاتيني بعد سقوط دولة سلاجقة الروم الأتراك في أسيا الصغرى تحت ضربات المغول(2) في معركة كوسداغ kosedagh عام 1243م (**)، وقد لام الإمبراطور

---

(1) Guiragos de Kantzag, **Chronique**, traduction Dulaurier, J.A., Paris, octobre 1833, p. 197 ; Brehier(Louis), **l'église et l'orient au moyen age : les croisades**, 4eme édition, Paris (librairie Victor Lecoffre) 1921, p. 210 ; Samuel d'Ani, op.cit., p. 460 ; Richard(jean), **La Papauté et les missions d'orient au moyen âge(XIII-XV siècle)**, collection de l'école Française de Rome, Paris (Palais Farnèse) 1977, p.66 ; Richard (J.), **Les missions chez les mongols aux XIIIe et XIVe siècles**, dans histoire universel des missions catholiques : les missions des origines au XVIe siècle, Librairie Grund, Paris 4eme trimestre1956, T.I, pp.178-179.

و انظر أيضًا :

سبولر (بيرتولد):**المغول في التاريخ**، ترجمة يوسف سلب الشام، دار طلاس، الطبعة الأولى، دمشق، 1989م، ص32-36.

(2) Richard (j), La papauté., p.67.

(*) عن أخبار هذه الأسطورة ارجع إلى ص 66 من هذا الفصل.

(**) استغلّ القائد بايجو نويان فترة النزاع القائم بين سلاجقة الروم في آسيا الصغرى من جهة و حكّام مصر و الشام من جهة أخرى، فقصد أرزن الروم سنة1242م، و كانت تشمل سلطنة قونية بأرمينيا الصغرى، يحكمها غياث الدين كيخسرو الثاني(634-644هـ/1239-1247م) ابن علاء الدين كيقباذ، فسقطت في أيدي المغول. و على إثر هذه الفاجعة اضطرّ المسلمون و بعض المسيحيّين إلى التحالف لمواجهة المغول في آسيا الصغرى، و كان ذلك أوّل تحالف من هذا النوع منذ ظهور الحركة الصليبيّة في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، فكوّن غياث الدين كيخسرو جيشًا من المسلمين، و الأرمن بقيادة هيثوم الأوّل ملك أرمينيا الصغرى، و الكرج، و اليونانيّين، و البيزنطيّين، و الإفرنج، و سار إلى أرمينيا، فهُزم كيخسرو في نواحي "أرزنجان" في مكان يسمّى بالجبل الأقرع أو كوسداغ kosedagh. أنظر: =

الألماني فريدريك الثاني(1220-1250م)(*) المجريين لمَا لحق بهم من هزائم، و حثّ حُكّام أوربا على الاتحاد تحت قيادته في القيام بحملة صليبيّة ضدّ المغول، و لكنَّ البابا إنوسنت الرابع Innocent IV (1244-1254م) رفض اقتراحه للعداوة التي بينهما(1).

أمّا البابا جريجوري التاسع(1227-1240م) Gregoire IX الذي قرّر إعلان حرب صليبية باتجاه المجر(2)، فقد فشل في مساعدة الملك المجري بيلا الرابع Bela IV(1235-1270م). غير أنّ المغول انسحبوا فجأة(3) من المجر في ربيع عام 1242م، و بذلك زال من أذهان البابوية وملوك أوربا القيام بأيّ تحالف يجمعهم بالمغول لدحض المسلمين. أمّا البابا إنوسنت الرابع فقد دعا بعد أسابيع قليلة من تنصيبه، إلى حملة صليبية ضدّ المغول(4)، ثم تحوّل هذا المشروع إلى محاولة تنصير المغول و دفعهم إلى القضاء على الإسلام (5).

= ابن العبري:المصدر نفسه، ص 251، 252 ؛ الباز العريني: المغول، ص 177-178 ؛ عبد المعطي الصيّاد: المرجع نفسه، ص182-183. و انظر أضًا :
D'Ohsonn(C.), **Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'a Timour-Lang**, Paris 1824, T.I, p.99 ; Deguigne, **Histoire general des Turcs, des Mongols, et des autres Tartares occidentaux**, Paris, 1756-1758, T.II, pp 246-245 ; Duraulier(M. éd.), **les Mongols d'apres les historiens Armeniens**, dans J.A., Paris 1958, p. 463.
نتج عن هزيمة هذا التحالف الفريد، أن أرسل "غياث الدين كيخسرو الثاني إلى الخان المغولي يعلن له خضوعه، و تعهّد بدفع جزية سنويّة، و قدّم "بدر الدين لؤلؤ" أمير الموصل ولاءه بالنيابة عن أهل دمشق، و فرض على أهلها ضريبة، أمّا الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس، فقد أرسل سفارة إلى "كيوك خان" سنة 1246م و أعلن خضوعه، فتوقّفت الغارات المغوليّة في هذه الفترة عند حدود الإمبراطوريّة البيزنطيّة. أنظر:
المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**، نشره و علّق عليه الد كتور محمّد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1956م، ج1، ق2، ص 315. و انظر:
Bréhier(Louis), **le Monde Byzantin**, Librairie Victor Lecoffre , 6eme éd., Paris, 1928, T. I, p. 381.

(1) أنظر : Matthiew Paris, op.cit., pp.147-158 ; Brehier(L.), l'Eglise et l'Orient., p. 217 ; Élie Berger, **Saint Louis et Innocent IV**: Étude sur les rapports de la France et du saint-siége, librairie du collége de France, Paris, 1893, p. 116.

(2) أنظر : Richard (J), Les missions., P.179.

(3) انسحاب المغول بسبب موت الخان أوكتاي Ogodai في قراقورم سنة 1241م، و رجع أمراء الجيوش المغوليّة إلى عاصمتهم لتنصيب خانًا عظيمًا آخر.

(4) الطريف في الأمر أنّ البابا دعا في ليون سنة 1245م، لحملة صليبيّة إلى الأرض المقدّسة، و أُخرى ضدّ فريدريك الثاني، إلى جانب الدعوة ضدّ المغول، و وعد كلّ من ينخرطُ فيها بغفران الذنوب، فهل كان بمقدور أوربّا حمل هذا العبء في ظلّ الحروب بين ملوكها. أنظر: Élie Berger, Loc.cit.
و انظر أيضًا : أرنست باركر: **الحروب الصليبيّة**، نقله إلى العربيّة الباز العريني، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر الطبعة الثانية، بيروت، 1967م، ص120.

(5) رأى البابوات و أهل الغرب أنّ خير وسيلة لاتقاء خطر المغول هي محاولة استمالتهم إلى الديانة الكاثوليكيّة، ثُمّ العمل على استبعاد خطرهم بإيفاد البعثات و الإرساليّات إليهم. و أخيرًا محاولة استمالتهم إليهم في حرب صليبيّة جديدة ضدّ الإسلام.
أنظر: Lesourd(Paul), **Histoire des missions catholiques**, Librairie de l'arc, Paris (6e), 1937, p.25.
و انظر أيضًا : جوزيف نسيم يوسف: **تاريخ العصور الوسطى الأوربيّة و حضارتها**، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، الطبعة الثانية، بيروت، 1987م، ص 243-244.

(*) هو بن الإمبراطور هانري السادس، تربي في باليرم Palerme بإيطاليا في أحضان البابا إنوسنت الثالث، و نُصّب ملكًا على صقيلية سنة 1197م، ثمّ نصّبه البابا هونوريوس الثالث إمبراطورًا على ألمانيا و إيطاليا سنة 1220م. تعرّض للحرمان الكنسي في عهد البابا جريجوار التاسع Gregoire IX سنة 1227م و سنة 1239م، إلاّ أنّه خرج على رأس حملة صليبيّة إلى بيت المقدس و تسلّمها من الايُوبيين سنة 1229م.
للاستزادة أنظر : Grand Larousse Encyclopedique, Paris VIe, Librairie Larousse, 1968, T.5, p.257.

و في خضم هذه الأحداث ظهرت بوادر التحالف المسيحي المغولي بظهور أطراف جديدة مثل مبادرة الملك الفرنسي لويس التاسع Louis IX(*)، و كذا هيثوم ملك أرمينيا الصغرى(1223-1268م) الذي شاركت قواته في حملة هولاكو على بغداد سنة 656هـ/1258م و على بلاد الشام.

و قد ساعد سقوط الخلافة العباسية، كلاًّ من مسيحيي الشرق و الغرب على تكثيف النشاط التبشيري بين المغول و أمم الشرق جميعاً، كما أصبح التحالف المسيحي المغولي ممكناًّ، و ظهر ذلك في تهديدهم لمصر و ما بقي من بلاد الشام(1)، و لكن النفاق والخيانة وعدم وفاء بعض الصليبيين لعهودهم، غيّر مجرى الأحداث في معركة عين جالوت(2) يوم 25 رمضان 658هـ/03 سبتمبر 1260م، و التي كانت أوّل هزيمة للمغول(3)، و ذلك بعد موافقة صليبيي عكّا على مرور قوّات السلطان المملوكي سيف الدين قطز(**) عبر أراضيها لمحاصرة المغول من الخلف. و لا يستبعد أن يكون لهذا الحدث علاقة بالبابوية و ملوك الغرب الأوربي مثل ملوك فرنسا و إنجلترا الذين كانت نواياهم تتمثّلُ في إضعاف الطرفين(4)، كما أنّ صليبيي عكّا لم يكونوا يثقون في المغول الذين اشتهروا بالمذابح، بقدر وثوقهم بالمسلمين لما عُهدوا عليه من وفاء بالعهد(5)، كما استمرّ مسيحيو الغرب يعتبرون المغول عدواً داهما، خاصة و قد وصلت مسامعهم منذ سنة 1257م أخبار عن استعداد المغول للقيام بغزوات جديدة، و قد جاء البطريارك جاك بانتاليون Le Patriarch

(1) المقريزي: السلوك، ج 1، ق2، ص 584، ج 2، ق 1، ص 692.
و انظر: Sanders(J.T.), **The history of the Mongol conquests**, Cambridge University Press, London1971, p.80.

(2) ذكر ياقوت الحموي عين جالوت بلفظ عين الجالوت، و هي بلدة لطيفة بين بيسان و نابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولوا عليها مدّة ثمّ استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيّوب في سنة 579هـ.
أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج3، ص760.

(3) أبو شامة: **الذيل على الروضتين**، تحقيق عزت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان:"تراجم رجال القرنين السادس والسابع:"ط2،القاهرة1947م، ص207 ؛ رشيد الدين الهمذاني: **جامع التواريخ- تاريخ غازان خان**، دراسة و ترجمة عبد المعطي الصيّاد،دار الثقافة للنشر، القاهرة، 2000م، م2ج1ص310-316 ؛ ابن كثير (أبو الفداء الحافظ ابن كثير): **البداية و النهاية**، مكتبة المعارف، ط5، بيروت 1983م، ج13، ص220 ؛ محمد جمال الدين سرور: **دولة الظاهر بيبرس في مصر**، دار الفكر العربي، طبعة 3، القاهرة، 1993م، ص93.

(4) كان سيمون رابان عطا Semeon Ata قد حمّل لونجومو خطاباً إلى البابا يحثه على عقد السلام مع الإمبراطور فريدريك الثاني (617-648هـ/1220-1250م) حتى تتوحد أوربا لمواجهة المغول و المسلمين .
انظر : Setton (Kenneth M.), **A History of the crusades**, éd. Marshall W. Baldwin, Philadelphia, 1955-1985, T.III, pp.520-521.

(5) محمود سعيد عمران: **تاريخ الحروب الصليبية(1095-1291م)**، دار النهضة العربيّة، ط2، بيروت،1999م، ص325-326.

(*) هو ملك فرنسا (1226-1270م)، تعرّض في سنة 1244م لحُمّة قويّة عزم على إثرها على التوجّه إلى بيت المقدس لتحريرها من أيدي المسلمين إن شفاه الله. و في سنة 1248م وفّى بقسمه و توجّه على رأس الحملة الصليبيّة السابعة إلى مصر حيث لقي هزيمة نكراء سنة 1250م. كانت وفاته في تونس سنة 1270م أثناء الحملة الصليبيّة الثامنة، و هو مصاب بمرض الطاعون.
للاستزادة أنظر : Grand Larousse Encyclopedique, Paris VI^e, Librairie Larousse, 1968, T.6, p.861.

(**)هو الملك المظفّر سيف الدين المعزي محمّد بن مودود ابن أخت خوارزم شاه، من أولاد الملوك، و لمّا دهم المغول الشام تسلطن على مصر أواخر657هـ و سار بالجيوش أوائل رمضان و كسر المغول التي عليها كتبغا. أنظر: الكتبي(محمّد بن شاكر): **فوات الوفيات والذيل عليها**، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت ، سبتمبر 1973م، ج3، ص202-203 ؛ ابن تغري بردي: **النجوم الزّاهرة في ملوك مصر و القاهرة**، طبعة دار الكتاب، مصر، دون تاريخ، ج7، ص72.

de Courpalay, Jacques de Pantaleon يُحذر البابوية بقرب وصول هذا الخطر، و فعلاً فقد هاجم المغول كلاً من بولونيا و المجر سنة1259م(1).

II- مشروع مسيحيي أوربا للتحالف مع المغول :

كان لاسترجاع صلاح الدين الأيوبي لبعض الأراضي الإسلامية، وضعف الممالك الصليبية في الشام الأثر البالغ على المُخطّطات الأوربيّة بكاملها، و حلم ملوكها و بابواتها بعودة مجد الحروب الصليبية الأولى، فنشروا أخبارًا كاذبة بين شعوب أوربّا مثل أسطورة الكاهن يوحنا كما سنرى لاحقًا، و ذلك عسى أن تدفعهم للشروع في حملة صليبيّة إلى الشرق. و حينما ظهر خطر المغول قرّرت البابوية حربا صليبيّة لصدّهم، لكن سرعان ما تحوّل هذا المشروع إلى اتصال دبلوماسي بين أوربا وبين الخانات العظام في الفترة الممتدّة بين سنتي1245م و 1250م، ثمّ اتصال لويس التاسع بهم بين عاميْ 1250م و1255م، و لكن هذه الاتصالات سُرعان ما أخفقت في الوصول إلى تحقيق أهدافها(2).

1 - أوربا وأسطورة الكاهن يوحنا Pretre John :

انتشرت في أوربا في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، مباشرة بعد سقوط الرها، عام 1144م بين يدي زنكي، أسطورة الكاهن يوحنا، و قد روّج لها رجال الدين المسيحيون في الشرق، و ذلك بعد أن يأس الصليبيون من المساعدات الأوربية.

و مفاد هذه الأسطورة، أنّ يوحنا(*) ملك يقطن في بلاد ما وراء أرمينيا و بلاد الفرس مع

---

(1) أنظر: Richard(J.), **Le Début des Relations entre la papauté et les Mongols de Perse**, dans J.A., Paris, 1949, T. CCXXXVII, p.293.

(2) أنظر : Lesourd, op.cit., p.66.

(*) كان مسيحيُو بلاد الشام يرون من خلال روايات الحجّاج المشارقة في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، أنّ الكاهن يوحنّا هو إمبراطور إثيوبيا و موطنه بالهند، و هذا على إثر انتصار خان القراخطائيّين على السلطان سنجر عام 1141م. أمّا سانت كنتين St Quentin فجعله أبًا للملك داوود و كذا خانًا لقبيلة كريت ، بينما ذهب بلان كربين Plancarpin، مبعوث البابا إنوسنت الرابع،جازمًا أنّ الكاهن يوحنّا ردّ المغول على أعقابهم لمّا هاجمهم هؤلاء أعالي الهند. أمّا ربروق Rubruck فجعله الكاهن يوحنّا رئيس قبيلة "النايمان" Naiman و أنّ أخاه هو خان الكريت. أنظر:
Simon de Saint Quentin, **Histoire des tartares**, publié par jean Richard, librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris 1965, livre(XXX, 69), p. 27 note3.

النساطرة، انتصر على الفرس و تقدّم ليمُدّ يد المساعدة لكنيسة القيامة في القدس. و بعد سقوط دمياط في أيدي الصليبيين في شعبان - رمضان 616هـ/نوفمبر1219م، ظهرت الأسطورة على أنّ ملكًا من الهند اسمه داود، سوف يساعد المسيحيين في مواجهة المسلمين(1)، و على غرار ما وصل أوربا من انتصارات المغول عن طريق ما كتبه المؤرّخ أوليفر دي بادربورن Oliver de Paderborn المندوب البابوي للحملة الصليبية الخامسة(*)، بلاجيوس Belajius ، فإن البابا هونوريوس الثالث (1216-1227م) أعلن أنّ الملك داود هو الكاهن يوحنا و أنه انتصر على شاه فارس، ثُمّ استولى على بلاده، و أصبح على مسيرة عشرة أيّام من بغداد، وانتشرت هذه الشائعة منذ عام 1219م (2)، و الحقيقة أنه اختلط على ملوك أوربا و بابواتها في تلك الآونة اسم جنكيزخان باسم داود الذي يسمى أيضًا الكاهن يوحنا. و خلال عام (1220-1221م) اجتاح المغول إقليم جورجيا، و وصلت إلى المجر أخبار اجتياح مغولي عام 1236م، وافقت لعهد أوكتاي خان (1229-1241م)، جعلت التطابق بين الأسماء الثلاثة ظاهرًا، و دقّت أوربّا ناقوس الخطر بظهور أولى موجات اللاّجئين من الحملة المغولية الجديدة سنة 1240م على المجر و بولونيا وبوهيميا(3).

---

(1) Richard (j), La Papauté., op.cit., p.66.

يُمكن أن يكون داود David هو اسم رئيس قبيلة نايمان المغوليّة "كوشلك خان" Kutchlug، و هو مسيحي نسطوري تحوّل بعدها إلى البوذيّة، و هو محلّ أسطورة الملك داود التي تُرجمت إلى اللاّتينيّة زمن الحرب الصليبيّة الخامسة، ثُمّ مُزجت غزوات جنكيز خان الذي هزم كوشلك خان، بهذه الأسطورة فأصبحت بذلك مُشوّهة، فلم يُعرف هذا من ذاك.

أمّا مسيحيّي الشرق فقد أسندوا إليه الإنتصارات العظمى على حساب الأمراء المسلمين في تركستان، و أفغانستان، و إيران، و الذي لم يكن في الحقيقة إلاّ شخصيْ السلطان محمود خوارزم و جنكيزخان. أنظر:

Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXX, 69), p. 27 note2.

(*) سمع أمراء الحملة الصليبيّة الخامسة سنة (1220-1221م) بالغزو المغولي لإيران فحاولوا الاتصال بهؤلاء الغزاة يحسبونهم جيش الكاهن يوحنا رغبة منهم في محاصرة الإسلام .

أنظر : Richard (j), Le début des relations., p.292.

(2) محمود سعيد عمران: **الحملة الصليبية الخامسة** ، دار المعارف، ط 2 ، الإسكندرية، 1985م، ص 270-272 .

(3) أنظر : Richard (j) , La Papauté., p.67.

و من بين شخصيّات القرن الثاني عشر الميلادي التي ظهرت كشخص الكاهن يوحنّا في آسيا الوسطى، نذكر الملك المسيحي القراخطائي الذي انتصر سنة1141م على آخر السلاجقة. و بعد قرن من الزمان، يذكره بلان دي كاربين على أنّه سلطان خوارزم و حليفه القراخطائي في حربه ضدّ السلاجقة. و قد نال جنكيزخان حظّه من هذا التشبيه لفترة، حيث وُصف بأنّه من نسل الكاهن يوحنّا، إلى أن ظهرت حقيقة الفضائع التي ارتكبها في حقّ المسيحيّين. أنظر:

Guillaume (de R.), op.cit., p. 272.

أمّا روبروك Rubrouk فقد ذكر الكاهن يُوحنّا في ثلاثة مواضع:

- "...نسطوري، و كاهن، ذو سلطة كبيرة، و كان يحكم شعبًا إسمه نايمان، و كانوا مسيحيّين نساطرة، و ذلك بعد موت ملكهم كور خان(Coir-chan أو Kur-Khan)، و كان النساطرة يُسمُّونه الملك يوحنّا..."، و الظاهر أنّ الملك يُحنّا هو شخص "كوشلك خان" Kutchlug الذي استولى و حَكَمَ بلاد القراخطا لعدّة سنوات، حتّى انتصار المغول سنة 1218م، بعد فراره من بلاد النايمان حينما اجتاحه جنكيز خان. أنظر:

Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 123, 272. =

2- سفارات البابا إنوسنت الرابع Innocent IV إلى المغول:

لقد تزامن ظهور المغول مع ازدياد حدّة الصراع الإسلامي الصليبي. و إذ بات المغول يُشكّلون خطرًا على أوربا، فقد سعى البابا إنوسنت الرابع(1244-1245م)، منذ أن اعتلى عرش البابوية، إلى تحويل هذا الخطر ضدّ المسلمين، لتبدأ المساعي الحثيثة لعقد التحالف المسيحي المغولي. و لأجل هذا الغرض دعا البابا يوم 3 جانفي 1245م إلى عقد مجمع كنسي في مدينة ليون الفرنسيّة للنظر في المسالة المغوليّة Remedium Contra Tartaros(1)، و حُدّد موعد الاجتماع ليوم 28جوان1245م (2).

= -ثُمّ يذكر روبروك أنّ ليُوحنّا هذا أخًا اسمه"أونك خان" Unc (Ong-Khan)، وهو كاهن أيضًا و ملك قوي يحكم شعب الكريت و المركيت المسيحيّين النساطرة في مدينة صغيرة باسم "قراقورم" Caracorum. إلاّ أنّ المحقّقان Kappler (Claude et René) يستبعدان أيّ قرابة بينهما، و أنّ رُتبة الكاهن المنسوبة إليه غير واقعيّة، يُبرّرُها قول روبروك بنفسه:"أنّ النساطرة ينشرون الإشاعات الكثيرة من لا شيء". و لعلّ سبب هذه الدعاية المضخّمة في تلك الآونة هي توفير الأجواء لحملات صليبيّة على بلاد الإسلام، كانت الإمارات الصليبيّة بالشام في أمسّ الحاجة إليها.

أمّا ملك الكريت المذكور فهو "تغرل" Toghroul الذي لقّبه الصينيُّون "Wang" أي الملك أو الأمير، إذ كان حليفهم ضدّ التتر، و كان تيموجين الشاب من رعاياه Vassal لمدّة طويلة. أنظر:

Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 123, 124, 147,272, 124 Note 11 ; Charton(M. Édouard), **Voyageurs Anciens et Modernes**, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855, T. II, p. 304 note 2.

- أمّا الموضع الثالث فهو في مستهلّ ذكر دخوله المنطقة السهليّة التي كانت مقر بلاط الخان"كيوك" Guyuk(Keu-chan)، بأنّ هذه الأراضي كانت للنايمان Naimans رعايا الكاهن يوحنّا. أنظر:

Guillaume de Rubruk, op.cit., Article XXVII, p.155.

و أمّا "ماركوبولو" Marco-Polo فيُؤيّدُ تسمية الكاهن يوحنّا ب: أونك خان Unc (Ong-Khan)، و اللفظ عنده "Unccon" (deux C) avec. إلاّ أنّه لم يُفرّق بين "أونك خان" الكرايتي، و الأمراء المسيحيّين من قبائل "الأونقوت" les Oengut، الذين جعلهم من نسل الكاهن يوحنّا، بقوله:"و ملك هذه المدينة من نسل الكاهن يوحنّا و هو الآخر يحمل إسم الكاهن يوحنّا، و هو كاهن مسيحي، و كل من ببلاده مسيحيّون، و لكن اسمه الحقيقي هو جورج"، و George هذا هو أحد أحفاد أمير "الأونقوت" les Oengut و حليف جنكيزخان، و رُبّما يرجع هذا الخلط عده إلى أنّ كلا الأميريْن كانا على النسطوريّة المسيحيّة. أنظر:

Marco-Polo, **Relation de Marco-Polo (divisement du monde)**, dans Charton(M. Édouard), Voyageurs Anciens et Modernes, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris 1855, T. II, p. 304 ; Marco-Polo, **la Description du monde**, texte integral en français moderne avec introduction et Notes, éd. Louis Hambis, librairie C. Klincksieck, 1ere edition, Paris 1955, Article LXXIV, pp. 91-92, 381 note91(George), 381 note92(Prêtre Jean-Uncan), 382 note92(George).

(1) أنظر: Richard (j),La papauté., p.70.

الظاهر أنّ المسيحيين جميعاً كانوا على استعداد لأن يتغاضوا عن الشّناعات التي ارتكبها المغول في حق أبناء دينهم في روسيا و بولندا ، وأن يتحالفوا مع المغول من أجل تحطيم قوّة العرب و الإسلام. أنظر :

براون: **تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السّعدي**، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي، القاهرة، 1954م، ص575.

(2) أنظر : Setton (K), op. cit., p. 272.

و بالمُقابل أعدّ البابا السفارات لإرسالها إلى المغول قبل الاجتماع(1)، لعلّه ينجح في ثنيهم و تنصيرهم و بالتالي صدّهم عن أوربا(2)، إلاّ أنّ الخان كيوك Guyuk(1246-1248م) رفض و طلب خضوع جميع الشعوب دون شرط أو قيد(3).

لم تنج أوربا إلاّ بموت هذا الخان و هو الأمر الذي حدث مع سلفه أوكتاي Ogodai (1229-1241م)، إلاّ أنّ الخان الجديد مونكا Mongka عاود اجتياح بولونيا و هنغاريا، فدعا البابا إنوسنت الرابع سنة 1254م إلى حملة صليبيّة للدفاع عن بلدان البلطيق، و لكنّ خضوع الروس للمغول و قطع الليثوانيين علاقتهم بالكاثوليك اللاّتين حال دون قيامها (4) .

و الحقيقة أنّ البابا إنوسنت الرابع أرسل في تلك الفترة أيضًا إلى الأرمن و الروس و بعض أمراء المسلمين في سوريا، بهدف توحيد الكنيستين الشرقيّة و الغربيّة و الوقاية من حملة مغوليّة جديدة(5)، فأرسل الفرانسيسكانيّان(*) لورنس البرتغالي Laurent de Portugal إلى الأرمن، ويوحنّا دي بلان دل كاربين Jean de Plan carpin إلى الروس، و كذا الدومنيكانيّان(**) أندري دي لونجومو Andre de Longjumeau الذي كلّف هو الآخر برسالة إلى بعض أمراء الشام

---

(1) أرسل البابا إنوسنت الرابع خطابين إلى حان المغول (أنظر نص الخطابين المؤرّخين في 05 و13 من مارس1245م). أنظر : Dawson, **The Mongol mission**, first edition, London, 1955, pp. 73-76.

(2) Richard(j.), Le début des relations., pp.292-293 ; Idem, La papauté., op.cit., p.68 ; D'Ohsonn(C.), **Histoire des Mongols depuis Tchinguiz- Khan jusqu'a Timour-Lang**, Paris, 1824, T.II, p.463.

(3) أنظر : Simon de saint Quentin, op.cit., livre (XXXII, 52), pp.115-117.

(4) أنظر : Richard(J.), La Papauté., p. 68.

(5) أنظر : Richard(J.), Les Missions., p. 179.

(*) الفرنسيسكان أعضاء في منظّمات نصرانيَّة مختلفة تنتمي إلى الرومان الكاثوليك، أخذوا برنامج حياتهم من القديس فرانسيس، أو القديس(1181-1222م)، و هو منصّر إيطالي، أسّس عام 1209م نظام الإخوة الصغار لإصلاح الكنيسة. و ينقسم نظامه إلى ما هو تربوي، و تنصيري، و اجتماعي. و في عام 1219م صاحب الغزاة الصليبيّين إلى مصر.
أنظر: الموسوعة العربيّة العامّة، ج17، ص 275-276، 349.

(**) الدومنيكان، أعضاء لهيئة دينيّة كاثوليكيّة أسّسها القدّيس الإسباني دومينيك في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي. و الاسم الرسمي للهيئة هو نظام الإخوة القساوسة، و اشتهر الدومنيكان بأنّهم وُعَّاظ و مُدرّسون و منصّرون، و يوجد المقر الرئيسي للهيئة في مدينة روما. قامت بمقاومة جماعة دينيّة في جنوب فرنسا تدعى الألبجنسيّين(Cathares)، و استعان البابا بأعضائها في البعثات الخاصّة مثل الخدمات الدبلوماسيّة و الدعوة المؤيّدة للصليبيّين في هذا العصر. و كان الدومنيكان من بين الأعضاء الرئيسيّين لمحاكم التفتيش على مدى قرون و هي تلك المحاكم التي أزهقت أرواحًا كثيرة بتهمة الهرطقة. كما كانوا من بين مجموعة النظام اللاّهوتي الأوّل للعرش البابوي. أنظر:
الموسوعة العربيّة العامّة: المرجع نفسه، ج 10،ص 535-536.

و بعض رؤساء الكنائس الشرقيّة ، أمّا أسكلين Ascelin فقد أرسل إلى المغول خاصة(1).

أمّا الرسالتان، فإحداهما مؤرّخة في يوم 05 مارس 1245م، و تضمنت شروحا حول الديانة المسيحيّة، و دعوة للمغول باعتناق المسيحيّة، أمّا الثانية فهي مؤرّخة في يوم 13 مارس 1245م ، و تضمنت دهشة و تعجّب البابا لهذا الهجوم ضدّ المسيحيّين المُسَالمين(2)، و تهديدًا بالغضب الإلهي، وأخيرًا اقترح فكرة السلام بين الطرفين(3).

- **سفارة لورنس البرتغالي Laurent de Portugal :**

استمر حكم توراكينا خاتون للمغول من سنة 1241م إلى سنة 1246م، ثُمّ حكم كيوك(1246-1248م) من بعدها، و في هذه السنوات السبع لم يدخل المغول بلدا جديدا إلاّ فيما ندر. و عندما رأى الصليبيون في غرب أوربا النهج غير التوسعي عند كيوك خان تجددت آمالهم في التعاون مع المغول ضد المسلمين و قرر البابا انوسنت الرابع إرسال سفارة إلى منغوليا يرأسُها الراهب الفرنسيسكاني لورنس البرتغالي Laurence de Portugal، فانطلق هذا الأخير سنة1245م باتجاه الشرق يصاحبهُ الراهبان، الإنجليزي يوحنّا دي ستانفورد Jean de Stanford، و أبرهام

---

(1) أنظر : Richard(J.), Les Missions., p. 179.
والمعتقد أنّ كلا من دل كربين ولورنس قد حمل رسالة أخرى إلى الكنائس الشرقيّة . أنظر :
Jacques Boudet, **Chronologie Universelle d'Histoire**, Paris, collection in extenso, aout 1997, p.485 ; Bernard de Vaulx, **Les Missions: leurs histoires des origines à Benoit XV(1914)**, Paris XIV, 1960, p. 34.

(2) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., p. 21 note1.
كان "بيليوت" Pelliot يظنُّ أنّ كلّ رؤساء البعثات البابويّة إلى المغول كانوا يحملون نموذجًا للرسالتين معًا، و هو صحيح بالنسبة ل Plan Carpin، و يمكن أن يكون كذلك ل Ascelin، و لكن رواية Ascelin، (أنظر: S[t] Quentin, op.cit., XXXII, 40. , p.94.)، لأحداث بعثته و على غرار ردّ بايجو، لا تُشير إلاّ ل: Cum non Solum، و من جهة أخرى و علاوة على الرسالتين السالفتي الذكر، هناك رسالة ثالثة كان على كلّ البعثات البابويّة حمْلُهَا و هي: Cum Sinus Super المؤرّخة في (25 مارس 1245م) موجّهة إلى رؤساء الكنائس الشرقيّة تدعوهم إلى الإتحاد مع روما:
توجّه Ascelin إلى تبريزTabriz ببلاد فارس لإيصالها إلى "ربان عطا" Siméon Rabban-ata(أنظر: S[t] Quentin, op.cit., XXX, 70. , p.30.). أمّا Longjumeau فقد حمل هذه الرسالة إلى عدّة رؤساء الكنائس و من بينهم Siméon Rabban-ata الذي استقبله بحفاوة، ثمّ توجّه صوب فرقة عسكريّة مغوليّة مرابطة في Tabriz ليُسلّم الرسائل البابويّة، لأنّه كان مرسولاً إلى ملك المغول، و هناك تعرّف على نسطوري موظّف لدى المغول، تجدّد لقاؤه به فيما بعد في قبرص سنة 1248م كمبعوث مغولي إلى لويس التاسع،(كانت رحلة "لونجمو" عبر حلب و الموصل). أنظر:
Simon de Saint Quentin, op.cit., p. 21 note1.
و لا شكّ أنّ هذا التعجب و هذه الدهشة نابعة عن خيبة أمله في تحقق أسطورة الكاهن يوحنّا .

(3) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 2), pp.21-22 ; Richard (j), La papauté., p.70; Dawson (Christopher), **The Mongol Mission**, First Published by Shed and Ward LTD, London, 1955, pp. 73-76.

دي لارد Abraham de Larde، و لكنّ رحلته انتهت عند مدينة أياس(Ayas)(*)Lajazzo(1)، لأنّ البابا غيّر رأيه و استدعاه إليه، ثم سلّم الرسالة إلى الدومينكانيان أسكلين دي كريموني Ascelin de Cremoni و أندرو دي لونجمو André de Longjumeau (2).

و مجمل ما حمل لورنس البرتغالي من خطاب إلى الخان المغولي، دعوة إلى اعتناق المسيحيّة(3).

لم تحقّق هذه البعثة أهدافها السياسيّة لأنّ الرسالة لم تصل إلى أيّ حاكم من حكّام المغول وعاد لورنس في نفس السنة من حيث أتى ليقابل البابا (4).

- سفارة يوحنا دي بلان دي كاربين (Jean de Plan de Carpin) سنة 1245م :

و بعد أسبوع من الخطاب الأوّل، الذي حمله لورنس، أرسل البابا إنوسنت الرّابع سفارة ثانية يرأسُها الرّاهب الفرنسيسكاني يوحنّا دي بلان دي كارين، و هو يحمل رسالة من لدنه مؤرّخة في الثالث عشر مارس سنة 1245م(5)، و إذ كان البابا حريصًا على الاتّصال بالمغول، جاءت وتيرة إرسال السفراء متتابعة، و اجتهد في اختيار يوحنا لأداء هذه المهمّة نظراً لرصيده الهائل في

(1) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit. , p. 21 note 1 ; Chardin(P. Pacifique), **Les Missions Franciscaines en Chine**, Éd. Auguste Picard, Paris 1915, p. 12 ; D'Ohsonn(C), op.cit., T.II, p.464 ; Setton, op.cit., T.II, p. 47.

(2) إنّ بعثتي أسكلين و لونجمو كانتا محل دراسة بول بيليو Paul Pelliot (المغول و البابويّة) و هي الآن كاملة من خلال الفصلين" على خطى يحنا أف بلان دي كاربين " و "وليم روبروك " "En marge de Jean du Plan Carpin " et " Guillaume de Rubruck" . أنظر : Richard (j), La papauté., p.71.

(3) أنظر : Setton, Loc. Cit.

(4) الحقيقة أنّ المعلومات عن سبب رجوع لورنس دون إيصال الرسائل غير متوفرة لدينا ،أمّا المصادر و المراجع المتوفّرة لدينا فقد بقيت صامتة حول الموضوع، و حسب ظنّنا أنّ مخاطر السفر في ظلّ انعدام الأمن أرغمت المبعوث بالتوقّف عند هذا الحدّ، ما جعل البابا يقرّر رجوعه ، أو أنّ البابا قرّر إرسال من هو في ظنّه أصلح منه لهذه المهمّة . أنظر : Richard (j) , La papauté., p. 70.

(5) أنظر : Gregory G. Guzman, **The Encyclopediste Vincent of Beauvais and his Mongol extracts from John Of Plano Carpini and Simon of Saint-Quentin**, in Speculum(a journal of medieval studies) , the Medieval academy of America, Cambridge, Massachusetts, April 1974, p. 295.
و للتفصيل عن تزامن هاتين السفارتين، أنظر:
Gregory G. Guzman, **Simon of Saint-Quentin and the Dominican Mission to the Mongol Baiju**, in Speculum(a journal of medieval studies), the Medieval academy of America, Cambridge, Massachusetts, 1971, pp. 234-240.
كان مضمون هذه الرسالة يُبرزُ دهشة البابا أمام هذا الاعتداء المغولي السافر ضدّ المسيحيين، و توعّدهم بالعقاب الإلاهي، ثم عرض عليهم السلام المسيحي المغولي. أنظر :
Jean de Plan Carpin, **Histoire des Mongols**, Traduction de M. Édouard charton, Voyageurs anciens et modern, Paris 1855, T.II, p.227 ; Dawson, the Mongol mission, op.cit., pp.75-76 ; Simon de Saint Quentin, op.cit. , p. 21 note 1 ; Richard (j), La papauté., p.70.

(*) أياس(Ayas أو Lajazzo أو Laïas)، هو ميناء بقيليقيا Cilicie في أرمينيا الصغرى على خليج الإسكندريّة (golf d'Alexandrette)، لعبت هذه المدينة دورًا تجاريًا هامًا أثناء الحروب الصليبيّة بحُكم كونها تابعة لملوك أرمينيا الصغرى، فكانت مُتنفسًا للتجارة الأوربيّة بعيدة عن البيزنطيّين و عن المسلمين. أنظر:
Marco-Polo, La Description du monde, p. 343.

الرّهبنة، و دوره الهام في نشر أفكار الكاثوليكيّة في ألمانيا و بوهيميا، و المجر، و النرويج، و الدنمارك، و اللّورين، و إسبانيا حيثُ حقّق نجاحًا هامًا هناك(1).

و في مضمون هذه الرسالة كشف البابا عن دهشته من الإعتداء المغولي السافر، و توعّدهم بالعقاب الإلاهي، و فيها دعا قادة المغول إلى اعتناق المسيحيّة و إلى العمل سويًا على إحلال السلام مع الأطراف المسيحيّة الأوربيّة، باعتباره المسؤول الأوّل عن المسيحيّة و حامي حماها منذ زمن بعيد. كما تضمّنت الرسالة رغبته في تحويل المغول إلى قُوّة ترمي إلى غزو المسلمين و قهر شوكتهم، في هذه المرحلة التي ما زال لهيب الحرب الصليبيّة مُشتعل في نفوس المسيحيّين(2).

غادر بلان دي كاربين و أصحابه مدينة ليون الفرنسية يوم 16أفريل 1245م، فاجتازوا بوهيميا Bohéme، و بولنيا Pologne، و روسيا. و في منطقة سيليسيا Silésie البولونيّة، التحق بهم المترجم الفرنسيسكاني، بنوا البولونيBenoit de Pologne(3)، ثُمّ اجتمعت البعثة بأساقفة روسيا فقرأ عليهم دل كاربين رسائل البابا، الذي حضّهم بالرجوع إلى الكنيسة الكاثوليكيّة، فقد كان من استراتيجيّة البابا أيضًا جلب الحواضر الأورثوذكسيّة إلى فلك الكاثوليكيّة الرومانيّة، و بعد ذلك اتجّهت البعثة إلى كييف، العاصمة الرُوسيّة(4). قرّر بلان دي كاربين خلال هذا الشّوط من رحلته أنّ الاتصال بالمغول، و مُحاولة تنصيرهم و التفاوُض معهم في إمكانيّة التحالُف ضدّ المسلمين، أهمّ من الإطالة في مفاوضة الروس للإنضمام إلى الحضيرة الكاثوليكيّة، لذا توجّه لملاقاة الفلول

(1) أنظر: Dawson, **The Mongol mission**, first edition, London, 1955, p. 2 ; D'Ohsonn(C), op.cit., T.II, p. 475 note 1.

(2) لعلّ هذا أبلغ دليل على ما كانت البابويّة تخطّط له للتحالف و محاصرة بلاد الإسلام، فقد كان الغرض من هذاالاتصال هو التوحد مع المغول لحرب المسلمين في مصر و الشام، و لم يكن مهما أن ترفع الاحتلال و الظلم عن نصارى أوربا و روسيا.
أنظر: Jean de Plan Carpin, op.cit. p. 227 ; Dawson, op.cit., pp. 73-76.
لمزيد من التفاصيل عن مضمون هاتين الرسالتين إرجع إلى ركن الملاحق من هذا البحث.

(3) أنظر: Jean du Plan de Carpin, **Histoire des Mongoles**, dans Forstetter(Michel), Voyageurs étrangers en Russie : textes choisis du X^e au XX^e siècle, Paris, la Table Ronde, 1947, p. 7 ; Richard (J.), La Papauté, p. 70 ; Chardin(P.P.), op. cit. , p. 12 ; D'Ohsonn(C.), op. cit. , T. II, p. 463, 464.
كان عُمُر دي كاربين في تلك الآونة قد بلغ الستين عامًا(Soixante ans)، ما لم يمنعه عن تحمُّل مشاق السفر البعيد في تلك الضروف القاسية التي لا يتحمّلُها حتّى الشباب، و لعلّ كلّ ذالك راجع إلى نمط الحياة الصارمة التي عاشها في أحظان الكنيسة، و حقده الصليبي تجاه المسلمين و عزمه على الإتصال بالمغول من أجل تحقيق مآربه مهما كلّفه ذالك.
أنظر: Guillaume (de R.), op.cit., p. 46.

(4) أنظر: Jean du Plan de Carpin, dans Forstetter(M.), op. cit., pp. 7-8 ; Jacques Boudet, op.cit., p. 486 ; Richard(j), La Papauté., p. 71.
لم يكن في يدي" يوحنا دي بلان دي كاربين" و لا أحدًا ممن يصحبه شيأً يقدّمونه للمغول، و كانوا أصلاً يعيشون على ما يُقدّم لهم من صدقات في سفرتهم هذه، فجهّزهُم الدوق "كونراد" و زوجته، و أسقف "لانسيسك" أو (لانتيسي) l'évéque de Lencisc و بعض نبلاء بولونيا les nobles de Pologne بعض التحف لتقديمها للمغول كهدايا، و إن دلّ ذلك على شيء فهو عزم الصليبيّين و تضافر الأيدي من أجل تحقيق أهدافهم المسطّرة التي تمثّلت في ظرورة الوصول إلى بلاط المغول للتفاهُم معهم على خُطّة التحالُف. أنظر: D'Ohsonn(C); op.cit., T.II, pp. 464-465.

الأولى لجيش المغول قرب كييف تحت قيادة باطو Batu (1) .

اتجهت البعثة إلى مدينة كييف التي وصلتها يوم 13 فبراير 1246م، ثُمّ وصلت إلى معسكر مغولي، في منطقة سيرا- أوردو Sira-orda الواقعة أسفل نهر الفولجا، الذي يبعد عن سراي، مركز المغول و مقرّ باطو على نهر الفولجا، بمسيرة نصف يوم، في 22 جوان 1246م، ومن هذه اللّحظة أخذت البعثة تنتقل من معسكر إلى آخر حتىّ قرّر باطو إرسالها إلى منغوليا(2).

و حينما وصلت البعثة إلى منغوليا وجدت وضعًا سياسيًا مُتغيّرًا، إذ مات أوكتاي Ogodai (1229-1241م) الخان الأعظم، و تولّت زوجته توراكينا خاتون(1241-1246م) الوصاية على العرش، فانشغلت هي بمشاكل السياسة الداخليّة عن البعثة التي ظلّت تنتظر عدة أسابيع حتى تمّ تتويج الخان الجديد كيوك Guyuk(1246-1249م)، فاستقبلها يوم24 جويلية1246م (3).

لاحظت البعثة أنّ الخان الجديد كان مُحاطًا في بلاطه بمجموعة من المسيحيين النساطرة(4)، أمّا المبعوثان، يوحنا و بونوا، فقد نجحا أثناء إقامتهما تلك الفترة في منغوليا، التأثير على وزيرين من وزراء كيوك، فاعتنقا المسيحيّة و أثّرا بدورهما على ذلك الخان، حيثُ تردّدت أخبار قيامه ببناء كنيسة صغيرة، فاعتقدت البعثة أنّه سيعتنق المسيحيّة قريباً، ثُمّ اتضح يقينًا أنّ الخان غيرُ

---

(1) أنظر: Richard(j), Les Missions., p. 179 ; D'Ohsonn(C), op. cit., T.II, p.465 ; Chardin(P.P.), op.cit., p. 12.

(2) أنظر: Jean du Plan de Carpin, dans Forstetter(M.), op. cit., pp. 8-10 ; Guillaume (de R.), op.cit., p. 46 ; D'Ohsonn(C), op.cit., T.II, pp.465-469 ; Richard(j), La Papauté., p. 71.

(3) Jean de Plan Carpin, op.cit., pp. 226-234 ; D'Ohsonn(C), op. cit., T.II, p. 469-470 ; Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 32), pp. 90-92 ; Gregory G. Guzman, op.cit., p. 295.

إظافة إلى "دل كاربين" و من معه، حظر الكورلتاي عدّة شخصيّات إسلاميّة منها، "الشاه مسعود" حاكم التركيستان، و ركن الدين السلجوقي صاحب قونيا Roum، و أخ أمير حلب، و مبعوثي الخليفة العبّاسي، و مبعوثي الإسماعيليّة في "ألموت"، و مبعوثي أمراء الموصل و فارس و كرمان، كلُّهم قادمين بهدايا ثمينة.

أنظر: D'Ohsonn(C), op.cit., T.II, p. 454.

و كرمان، مدينة بين غزنة و بلاد الهند و هي من أعمال غزنة. أنظر:

البكري الأندلسي (ت487هـ)**: معجم ما استعجم من أسماء البلاد و المواضع**، حقّقه و ضبطه مصطفى السّقا، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، بيروت (1403هـ/1983م)، م2، ص 1125 ؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص 455.

(4) سجّل بلان دي كاربين أنّ الكاثوليك كانوا على الدوام إلى جانب كيوك في بلاطه، و أنّ كنيسة صغيرة كانت بجوار خيمة الرئيس، و أنّه كان يُموّل رجال الدين الكاثوليك، كما أنّ الكاثوليك الذين هم من أقاربه كانوا يؤمنون أنّه سينتصر.

أنظر: Richard(j), La Papauté., pp. 75-76.

و إن دل ذلك على أمر، فهو أن عقائد المغول قد أخذت في التغير في تلك المرحلة بعد الحملات التي وجهوها إلى أوربا، فقد تزوج عدد كبير من قادة المغول من فتيات نصرانيات، و بذلك بدأت الديانة النصرانية تتغلغل نسبيا في البلاط المغولي، و هذا ساعد أكثر على إمكانية التعاون بين المغول و الصليبيين.

و بهذا تكون سفارة " بلان دي كاربين" أوّل ما يتّصل بالمغول في عقر دارهم من قبل البابا إنوسنت الرابع. أنظر:
Gregory G. Guzman, op.cit., p. 295 note 37.

راغب في استبدال عقيدته بالمسيحيّة، و إن أظهر تعاطفا تجاه المنتمين إليها، لقد استقبل كيوك السفارة الصليبية بحفاوة لكثرة النصارى في البلاط المغولي، و لكن عندما قرأ رسالة البابا وجد أنّه بالإضافة إلى طلب توحيد العمل العسكري ضد المسلمين، يدعوه إلى اعتناق المسيحية، فاعتبر خان المغول ذلك تعديا من البابا، إذ كيف يطلب من خان المغول أن يُغير من ديانته، فأعاد كيوك السفارة الصليبية بعد أن حملها برسالة إلى البابا يطلب منه أن يجمع أمراء الغرب الأوربي جميعا ليأتوا إلى منغوليا لتقديم فروض الطاعة و الولاء للخان المغولي، و بعد ذلك يبدأ التعاون بالمفهوم المغولي(1).

و على هذا فإنّه يبدو أنّ كلّ محاولات البابا لثني المغول عن اجتياح أوربّا و التحالف معهم ضدّ المسلمين قد باءت بالفشل الذريع، و أنّ دكّ المغول لأبواب روما قد بات وشيكًا.

و بعد يومين من هذا اللقاء كان دَوْرُ أُمّ الخان كيوك، لتستمع للبعثة، لكنّها هي الأخرى رفضت المسيحيّة، ثُمّ سرّحتها بالهدايا في شهر نوفمبر من السنة نفسها بعدما قضت شهرًا بأكمله في بلاط خان المغول(2).

عادت البعثة من نفس الطريق الذي أتت منها، و في حوالي شهر مايو1247م، وصلت إلى معسكر الخان باطو(*)، على نهر الفولجا، و منه إلى مدينة كييف، ثمّ إلى المقرّ البابوي في روما حيث استقبلها البابا إنوسنت الرّبع بحفاوة بالغة، و ضيّفها عنده مدّة ثلاثة أشهر، ثُمّ عُيّن يوحنّا رئيساً لأساقفة مدينة أنتفاري Antivari الواقعة على ساحل دلماشيا، و بالطبع رفض البابا و ملوك أوربا الغربية طلب الخان كيوك. و بذلك فشلت السفارة الصليبية في تحقيق أهدافها جزئيا حيث لم يسلّم المغول برغبات البابا، كما لم يشر الخان كيوك في ردّه إلى أيّ ارتباط مع البابويّة أو بأي قوة

---

(1) أنظر : D'Ohsonn(C), op.cit., T.II, pp. 473-474 note 1 **;** Simon de Saint Quentin, op.cit., livre (XXXII, 51.), pp. (114-115) note 2.

لا يخبرنا بلان دي كاربين عن ظروف تسليم الرسالة للمغول، و لا عن محتوى المحادثات حول موضوع التحوّل إلى المسيحيّة، خاصة و أنّ الفرنسيسكان تحدّث إلى الخان لوقت وجيز ، و لم يخبره عن هدف بعثته إلاّ كتابياً . و لكن الظاهر أنّ رد الخان كيوك كان من نسيج شخص آخر، إلاّ أنّه إقرارٌ بالإطّلاع عليها ولو كان بطريقة محبطة : " أنتم تقولون أنه إن تلقّيت التعميد، سيكون خيراً ، فطلبكم هذا غير مفهوم " بمعنى أنّه مرفوض تمامًا. أنظر :

أربري: **تراث الفرس**، ترجمة محمّد كفافي، و أحمد الساداني، و السيّد يعقوب بكر، دار إحياء الكتب العربيّة، مصر 1959م، ص436 ؛ براون: المرجع نفسه، ص 574 ؛ الرمزي: المصدر نفسه، ج1، ص394. و انظر أيضًا :

Jean de Plan Carpin, op.cit., p. 237 **;** Richard (j), La papauté., p. 73 .

(2) أنظر : D'Ohsonn(C.), op.cit., T.II, pp .473-474.

(*) طلب المبعوثان من "باتو" ردّه الشخصي للبابا إنوسنت الرابع، فردّ أنّه لا يزيد عن ردّ الخان"كيوك" شيأ. أنظر:
Jean de Plan Carpin, **Histoire des Mongols**, dans M. Édouard charton, Voyageurs anciens et modern, Paris 1855, T.II, p.139 **;** D'Ohsonn(C), op. cit., T.II, pp. (471- 472) note 1.

صليبية أخرى بروابط الصداقة.

و بالرغم من الفشل الذريع لتلك البعثات البابويّة و التهديد المغولي الصريح إلاّ أنّ البابا لم يكُن ليُثنيه ذلك عن أهدافه و طموحاته، فقرّر المُعاوِدة و هذه المرّة ببعثة الدومينيكاني أسكلين Ascelin (1).

- سفارة أسكلين Ascelin :

قرّر البابا إنوسنت الرابع، مُعاودة الاتصال بالمغول، وأرسل سنة 1247م سفارة إلى بايجو، قائد القوات المغولية المرابطة في مدينة تبريز بمنطقة فارس، إذ لمس فيه البابا حبا لعداوة المسلمين و التوسع من جديد في أراضيهم، فأرسل إليه أسكلين و هو أحد رجال الدين الدومنيكان، و في صحبته رجل اسمه سيمون دي سانت كانتين Simon de Saint Quentin، صاحب كتاب "تاريخ التتار" Histoire des Tartares .

سلك أسكلين الطريق الجنوبي عبر قبرص و بلاد الإسلام ، حيث مرّ بسورية ليخترق تركيا ثم أرمينيا ، فوصل إلى تفليس Tiflisعاصمة جورجيا في الشّمال(2) ، أين لحق به راهب دومنيكاني آخر يدعى جيوسكارد أف كريمونا Guiscard de Cremona ، و استمرّت الرحلة لستّة أسابيع حتى وصلوا إلى معسكر المغول بقيادة بايجوBaiju في بلاد فارس يوم 25 مايو1247م(3)، فاستقبلهم بايجو بالترحاب، ثُمّ سألهم عن نية الصليبيين في الهجوم على سوريا و مصر(*)، إذ توقع أن هجوم الصليبيين عليها سوف يشغل المسلمين في هذه الأقاليم عن الدفاع عن الخلافة العباسية في بغداد، و بذلك تسهل مهمته في اقتحامها(4)، و لكن بايجو اعتبر نفسه غير مؤهل لاتخاذ القرار الاستراتيجي الخطير المتمثّل في التعاون مع أوربّا، بينما أنّ كيوك لا يزال على نهجه في عدم التوسع و رفض التعاون مع البابا و ملوك أوربّا إلا بعد خضوعهم له، فقرر

(1) أنظر : Richard (j), les Missions., p.179 ; D'Ohsonn(C.), op. cit., T.II, pp .474-475, 475 note 1 ; Gregory G. Guzman, The Encyclopediste., pp. 295-296 ; Sanders, op.cit., p.91, 94, 188 ; Runciman (Steven), **A History of crusades**, First pub., Cambridge University Press, London 1951, T.III, p.232.

و قد ذكر "بيليوت" Pélliot أنّ أصل "أسكلين" هو منطقة لومبارد Lombarde . أنظر: Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 40.), p. 94 note 4.

(2) أنظر : Marco-Polo, La Description du monde, p. 357 ; Richard (j), La Papauté. , p.71.

(3) أنظر : Simon de S[t] Quentin, op.cit., livre(XXXII, 40.), p. 95, 95 note1 ; D'Ohsonn(C.), op.cit., T.II, p. 475 ; Richard (j), les Missions., p.179.

(*) كان الملك الفرنسي لويس التاسع يجهز في تلك الأوقات لحملة صليبية على مصر، و التي عرفت في التاريخ بالحملة الصليبية السابعة، و كان يجمع جيوشه في جزيرة قبرص.

أنظر : Grand Larousse Encyclopedique, Paris VI[e], Librairie Larousse, 1968, T.6, p.861.

(4) Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 41), pp. 97-98.

بايجو أن يوجه تلك السفارة إلى الخان كيوك في قراقورم، إلاّ أنّ السفراء رفضوا هذا الاقتراح(1)، و يبدو أنّ هذه البعثة أثارت غضب بايجو، خاصة و أنها طلبت منه التحول إلى المسيحية، فاعتبره تعديا صارخا و خطيرا على مقامه و عظمته، كما أنّ ما قام به أعضاء السفارة من رفض الانحناء لبايجو زاد الأمر تعقيدًا، فنعت المغول أعضاء البعثة و البابا بأنكر الألقاب(2)، و بذلك تأكد فشلها هي الأُخرى بعد أمر بايجو البابا بالخضوع له (3).

أمر بايجو بترجمة رسالة البابا تلك من اللاتينية إلى الفارسيّة ثم إلى اللغة المغوليّة، و بعدها أرسلها إلى الخان في قراقورم، فجاء الرد عليها من العاصمة المغوليّة عنيفًا، و تأمُر البابا و ملوك و شعوب أوربّا بالخضوع للمغول، و بذلك تأكّد فشل تلك البعثة البابويّة فشلاً ذريعًا مثل سابقاتها(4).

(1) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 46.), pp. 104-105.

يرى بول بيليو Paul pelliot ،أنّ رفض أسكلين الانقياد لطقوس و أوامر المغول أثّرت في حاشية بايجو، فقرّر إرساله إلى الخان الأعظم ، كما فعل باتو Batu مع بلان دي كاربين من قبل . و لكن أسكلين رفض لعدم ثقته ،إلاّ أنّ بايحو لم يستعمل القوّة لإنفاذ أمره . أنظر :

Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 46), p.104 note 1 ; D'Ohsonn(C), op.cit., T.II, p.481.

(2) أنظر : D'Ohsonn(C.), op.cit., T.II, p.478.

كان المغول يعتبرون الخان الأعظم إبنا للسماء، و بالتالي كان الركوع له و لجميع أمرائه إلزامي، و من خالف قُتل، و يفسّرسانت كانتين هذا التصرّف، على أنّ الدومنيكان أرادوا أن يُبرهنوا لنصارى الشّرق الحاضرين، استقلاليّة كنيسة روما عن سيطرة لمغول. أنظر :

Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 40, 42-45), p. 95 note 3, et pp. 98-104.

كان المغول يطلبون من السفراء تقديم الهدايا لهم و الطلب نفسه كان يوجّه لبلان دي كاربين و لروبروك، كلّما استقبلهم أمير مغولي، حتى إذا ما صاروا أمام الخان العظيم و نفد ما عندهم، لم يجدوا ما يقدّموه له. أنظر :

Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 41), p.97, note. 1.

و صرح أسكلين لبايجو أنه إن تحول إلى المسيحية فسيركع له الرهبان المسيحيين و يقبلون قدميه. أنظر :

Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 42-45), pp. 98-104 ; D'Ohsonn(C.), op.cit., T.II, p.478 ; Richard (j.), La Papauté., op.cit., p. 73.

(3) أنظر : Simon de Saint Quentin, op. cit., pp.113-115 ; Richard (j), les Missions., p.179.

ذكر بيليوت Paul Pelliot أنّ التشابه بين رسالة "كيوك خان" إلى البابا، التي حملها "بلان دي كربين"، و رسالة "بايجو" إلى البابا حاملاً إيّاها "أسكلين"، مُلفتة للإنتباه : لقد أجاب بايجو على سؤال واحد فقط كان قد طرحه البابا (لمذا هذه الجرائم التي يرتكبها المغول ؟)، ذاكرًا قانون جنكيزخان الآمر بظرورة خظوع جميع العالم أو الفناء للجميع. أنظر:

Simon de Saint Quentin, op. cit., livre(XXXII, 51), p. 114 note 2 ; D'Ohsonn(C.), op.cit., T.II, pp.483-484.

(4) أنظر : Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 44.), p. 101 note 1.

قضى أسكلين شهورًا في مدينة سيزيان Sisian الأرمينيا ينتظر رجوع الردّ على رسالة البابا من منغوليا. و قد أشار المؤرخ Richard Jean إلى أنّ مدّة إقامة البعثة عند بايجو تمتدُّ من 24 ماي 1247م إلى غاية 25 جويليا 1247م. أنظر :

Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 52.), pp. 109-110 note 1, et pp. 115-117, et p.115 Note1, Et carte ; Richard (j), La Papauté., p. 71.

و بهذا عاد أسكلين و رفاقه إلى البابا في صيف عام 1248م (1)، و عاد مع البعثة أيضا مبعوثان مغوليّان هما أيبك Aybeg وسرجيس (أو سركيس) Sargis (2)، و كانا مسيحيّين، قدما خصّيصًا لمقابلة البابا في إيطاليا (3).

و يبدو أنّ هذه البعثة، هي الأُخرى، واجهت نفس فشل سفارة كاربين، إلاّ أنّها سجّلت، ولأوّل مرّة، قدوم رسولين مغوليّين مسيحيّين على البابا، جعل هذا الأخير يتفاءل خيرًا لوجود نواة مسيحيّة بين المغول يُمكن الاعتمادُ عليها عند اللُّزوم.

- سفارة أندرو دي لونجمو الأولى :

كلّف البابا إنوسنت الرابع، الدومنيكاني أندرو أف لونجمو، بحمل رسالة إلى بعض أمراء المسلمين في سورية و بعض رؤساء الكنائس الشّرقيّة، فاجتاز سورية المسلمة ثمّ منطقة الموصل ليصل إلى تبريز(4)، و زار الصّالح إسماعيل صاحب بعلبك ثمّ المنصور صاحب حمص، و اللذان

(1) لقد دامت رحلة أسكلين ثلاث سنين و سبعة أشهر. أنظر:
Simon de Saint Quentin, op. cit. , livre(XXXII, 50.), p. 113 note 2.
و قبل يومين من مغادرة مبعوثي البابا الدومنيكانيّان لمعسكر بايجو ببلاد فارس، قدم عليه الملك الناصر يوسف خال صاحب حلب، و بدر الدين لؤلؤ(1233-1259م) أخو سلطان الموصل، قادمين من بلاط الخان كيوك، و قدّما له هدايا نفسيّة. و يرى المؤرخ بيليوت، أنّ البعثة الدومينيكيّة غادرت معسكر بايجو في يوم 25 جويليا 1247م و استحال وصولها إلى عكا قبل يوم 22 سبتمبر 1247م، و لم يكن بوسعها الوصول إلى أوربّا قبل صيف سنة 1248م. أنظر:
Simon de Saint Quentin, op.cit., livre(XXXII, 50.), pp.111-112, et p. 112 note (1et2).

(2) أيبك و سرجيس (أو سركيس) هما مبعوثا بايجو، وصلا إلى البابا إنوسنت الرابع في صيف (646هـ/1248م)، و تسلّما ردًا منه إلى المغول في(04شعبان 646هـ/22 نوفمبر 1248م)، و قد ذكر بايجو أسماءهما ضمن الرسالة التي أردفها أسكلين إلى البابا و أنّها حُرّرت في Sitiens يوم (20 جويليا 1247م). أنظر:
Simon de Saint Quentin, op. cit., livre(XXXII, 51.), p. 115. Note 1 ; D'Ohsonn(C.), op.cit., T.II, pp. 483-484.

(3) الرمزي: المصدر نفسه، ج 1، ص 366، 377. و انظر أيضًا :
Sanders, op. cit.,pp. 95-97.
و يذكر المؤرّخ فاسيلييف(.Vasilieve(A.A نقلاً عن متيو باريسMathieu Paris، أنّ الكثير من الناس كانوا يضنُّون في ذلك الوقت، أنّ الرسالة المغوليّة إلى البابا تضمنت عرضًا للتحالف ظدّ يوحنّا فاتاتزي(باتاسيوم) Jean Vatatzes (Battacium)حليف فريدريك الثاني، و خصميْ البابا إنوسنت الرابع. إلاّ أنّني لم أجد ما يُثبتُ تلك الضُنون. أنظر:
Vasiliev(A.A.), **Histoire de l'empire Byzantin**, Traduction du Russe par P. Brodin et A.Bourguina, Édition Picard, Paris, 1932, T.II, p. 207.

(4) أنظر : Richard (j), La Papauté., p.71.
كان أقصى ما وصلت إليه هذه السفارة هي تبريز، و كان لونجمو يتقن اللُّغتين العربيّة و الفارسيّة. أنظر:
Guillaume (de R.), op.cit., p. 52, 53.
و تبريز أشهر مدن أذربيجان، و في وسطها عدّة أنهار جارية، مرّ بها التتر لمّا خرّبوا البلاد في سنة 618هـ و لاكنّها نجت من أيديهم صُلحًا. أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 13.

كان لهما علاقات طيّبة بالصّليبيّين في تلك الآونة، إلاّ أنّ المنصور انزعج من أي تحالف محتمل بين المغول و الصّليبيّين، فكتب إلى البابا يوم 09 شعبان 643هـ/30 ديسمبر 1245م ينصحُهه بعدم الاتصال بالمغول(1). أمّا لونجمو فقد اجتهد في حثّ رؤساء الكنائس الشرقيّة على الوحدة، و رُغم أنّ مُهمّته لم تكن للإتصال بالمغول، إلاّ أنّه تحصّل على معلومات قيّمة عن خُططهم(2) .

واصل أندرو رحلته، و في ضواحي مدينة تبريز التقى بطليعة جيش مغولي تابعة للقائد بايجو، كما تقابل فيها مع راهب نسطوري يُدعى سيمون رابان عطا(3)، الذي كان مُقرّبًا من الخان العظيم أوكتاي Ogodai بن جنكيزخان(1229-1241م) و لعب دورًا هامًا في رعاية شؤون المسيحّيين الذين يعيشون في ظل الحكم المغولي(4)، و تعرّف أيضًا على راهب نسطوري آخر اسمه داود، سوف يكون له دور في سفارة لويس التاسع إلى المغول.

و حينما حان الرحيل، حمّل ربان عطا زميله أندرو أف لونجمو خطابًا إلى البابا يحثه فيه على إبرام معاهدة سلميّة مع الإمبراطور فريدريك الثاني(617-648هـ/1220-1250م) حتى تتوحّد أوربّا لمواجهة المغول و المسلمين معًا(5) .

عاد أندرو إلى أوربّا في النصف الأول من عام 1247م، ومعه كل هذه التقارير عن عصيان هذا الخان لكنيسة الربّ، و وقوفه ضدّ الإمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة و ضدّ الممالك المسيحيّة ودول الغرب الأوربي(6) .

إنّ ردود هذه البعثات لم تترك للبابويّة أدنى شك عن عداوة المغول(7). و كان جواب البابا

---

(1) أنظر : Setton, op.cit., T.III, pp. 520-521.

(2) أنظر : Richard(j), les Missions, op.cit. p.179.

(3) أنظر : Guillaume (de R.), op.cit., p. 52.

ذكر "Richard jean" أنّ لونجمو وأسكلين حملا الرسالة نفسها إلى النسطوري سيمون ربان عطا Simeron Rabban-ata دون أن يدريا ذلك. أنظر : Richard(j), La papauté., p. 71.

كان كيوك خان قد أعطى لسيمون ربان عطا كلّ الصلحيّات لإعادة تشييد و بناء الكنائس التي دُمّرت و أعطى الحُريّة للمسيحيّين في ممارسة شعائرهم. أنظر: Simon de Saint Quentin, op.cit., pp. 30-31 note3.

(4) أنظر : Setton, op.cit., T. III, pp.520-521.

(5) أنظر : Ibid .

(6) لم يتعدّ أندرو أف لونجمو مدينة تبريز، لأنّ رُسل البابا كانوا يسلّمون رسائلهم إلى قوّاد الفيالق المغوليّة الأولى التي يصادفونها، لأنّهم ربّما لم يكونوا يعرفون عن التنظيم السياسي المغولي شيء. أنظر : Richard (j), La papauté., p.71.

(7) إلى جانب حمل الرسالة و شرحها للمغول، كان على الدومنيكان و الفرنسيسكان جمع المعلومات عن نوايا المغول و طريقة قتالهم، و لذا نجد Simon de Saint Quentin ملخّص تقرير أسكلين، يعطينا معلومات عن المغول و تركيا و جورجيا، وأرمينيا، و كذا "بلان دي كربين" الذي ترك لنا تاريخه للمغول Historia Mongolorum الذي يحمل مشاهداته و مَا عايشهُ مع المغول. أنظر : Jean de Plan Carpin, op.cit., p. 125 ; Richard(j), La papauté., p. 71.

إلى الخان بايجو في خطاب مؤرّخ في يوم 22 نوفمبر 1248م، حمله المبعوثان المغوليّان، أيبك و سركيس، اللّذان قدما مع السفارة. و في هذه الرسالة شرح البابا للمغول العقيدة المسيحيّة، و طالبهم بوقف تهديدهم لأوربّا و البابويّة، و على هذا النحو ضاعت فرصة البابويّة في إقامة تحالف و صداقة مع المغول، إذ أخفقت بعثات الكنيسة في روما في مسعاها لكسب المغول، لأنّ المغول لا يعرفون معنًا لكلمة صديق أو حليف إلاّ إذا قُرنت بمفهوم التبعيّة لهم.

3- اتصالات ملوك أوربّا بالمغول:

و بالرغم من فشل هذه البعثات، و عرض يوحنّا دي بلان دي كاربين (1)، على البابا إنوسنت الرابع صورة قاتمة، إلاّ أنّ أخباراً مفادها وجود نواة للنصرانيّة بين المغول، و تحوّل بعض أمرائهم إلي المسيحيّة(2)، جعلت البابا يتصل بملك فرنسا لويس التاسع يحثه على الاتصال بالمغول.

- سفارات لويس التاسع إلى المغول:

خرج الجيش الفرنسي من مدينة مرسيليا، بجنوب فرنسا، باتجاه قبرص في يوم 25 أوت 1248م، في إطار الحملة الصّليبيّة السّابعة، تحت إمرة لويس التاسع قاصدا مصر(3). و أثناء وجود مبعوثي بايجو عند البابا إنوسنت الرّابع، كان الجيجيداي Algigidai، نائب الخان العظيم في الموصل التابعة لإيران آنذاك، قد سلّم رسالة إلى رسولين من مسيحيّي الموصل، يُدعيان مرقص وداود Marc et David، ليحملاها بأسرع ما يُمكن إلى ملك فرنسا الذي كان سينزل في قبرص(*)، فوصله المبعوثان و هو بها في نيقوسيا يوم20 ديسمبر1248م(4). و على غير عادة المغول

(1) إنّ يوحنّا أف بلان دي كاربين هو الوحيد الذي اتصل بأحد خانات المغول الظام (كيوك Guyuk)، من بين رسل البابا إنوسنت الرابع. أنظر : Bernard de Vaulx, Les Missions., p.34.

(2) أنظر : Bernard de Vaulx, op.cit., p.34.

(3) أنظر : Joinville, **Histoire de Saint Louis**, Texte original du XIV siècle, accompagné d'une traduction en français moderne Par M. Natalis de Wailly, Paris, 1882, p. 54 **;** Guillaume (de R.), op.cit., p. 53 **;** Cahen(Claude), **Saint Louis et L'Islam**, dans J.A., Paris, 1970, T. CCLVII, p. 5.
و انظر: محمّد مختار باشا: **كتاب التوفيقات الإلهاميّة في مقارنة التواريخ الهجريّة بالسنين الإفرنكيّة والقبطيّة**، دراسة وتحقيق و تكملة الدكتور محمّد عمارة، المؤسّسة العربيّة للدراسات و النّشر، القاهرة،الطبعة الأولى (1400هـ/1980م)، ص 679.

(4)أنظر : Guillaume de Tyr, **Continuation de Guillaume de Tyr, de 1229 à 1261, dite du Manuscrit de Rothelin**, Rec. Hist. Crois., Hist. Occidentaux, Paris1869-1906, chapitre XLIV, p. 569 **;** Richard (j), La papauté., p. 73 **;** Guillaume (de R.), op.cit., p. 53**.**

(*) سبق لأندرو أف لونجمو أثناء بعثته سنة 1245م من قبل البابا إنوسنت الرابع إلى مغول بلاد فارس La Perse، أن قابل "داود" النسطوري في تبريز، و كان ضمن حاشية "الجيجيداي". و أمّا مرقص فسيُقابله روبروك ،سفير لويس التاسع إلى المغول، فيما بعد في بلاط "سرتق" Sartach في سراي على نهر الفولجا La Volga. أنظر:
Guillaume(de R.), op.cit., p. 118, 223 Note 11. =

خرجت هذه الرسالة من مألوف الأمر بالخضوع، فقد حرص الجيجيداي على إخبار الملك بأنّه أعْفى كلّ الرّهبان من الضرائب مقابل صلواتهم و دعواتهم، و بأنّه مهتم بإعادة بناء الكنائس والسماح للمسيحيّين بدق الناقوس في بلاد المسلمين(1). وأبلغ أنّه هو و كيوك وبعض رجال المغول على الديانة المسيحيّة وأنّهم متحمّسين للدخول في حلف مع ملك فرنسا، و مساعدة الصليبيّين لاستعادة الأراضي المقدّسة، و أنّ من خططهم غزو بغداد، في حين يهاجم ملك فرنسا سلطان مصر لمنع الأيّوبيّين من مساعدة الخليفة العبّاسي(2).

= و الظاهد في هذه المرحلة، أنّ المغول كانوا هم السبّاقين في الاتصال بالملك لويس التاسع، و كان ذلك تحوّل كبير لموقف المغول، أُبلغ به البابا. و قد اهتم المغول في سنة 1247م حين كان أسكلين في مدينة سيزيان، بقرب قدوم جيش ملك فرنسا، فسألوه عن ما إذا كان في نيّة الملك مهاجمة سوريا. و كانوا ينوون التحالف مع الفرنجة الصليبيّين لتطويق المسلمين، حسب أقوال المؤرّخ بيليُوت (Pelliot(Paul. أنظر:

Joinville, op.cit., pp. 56-57,198 **;** Simon de Saint Quentin , op. cit., pp. 97-98 **;** Runciman(S), op.cit., pp. 259-26 **;** Grousset(René), **Histoire des croisades et du royaum franc de Jerusalem**, Paris, 1936, T. III, p.520 **;** Lemerle(Paul), **Saint Louis et Byzance**, dans J.A., Paris, 1970, T. CCLVII, p. 15.

إنّ أهداف هذه البعثة غير واضحة، إلاّ أنّ ظاهرها هو إحداث ضربة مشتركة ضدّ المسلمين. و لم يفت عن الجيجيداي التأكيد للملك الفرنسي أنّ بعض الإمارات في تركيا و حلب خاضعة للمغول، لأنّ المغول كانوا متخوفين من هجوم لويس التاسع على سلطان تركيا و حلب و الخلافة العبّاسيّة، الذين كانوا معنيّين بمخطّطاتهم التوسُّعيّة. أنظر :

Simon de Saint Quentin, op.cit., pp. 98. note 1 **;** Guillaume (de R.), op.cit., pp. 53-54 **;** Richard (J.), **Sur les pas de Plan Carpin et de Rubruck: La Lettre de Saint Louis à Sartaq**, dans Journal des savants, Académie des inscriptions et belles lettres, Paris (Ed. Klinckséck), janvier-mars 1977, p. 59.

(1) أنظر : Richard(j), La papauté., p. 74.

من الممكن أن يكون لونجمو قد ساهم كمترجم بين لويس التاسع و المبعوثين المغوليّين، و أمّا بالنسبة لهذه الرسالة التي تفاعل بها الملك و ظنّ بحسن نيّة المغول تجاه المسيحيّين، فإنّ المؤرخين الأوربيّين يتساءلون إن لم تكن من نسيج المبعوثين المغوليّين، أو على الأقل ترجمتهما التي حوّلت نوعًا ما من حقيقتها، إذ جاء فيها "...لا نرجو إلاّ ما فيه صلاح للمسيحيّة و مُساندة قُوّات الملوك المسيحيّين، بإذن الله. و أسأل الله أن ينصر جيوش ملوك النصرانيّة ضدّ أعداء الصليب (أي المسلمون).

أنظر: Pelliot (P.), **les Mongoles et la Papauté**, revue de l'Orient chrétien, Paris, Imprimerie Nationale, (1931-1932) ,T. 8 (XXVIII), p. 25 **;** Guillaume (de R.), op.cit., p. 53.

(2) أنظر: Guillaume de Tyr, op.cit., p. 570 ; Setton, op.cit., pp. 522-523 ; Grousset (R.), op.cit., p. 520.

يبدو من رسالة الجيجيداي، أنّها تطرّقت إلى الإغراء الديني، لأنّها أوحت بانتشار واسع للمسيحيّة بين المغول، و أنّ نيّة المغول حسنة نحو المسيحيّين. و الحقيقة أنّ الجيجيداي كان يصبُو ألى تحقيق عدّة أهداف : فقد ذكر المؤرخ "بيليوت" في هذا الصدد أنّ سيمون أف سانت كانتين نقل عن سفارته مع أسكلين إلى بايجو:"إنّ المغول كانوا يُخطّطون فيما بينهم على إمكانيّة نشر الأكاذيب الموحية للمسيحيّين بتحوّلهم إلى المسيحيّة، أو أيّ حيلة أُخرى ماكرة، لمنع الفرنجة من دخول تركيا و حلب". و يُضيف بيليوت أنّه "من المحتمل جدًا أنّ الجيجيداي كان يُخطّط منذ سنة 1248م للهجوم على الخلافة في بغداد. و على هذا كان من الضروري إشغال الفرنجة في مصر لمنع سلطانها من إنجاد الخليفة، و في نفس الوقت إبقاء الفرنجة بعيدًا عن آسيا الصغرى و بلاد المشرق المعترفة بسلطة المغول،بينما لم يتوقّع المغول أن يُقدّم لهم الفرنجة ولاءهم لاحقًا". أنظر:

Simon (de S. Q.), op.cit., livre (XXXII, 41), pp. 97-98 **;** Guillaume (A. de T.), op.cit., p. 570 **;** Pelliot(Paul), Les Mongoles et La Papauté, revue de l'Orient chrétien, Imprimerie Nationale, Paris, (1931-1932), T. VIII (XXVIII), p. 36.

و على هذا رأى لويس التاسع أن الأمل لم ينقطع في إمكانية التحالف مع المغول ضد المسلمين، فرحّب الملك بالسّفارة المغوليّة، و قرّر إرسال سفارة صليبية من قبرص يرأسها لونجمو(1)، و فيما بعد سفارة أخرى من قيسرية يرأسها وليم روبروك Guillaume de Rubrouck(2)، لمواصلة المساعي التي بدأها البابا إنوسنت الرّابع، و كان يأمل في دخول المغول المسيحيّة و التحالف معهم ضدّ المسلمين، إلاّ أنّ المغزى الحقيقي هو أنّ كلا الجانبين حاول استغلال الآخر لمصلحته.

- **<u>سفارة أندرو دي لونجمو الثّانية :</u>**

أعدّ لويس التاسع سفارة دومينيكانيّة لمرافقة البعثة المغوليّة أثناء عودتها، قصد الاتصال بقادة المغول و كان على رأسها أندرو دي لونجمو(3)، الخبير بأمور الشرق، و أخوه وليم المُلم باللّغة العربيّة، و أحد رجال الدين من مدينة عكّا يدعى ثيودلف Theodulf(*)، و ظابطين من

(1) أنظر : Joinville, op.cit., p. 57 ; Richard (j), les Missions., p. 180.

(2) أنظر : Richard(j.), op.cit., p. 180 .

(3) كان أندرو أف لونجمو يرى ظرورة تنصير المغول و المسلمين على السواء. أنظر :

Atiya (Aziz S.), **The crusade in the later middle ages**, second edition, New York 1970, p.88 ; Bernard de Vaulx, op.cit., p.34 ; Setton, op. cit., Tom IV, p. 477 .

(*) يذكر روبروك أنّ أحد الرهبان من مدينة عكّا Acre ، كان يتسمّى ريمون Raymond، أمّا اسمه الحقفي فهو ثيودل أو ثيودلف (Théodule (Theodulf، كان قبله بسنة في قوراقورم، غادر قبرص في نفس الوقت الذي غادرها فيه لونجمو، و انظم إليه لأغراض شخصيّة، ثُمّ اختف في فارس حتّى رجع لونجمو من قوراقورم مارًا بها، فتركها ثيودل إلى قوراقورم التي وصلها سنة 1253م، و ادّعى عند منكوخان أنّه كان في خدمة أُسقف صالح يُرافق الملك لويس اسمه "أودون" Odon ، و أنّ الله أرسل إلي هذا الأسقف برسائل مكتوبة بالذهب و أمره بحملها إلى عظيم المغول، لأنّ هذا الأخير قُدّرَ له أن يكون سيّد العالم، فعليه أن يُقنع المسيحيّين بالصلح مع منكوخان. و هكذا جعل ثيودل نفسه مبعوث السماء إلى المغول، و ذكر للخان أنّ المسلمين يتموقعون بينه و بين المُلك، و أنّهم عقبة أمام الصلح المغولي- الفرنجي، و لو فُتحت الطريق لأرسل الفرنج سُفراءهم، و لتمّ الصلح. فطلب منه الخان إن يكون سفيره إلى ذلك الملك، فقبل و اصطحب معه جاسوسًا مغولي إلاّ أنّ طريق ثيودلف توقّفت في نيقية عند الإمبراطور الإغريقي البيزنطي (empereur grec de Byzance) يوحنّا الثالث فاتاتزاس Jean III Vatatzés الذي تفطّن لمكره فألقى به في السجن، أمّا المبعوث المغولي فقد مات في نيقية من مرض فرجع أصحابه إلى الخان و أخبروه بالأحداث. و إن دلّت هذه الرواية على شيء، فهو مدى الحقد الصليبيّين للمسلمين و حرصهم على على تأليب المغول عليهم و لو بالأباطيل العظام، و أمثال ذلك كثير، و للمزيد إرجع إلى:

Guillaume (de R.), op.cit., pp. 37, 43, 57-58, 160, 168-171, 181, 187,199-200.

و قد ذكر المؤرّخ هيثوم Hayton، أنّ منكوخان و جميع عائلته و كبار بلاطه تحوّلوا إلى المسيحيّة، و أنّ تعميدهم تمّ على يد أسقف أرميني قدم مع الملك هيثوم الذي لم يصل إلى بلاط منكوخان إلاّ في سبتمبر1254م، أي بعد مُغادرة روبروك لمنكوخان. و الحقيقة أنّ قضيّة تحوُّل منكوخان إلى المسيحيّة لا ترتكز على أيّ أساس حسب ما ذكرت المؤرّخة Christiane Deluz أنظر:

Hayton, **La Fleur des Histoires de la terre d'orient**, traduction de Christiane Deluz, dans : Regnier-Bohler, Croisades et Pèlerinages, Récit Chronique et Voyages en Terre Sainte(XII^{e}-XVI^{e}) Siècle, édition Robert Laffont, S.A., Paris 1997, chapitre XVIII, p. 837, et note1 ; Guillaume de Rubruk**,** op. cit., p. 171 note 19.

و ظاهر هذه النصوص تدُلُّ على تردّد كثيف للمسيحيّين على بلاط المغول، ما يُعبّرُ عن رغبة العالم المسيحي لعقد الإتصال بالمغول بأيّ شكل كان لتنصيرهم حتّى و لو كان على حسابه و حساب شعوبه و نشر الحقد بينهم تجاه المسلمين.

جيش الملك، و قد طال غياب هذه البعثة إلى أن رجعت إلى الملك بعد عامين من قراقورم(1).

لقد جهّز الملك هذه السّفارة بخيمة من قماش على شكل كنيسة صغيرة مطرّزة بمُقتطفات من حياة المسيح، و تماثيل صنعت بالحجارة تتعلّق بالديانة المسيحيّة، كهدايا إلى المغول(2). ثُمّ غادرت البعثة رُفقة سُفراء مغول مدينة نيقوسيا، بجزيرة قبرص، يوم 27 جانفي سنة 1249م، إلى مدينة أنطاكية الصليبيّة، فوصلت إلى الموصل حيث معسكر الجيجيداي في الفترة أفريل-ماي1249م، إلاّ أنّ هذه السفارة فوجئت بخبر وفاة الخان الأعظم كيوك (1246-1248م) في قراقورم منذ مارس-أفريل1248م، و لم يكن كيوك قد ترك إلا أولادا ثلاثة صغارا لا يصلحون للحكم في هذا السن الصغير، فتولت أرملته "أوغول قاميش" Oghul Qaimish الوصاية عليهم، و من ثم تولت حكم المغول و ذلك ابتداءا من سنة 1248م، لمدة ثلاث سنوات. و وجّه الجيجيداي هذه البعثة إليها في قراقورم(3)، فاستقبلتها بحفاوة، لكنها اعتذرت عن عدم إمكانية المساعدة في الحملة الصليبية في ذلك الظرف لأنها مشغولة بالمشاكل الضخمة التي طرأت في مملكة المغول نتيجة موت زوجها، بالإضافة إلى أن عامة قواد المغول لم يكونوا راضين على حكم امرأة للدولة المغولية العظيمة، والتي تعتمد في الأساس الأول على البطش و الإجرام و القوة، فكانت الأوضاع غير مستقرة تماما في منغوليا، فغادرت هذه السفارة بلاد المغول بعد وقت وجيز مُردفة بسفارة مغوليّة، كانت مُهمّتها الإستخبار و التجسُّس، إلى قيساريّة ببلاد الشّام حيث يُوجدُ الملك لويس التّاسع.

غير أنّ لويس التاسع أصر على القيام بحملته، حتى مع عدم اشتراك المغول، فتوجه فعلا من قبرص إلى مصر قبل أن تصله أخبار بعثته، و نزل بدمياط في سنة 1249-1250م فاحتلها ثم تجاوزها إلى داخل مصر عبر نهر النيل في اتجاه القاهرة، و لكن الجيش المصري أنزل به هزيمة

(1) أنظر : Guillaume (de T.), op.cit., pp. 570-571 ; Setton, op.cit., pp. 522-523 ; Guillaume (de R.), op.cit., p. 54 ; Hambis (Louis), **Saint Louis et les Mongols**, dans J.A., T.CCLVII, Paris 1970, p.30.

(2) أنظر : Joinville, op.cit.,p. 57 ; Guillaume (de R.), op.cit., p. 54; Bernard de Vaulx, op.cit., p. 34, note 1.

(3) أنظر : Grousset (R.), op.cit., p. 521 ; Guillaume (de R.), op.cit., p. 55.

كانت مهمّة هذه البعثة مزدوجة، فكان عليها تسليم الرسائل إلى الجيجيداي في فارس، و إلى كيوك في قراقورم، و الظاهر أنّه لا أثر مكتوب عن طريق و ظروف السفارة، إلاّ ما أورده بعض المؤرخين بإيجاز أمثال Joinville ، و Mathiew Paris, Chronica majora (éd. Luart, VI, pp. 112-116).

و لم يكُن الجيجيداي ليتحمَّل مسؤوليّة اتخاذ قرار الردّ إلى ملك فرنسا، فقرّر إرسال السفارة إلى الوصيّة، التي استقبلتها في قوراقورم. إلاّ أنّ المؤرخين لا يعلمون على وجه التحديد متى وصلت البعثة إلى قوراقورم، و ربّما كان ذلك في بداية 1250م : الفترة التي تمّ فيها انتخاب مونكو خان، و لكن قبل حُكمه الفعلي يوم 01 جويليا 1251م.

أنظر: Guillaume (de R.), op.cit., p. 55.

نكراء في معركة المنصورة أوّلاً، ثم في معركة فارسكور، و أُسر لويس التاسع، و كُلُّ ذلك سنة 1250-1251م ، ثمّ افتدى نفسه، ليُغادر دمياط إلى الشّام ثمّ إلى قيساريّة(1).

و بفشل الحملة الصليبية السابعة هذه ازداد حقد الصليبيين و تأُكدت ضرورة التعاون مع المغول لحرب المسلمين.

استقبل الملك هذه السفارة في شهر أبريل1251م، و لمّا قرأ الرسالة الموجّهة إليه وجد فيها أنّ الوصيّة على عرش المغول اعتبرت هدايا الملك جزيةً، و أنّ الملك تابعٌ لأسياده المغول، و أنّ عليه أن يستمرّ في إرسالها إليها سنويًا، فصُدم الملك لويس التاسع بهذا الردّ السلبي، خاصّة بعد هزيمته النّكراء أمام المسلمين(2).

(1) Guillaume (A. de T.), op.cit., chapitre LXVIII, p. 619, chapitre LXX, p. 624 **;** Joinville, op.cit., p.128 , 158 **;** Eracles, **l'Estoire de Eracles empereur et la conquest de la terre d'Outremer**, in R.H.C., H.O., publication de A.I.B.L., Paris 1869-1906, chapitre I, p. 438 **;** Guillaume (de R.), op.cit., p. 57 **.**

و انظر أيضا : السيوطي: حسن المحاضرة، ج2، ص30.

و قد تظاربت الآراء حول ظروف استقبال هذه البعثة في البلاط المغولي، إذ ظلّ المؤرّخون، و لفترة طويلة، يرتكزون على جملة للمؤرّخ جوانفيل Joinville ،لإثبات الإستقبال السيّئ قائلاً: "...و اعلموا أنّ الملك ندم كثيرًا لإرساله، (يعني لونجمو)"، إلاّ أنّ عدم رضى الملك لا يُؤكّد بالضرورة ذلك الاتّجاه، فقد ذكر المؤرّخ بيليوت نقلاً عن الباحث برنارد جي Bernard Gui أنّ أوغول قاميش و ابنها، أكرما السفراء و قدّما لهم الهدايا، أمّا روبروك فيكتب إلى ملكه "...إنّ قاميش تُرسل إليكم قطعًا من القماش و هدايا مصحوبة برسائل."، و على هذا تكون بعثة لويس التاسع قد استقبلت في البلاط المغولي بشكل طبيعي نسبيًا، إلاّ أنّ الهدف المرجو منها لم يُكتب له التحقيق بعد، فإظافة إلى ضياع فرصة عقد علاقات تحالف، كانت رسالة " قاميش " منسوجة بطريقة جعلت ملك فرنسة ينزعج و يندم على إقدامه بهذه الخطوة، و يحتار بشأن حقيقة الرسالة الأولى التي حملها إليه "مرقص" و" داود" و هو في قبرص، و الحقيقة أنّ أثر هذه البعثة المغوليّة كان عميقًا في نفس الملك ومن معه، خاصة بعد الذي نشره "داود" بينهم من أنباء تُفيد أنّ الخان العظيم "كيوك" و أمّه كذالك، كانا على دين المسيحيّة، و هو الخبر نفسه الذي كتبه سمباد Sembad، أخُ هيثوم ملك أرمينيا الصغرى، فكان إرسال لونجمو بمثابة ردّة فعل لهذه المُسبّقات، و قد صاحبه داود حتى بلاط كيوك، إلاّ أنّ إصرار الوصيّة على العرش(أوغول قاميش التي خلفت كيوك) على خضوع أوربّا للمغول، يقود إلى الإعتقاد بكذب "داود"، لولا أنّ رسالة الجيجيداي هذه إلى لويس التاسع كانت خالية من العبارات المعتادة بالخضوع حسب ما احتجّ به المؤرّخ Richard Jean أنظر:

Joinville, op.cit., p.206 **;** Pelliot (P.), les Mongoles et La Papauté., T. 8 (XXVIII), p.72 note 1**;** Richard(j), La papauté., p. 74 **;** Guillaume (de R.), op.cit., pp. 55-56, 223 note 11.

(2) Joinville, op.cit., p.206 **;** Grousset, op.cit., p. 521 **;** Guillaume (de R.), op.cit., pp. 55-56.

و ممّا جاء في نصّ الرسالة :"... إنّ الأرض شيء طيّب، و لكن لا أحد يستطيع أن يحتفض بها إن لم يجعلها تحت حُكم المغول، و لن تنال السلام إن لم تجعلها لنا... و إذا أردت أن نكون أصدقاءك، فعليك أن تبعث إلينا في كلّ عام، الكثير من ذهبك و أموالك، فإن لم تفعل، فسندمّرك و من معك(أي شعبك)، كما فعلنا بالذين من قَبْلك...". أنظر:

Pelliot (P.), op.cit., p. 72 note 1 **;** Guillaume (de R.), op.cit., p. 56.

يُفترض أنّ لويس التاسع ندم عن بعثته هذه إلى المغول، و بعد ذلك راودته شكوك حول المبعوثان المغوليّان اللّذان كانا أساس تلك الطموحات الباهرة : هل كان "داوود" و "مرقص" مُضلّلان؟

لقد استعمل روبروك في أواخر تقريره إلى الملك، لفظ :"داوود الذي جرّك إلى الخطأ"، إشارة إلى أنّ السفير المغولي كان السبب الرئيسي لتلك المغالطة، إلاّ أنّ ذلك لا يعني بالضرورة أنّ المرسول المغولي كان مُحتالاً. أمّا رسالة "منكوخان" التي حملها روبروك فيما بعد إلى الملك، و التي جاء فيها: "لقد جاءكم رجل اسمه داوود بصفة سفير مغولي، إلاّ أنّه كان كذّابًا"، ليست كافية هي الأخرى لتقرير مكر داوود، لأنّ منكوخان الذي كان ينتمي إلى فرع مُنافس لفرع "كيوك خان"، قام بإعدام =

و مهما يكن من أمر، فإنّ كلا الطرفين كان يسعى للاستفادة من الآخر، لذا لم ييأس الملك لويس التاسع في مسعاه خاصّة أنّ القوّة المغوليّة الضاربة لا يُستغنى عنها في حرب الأيّوبيين، و لعلّ إشاعة تحوّل الأمير المغولي سارتاق Sartaq في بلاد القفجاق إلى المسيحيّة، هو الذي شجّعه لمعاودة سفارة أخرى إليهم(1).

- سفارة وليم روبروك و بارثولوميو دي كريمونا :

كان لويس التاسع يكن حقدا كبيرا على المسلمين لهزيمته في موقعة المنصورة، منذ ثلاث سنوات، و لم ييأس من إمكانية التعاون مع المغول، فقرر في أواسط سنة 1252م إرسال بعثة ثانية إلى بلاد القفجاق حيث يوجد القائد المغولي سرتق(2)، متكوّنة من الفرنسيسكاني وليم روبروك(3)،

= الجيجيداي أثناء شتاء 1251-1252م، ثُمّ أعدم في صيف 1252م "أوغول قاميش" و كلّ من ينتمي إلى العائلة الإمبراطوريّة (الذين كانوا في صفّ كيوك خان، و كان بمقدورهم تعكير حُكم منكوخان)، و على هذا فإنّ تكذيب منكوخان لداوود، إنّما هو راجع إلى كونه أحد رجال الجيجيداي الذي كان بنفسه من حزب أوغول قاميش، ثُمّ إنّ الرسالة التي سلّمها داوود إلى الملك كانت خالية من الصيغة الآمرة بالخضوع، و ذلك ممّ لم يستصه منكوخان. أنظر:
Pelliot (P.), les Mongoles et la Papauté, T. 8 (XXVIII), p. 73.

(1) أنظر : Grousset (René),Histoire des croisades., p. 522.
رفض لويس التاسع الردّ على رسالة المغول، تجنُّبًا لفشل ذريع آخر، إلاّ أنّه قرّر إرسال هذه المرّة بعثة دينيّة شجّعه عليها أندرو أف لونجمو من أجل مُؤازرة أسرى المسيحيّين الذين كانوا في قبظة المغول في منطقة طلاس Talas بالقوقاز، كما شجّعته أخبار التعاطُف المغولي تجاه المسيحيّة. أنظر: Guillaume (de R.), op.cit., p. 57.
أما في منغوليا، فقد اجتمع القورلتاي سنة 1251م و قرر اختيار خانا جديدا للمغول، و بالفعل اختاروا منكوخان بن تلوي بن جنكيزخان (1251-1259م)، و كان اختيار منكوخان بداية تحول كبير في سياسة المغول، و بداية تغير جذري في المناطق المحيطة بالمغول، فقد كانت لديه سياسة توسعية شبيهة بسياسة جنكيزخان، ،و سياسة أوكتاي الذي فتح جزء كبير من أوربا في عهده، و من ثم بدأ منكوخان يفكر من جديد في إسقاط الخلافة العباسية، وما بعدها من بلاد المسلمين.
و للأسف الشديد، فإن أمراء المسلمين، و إن كانوا قد انتصروا في موقعة المنصورة بمصر سنة 1250م، إلا أنهم لم يزالوا مشغولين بالفتن و الحروب الداخلية، و الضحايا من المسلمين، و من ذلك الحرب التي دارت رحاها بين الجيش المصري بقيادة عز الدين أيبك و الجيش الشامي الذي أرسله الناصر يوسف أمير حلب، و دارت رحاها في منطقة تُسمى العباسية شرق مدينة الزقازيق المصرية في أيامنا هذه، بينما كانت الحملات الصليبية لا تتوقف، و المغول على أبواب الخلافة العباسية.
أنظر :
ابن العماد الحنبلي: المصدر نفسه، ج 5، ص 244-169.
و انظر أيضا : Grousset (R),Histoire des croisades. , p. 523.

(2) جرت أنباء تنصّر سرتق بين مسيحيّي المشرق، وذكر (j) Richard أنّ لويس التاسع لم يرسل روبروك إلى المغول إلاّ لتهنئة سرتق Sartaq . و لكن أحداث تحطُّم جيش الملك لويس في المنصورة، و سجنه من (04 ذو القعدة 647هـ/08 فبراير 1250م) إلى غاية (28 محرّم 648هـ/ 02 مايو 1250م)، و تسليم Damiette للأيّوبيّين، ثمّ عكوفه على تجهيز و تحصين يافا Jaffa و صيدا Sidon و قيصريّة Césarée في بلاد الشام مدّة أربعة سنوات، ما هي إلاّ إشارة لنيّته في تجديد الحرب، و لكن الضعف الذي أصاب جيشه أرغمه إلى حلف المغول، و لذا كانت إرساليّة روبروك. أنظر :
Joinville, op.cit., p. 128, 158 ; Eracles, op.cit., chapitre II, pp. 440-441 ; Grousset (R.), op.cit., pp. 483-492 ; Richard(J.), Les missions., p.180 ; Jacques Boudet, op.cit., pp. 486-490 ; Michaud, **Histoire des croisades**, cinquième édition, Paris, 1838, T. IV, p. 323, 416.

(3) أنظر : Richard(J.), op.cit., p. 180.

و الدومنيكاني بارثولوميو دي كريمونا Bartholomew de Cremona (1). و كانا يحملان رسالة إلى سرتق مترجمة إلى اللغتين العربيّة و السريانيّة(2).

انطلقت السفارة من مدينة قيسريّة، مقر الملك لويس في ربيع 1252م تجاه القسطنطينيّة و استقرّت هناك لبعض الوقت(3) حيث قابل روبروك فارساً اسمه بودوان دي هينوت(*) Le Chevalier Baudouin de Hainaut الذي رجع منذ أيّام قليلة من سفارة إلى منغوليا، ثمّ تسلّم روبروك رسائل أخرى من الإمبراطور بودوان الثاني Baudouin II (1240-1261م) مكتوبة بالإغريقيّة، موجّهة إلى سكاكاتاي Scacatai، القائد المغولي في شبه جزيرة القرم، و الذي أرسلها بدوره إلى سولدايا (**)Soldaia لترجمتها، و كان مضمونها طلب رخصة عبور تسمح لروبروك بمواصلة سفره، و كان قد أشاع قبل مغادرة القسطنطينيّة بأنّه مرسول الملك لويس التاسع إلي سرتق، أخذًا بنصيحة بعض تجّارها لتسهيل وصوله إليه(4). ثمّ أبحرت السفارة يوم 07 ماي 1253م عبر البحر الأسود لتصل إلى سولدايا يوم 21 ماي 1253م(5)، و هي مركز تجاري هام، يلتقي فيها أقوام من مُختلف المشارب و الديانات مثل الاسلام(6)، ثُمّ توجّهت إلى مدينة سراي(***)،

(1) أنظر: Grousset(R.), op.cit., p.522.

(2) أنظر: Richard(j), Sur les pas de plan Carpin et de Rubruck, op.cit., p. 55.

(3) أنظر: Grousset(R.), op.cit., p. 522.

(4) أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit., p. 106, 108 ; Richard(j), Sur les pas de., pp.55-56.

(5) أنظر: Grousset(R), op.cit., p.522.

(6) أنظر: Dawson, **The Mongol mission**, first edition, London, 1955, pp.117-119.

(*) بودوان دي هينوت، الذي قابله روبروك و سمع منه أخبار المغول، هو فارس الإمبراطور بودوان الثاني، تزوّج سنة (638هـ/ 1240م) امرأة من الكومان comane، و يُعتقدُ أنّه وصل إلى قوراقورم أثناء أسفاره في أنحاء آسيا الصغرى. أنظر: Guillaume (de R.), op.cit, p. 42 note 4 et p. 183.

(**) سولدايا Soldaia (أو Soldanie أو Soudak)، هي مدينة في شبه جزيرة القرم، على البحر الأسود، غرب مدينة Caffa احتلّها المغول أوّل مرّة سنة 1223م، ثُمّ ثانية سنة 1239م. أنظر:
Marco-Polo, **La Description du monde**, texte integral en français moderne avec introduction et Notes, éd. Louis Hambis, librairie C. Klincksieck, 1ere edition, Paris 1955, p. 340.

كان سكاكاتاي (أو سكاتاتاي) (Scacatai (Scatatay، أوّل قائد مغولي يلتقي به روبروك، و أنّه "عرض عليه تعاليم المسحيّة، إلاّ أنّ سكاكاتاي هزّ رأسه فقط و لم يتلفّظ بأيّة كلمة"، ما جعل روبروك يحتار من ذاك التصرُّف، خاصّة و أنّ القائد المغولي هو الذي طلب بنفسه سماع ما كان يُريد قوله لسرتق، ثُمّ إنّ روبروك لاحظ أنّ مغول هذه المناطق كانوا يُعاملون المسلمين (Sarrasins) أفضل من الروس الذين كانوا مسيحيّي الديانة، لأنّ أولائك كانوا يدفعون لهم الأموال أفضل من هؤلاء الفقراء. أنظر: Guillaume de Rubruk, op.cit, p. 42 ,109.

(***) سراي Saray، هي عاصمة مغول القبيلة الذهبيّة، أسّسها الخان باتو حوالي سنة 1250م، و هي واقعة أسفل الفولجا قرب ستالينجراد الحاليّة Stalingrade، و قد ازدهرت هذه المدينة فعليًا في عهد "بركة خان" و خُلفائه، إلى أن دمّرها "تيمورلنج" Tamerlan سنة(798-799هـ/1395-1396م).
أنظر: Marco-Polo, La Description. , p. 341.

مقر سرتق على نهر الفولجا La Volga، التي وصلتها يوم 31 جويلية 1253م بعد عناء و قسوة السير في أرض خالية، و النّوم تحت العربات(1). و لكن روبروك كان يحمل رسائل أخرى مغلقة موجّهة إلى سرتق(2).

قدّم روبروك خطاب الملك لويس إلى سرتق(3) الذي طلب منه السماح له بالبقاء في بلاد المغول للتّبشير بالمسيحيّة. و قام الرّهبان الأرمن، و النّسطوري مارك Marc بترجمتها إلى اللّغة التركيّة لكن سرتق أحسّ أنّه غير مؤهّل لمعالجة بعض مضامينها، و قرّر توجيهها إلى أبيه باطو بن جنكيزخان (1227-1256م) المقيم بسراي في الجهة الشرقيّة لنهر الفولجا(4)، و كان هذا الرد يُفهم منه عدم قناعته باعتناق المسيحيّة(5)، و لكن باطو وجّه البعثة بدوره إلى العاصمة قراقورم لمقابلة الخان الأعظم منكوخان Mongka (1251-1259م)(6)، الذي أطاح بأوغول قاميش(1)، فوافق روبروك على ذالك(8)، وزوّد باطو البعثة بالأدلاّء اللاّزمين .

أما روبروك فلم يعلم الأسباب التي دفعت باطو بإرساله إلى منغوليا، إلاّ بعد حين عندما كان في طريقه إليها، فقد ظن المغول أنّ لويس التاسع طلب من سرتق حلفًا عسكريًا مباشرا ضدّ المسلمين، و ذاك لأن المترجمين الأرمن قاموا بترجمة الرّسائل على هَوَاهُمْ لكرههم الشديد

(1) أنظر: William of Rubruck, The journey, pp. 119-122 ; Grousset (R.), op. cit., p. 522.
(2) أنظر: Richard (j), Sur les pas de Plan Carpin et de Rubruck., p.56.
(3) أنظر: Grousset (R.), op. cit., p. 522.
(4) أنظر: Grousset(R), op.cit., pp.522-523 ; Richard(j), Sur les pas de Plan., p.55.
(5) أنظر: Dawson, the Mongol mission, op.cit., op.cit., p.129.
(6) باطو خان هو القائد المغولي الثالث الذي لاقاه روبروك، و خلال ذلك اللقاء قال له روبروك :"... إنّكم لن تحصلوا على خيرات السماء إن لم تكونوا مسيحيّين ، ... لأنّ الله يقول: إنّ الذي آمن و تحصّل على التعميد، سوف ينال الخلاص. و الذي لم يُؤمن يُعذّب."، ما جعل المغول يستشيطون غضبًا لتلك الجُرءة، بينما اكتفى باطو بإظهار ابتسامة خفيفة، ثُمّ سأله عن اسمه و اسم من معه، و اسم مَلكه، و عن من يُحاربون، لأنّه علم أنّ لويس التاسع خرج من بلاده على رأس جيش، فكان ردُّه أنّ ذلك لحرب المسلمين الذين دنّسوا أورشليم (بيت الله).
أنظر: Guillaume (de R.), op.cit., Article XIX , p. 131.
انتهت وحدة الإمبراطوريّة المغوليّة بموت منكوخان، و اندلاع الصّراع بين إيلخاناتها، و لعلّ ذلك ما أعطى نفسًا جديداً للبلاد المتاخمة لحدودهم، نعني بذلك توقُّف المغول عند أبواب فيينّا الأوربيّة، و مصر و الشام الإسلاميّة. أنظر :
Richard (j), Sur les pas de Plan ., p.56.
(7) أنظر: Grousset (R.), op. cit., p. 523.
كان "منكوخان" قد أعدم الجيجيداي سنة(649هـ/1251م)، و كذا "أوغول قاميش" سنة(650هـ/1252م). أنظر:
Pelliot(P.), op.cit., p. 73.
(8) أنظر: Dawson, the Mongol mission, op.cit., pp.123-125.
(*) الذي أُرسل مع داوود من طرف الجيجيداي إلى لويس سنة 1248م.

للمسلمين(1)، فهمّ بالإعتراض لولا أنه أُخبر في قراقورم أنّ الرّسائل ضاعت، ممّا جعله يُصرّح أنّ مضمون الرسالة ينُصّ على فضائل روبروك و زميله بارثولوميو، و كذلك فرحة الملك لويس بتحوُّل سرتق إلى المسيحيّة، و طلب مساندة المسيحيّين ضدّ خصومهم (2).

(1) أخبر أحد عمّال باطو، المكلّفين بالكتابة، روبروك قائلاً: "إنّ رسائل باطو التي أنتُم حاملوها إلى منكوخان، تنُصُّ على أنّكم طلبتم من سرتق جيشًا و معونة لحرب المسلمين، و قد استغربتُ كثيرًا لذلك و انزعجت، لأنّني كُنتُ أعرف ما احتوته رسائلكم حقيقة، بأنكم تطلبون منه أن يكون صديقًا لكلّ المسيحيّين، و تعظيم الصليب، و أن يكون عدُوًا لكلّ أعداء الصليب" . أنظر :
Guillaume (de R.), op.cit., Article XXVII, p.157 ; Richard (j), Sur les pas de., pp. 56-57 note 16.
و الحقيقة الماثلة للباحث من خلال كلام عامل "باطو"، أنّ رسالة الملك لويس إلى سرتق كانت فعلاً طلب تحالف، و إلاّ فلا معنى لطلبه بمعادات أعداء الصليب، يعني الإسلام و أهله، ثُمّ إنّ إشاعات تحوُّل سرتق و أبيه باطو إلى النصرانيّة، بعثت في نفس الملك أملاً، خاصّة بعد هزيمته أمام جيش مصر، و حلُم بحملة صليبيّة من نوع خاص يقودها المغول في شخص سرتق و أبيه باطو.

(2) أنظر : Guillaume (de R.), op.cit., Article XXXIII, p.207 ; Richard (j.), Sur les pas de., p.57, 59.
و السؤال الذي يطرح نفسه هو، ما كانت حقيقة مهمّة الفرانسيسكاني روبروك ؟. أمّا بول بيليوة فيرى أنّ مهمّته، حمل رسالة لويس التاسع إلى أحد أمراء المغول : سرتق، الذي تحوّل إلى المسيحيّة، بينما ذهب البروفيسور Chrysologus Pr. Schollmeyer إلى أنّ مهمّته كانت إنشاء بعثة إرساليّة على أرض المغول، و لهذا الغرض أخذ معه مكتبة و كنيسة مصغّرة اضطرّ لتركها أثناء سفره الشّاق، أمّا الرسائل التي كان يحملها فلم تكن إلاّ توصيات يحملها أيٌّ مبعوث ليُستقبل كما هو أهل. و الحقيقة أنّ كلاهما محقٌّ، إضافة إلى أنّ المغزى الحقيقي هو جلب المغول إلى كسر شوكة المسلمين و صرف المغول عن المسيحيّين.
أنظر : Richard (j), Sur les pas de., p.55.
و لو جمعنا من مقال روبروك كلّ ما يُشير إلى تغلغُل المسيحيّة في منغوليا للاحضنا مفارقات كبيرة، إذ أنّ روبروك بنفسه وجد صُعوبة في تقيّيم الوضع، لأنّ ذلك التوغُّل لم يكن على نفس الدرجة في مختلف مناطق الإمبراطوريّة الشاسعة، تلك الشساعة التي سبّبت لاحقاً انقسامها بين:
- خانات روسيا و التركستان التي اعتنقت الإسلام مُبكّرًا، لأنّ بركة خان (Berca(=Berké اعتنقه سنة(650هـ/1252م)،
- وخانات فارس، أمثال هولاكوخان، الذين بقوا و لمدّة طويلة مُساندين للبوذيّة و للمسيحيّة، قبل أن يتحوّلوا نهائيًا إلى الإسلام ابتداء من سنة(695هـ/1295م) على عهد غازان خان .
- و خانات منغوليا و الصين، أمثال قوبلاي خان Qoubilai Khan، الذين كانوا على البوذيّة.
كان هذا الإختلاف في الديانة سببًا لصراعات عديدة بين الجنكيزخانيّين، و مرجعها أساسًا إلى التحالفات السياسيّة.
و لا يزال الباحثين إلى أيّامنا هذه متردّدين حول ديانة "سرتق"، هل كان حقًّا على النصرانيّة التي شجّعت لويس التاسع و روبروك لإقرار تلك البعثة ؟. أمّا المؤرّخ "جروسي" Grousset فيذهب إلى أنّه كان نسطوري :"إنّ المصادر الأرمينيّة (كيراكوس Kirakos)، و السريانيّة(بن العبري Bar Hebraeus)، و الإسلاميّة(Djoūzdjāni et Djouveinî) متّفقة في هذا الموضوع"، بينما يرى آخرون عكس ذلك، مثل ما هو حال روبروك الذي ذكر أنّ النساطرة هم الذين " نشروا الإشاعات بأنّ سرتق و منكوخان و كيوك خان كانوا على المسيحيّة، لا لشيء إلاّ لكونهم يُحسنون للمسيحيّين أكثر من الشعوب الأخرى. و الحقيقة أنّهم لم يكونوا مسيحيّين"، "و كان هؤلاء النساطرة يختلقون الدعايات العظيمة من لا شيء " . إلاّ أنّه مؤكّدٌ على أنّ أهمّ مُستشاريه كان نسطوريًا، و كان اسمه(Coiac)، حسب ما ذكره روبروك ، و أنّ سرتق كان مُطّلعًا بما فيه الكفاية عن الديانة المسيحيّة ليسأل روبروك إن كان الكتاب المقدّس(la Bible) الذي عرضه في تلك المقابلة، يحتوي على الإنجيل، و هل التمثال على صليبه هو المسيح(لأنّ الأرمن والنساطرة لا يضعون التمثال مُسمّرًا على صلبانهم، و يعتبرون ذلك عارًا). و قبل مُغادرة روبروك لسرتق تلقّى تحذيرًا مفادُه :"لا تذكر أنّ سيّدنا مسيحي. إنّه ليس مسيحي، بل Moal(أي مغولي)"، فعلّق روبروك عليه بقوله :"إنّ المغول كانوا يعتبرون المسيحيّة لقبٌ لشعب مُعيَّن، و أنّ تكبُّر المغول المُفرط جعلهم يرفضون تسميتهم بالمسيحيّين و لو كان لهم بعض الإعتراف بالمسيح ". و على هذا فإنّ لفظ "مسيحي يعني عند المغول "الفرنج Franc"، أي خاضعين إمّا لملك فرنسة، و إمّا للبابا. و مهما يكن من أمر فإنّ روبروك خَلُص إلى أنّ القائد سرتق، سواءً كان مسيحيًا أو غير ذلك، فإنّ ميله و عطفه كانا مُوجّهان لمن يُقدّم له هدايا أكثر. أنظر:
Guillaume (de R.), op.cit., p. 40,41,42 ,118, 120,122, 123,125,179 ; Grousset(R.), l’Empire des Steppes, p. 473.

بدأت الرحلة إلى قراقورم في منتصف سبتمبر 1253م عبر منافذ جبال الأورال، و نهر إيلي، إلى أن وصلت في أواخر ديسمبر من العام نفسه، فمثل روبروك و زميله بين يدي منكوخان في يوم 04 جانفي1254م (1).

و بدأت المفاوضات للتعاون، و لكن سرعان ما فشلت بسبب أن منكوخان كان رجلا صريحا للغاية، فلم يكن دبلوماسيا محضًا لإبرام معاهدات أو عقد أحلاف، و كان يجهل السياسة الغربيّة، بل كان رجلا بسيطا واضحا، مباشرا في كلامه محدودا في رغباته. لقد قال منكو في بداية مفاوضاته أنه لا يقبل أن يكون في العالم سيد سواه، و إنه لا يعرف كلمة "صديق"، و إنما يعرف كلمة "تابع"، فأصدقاؤه هم من يتبعونه و يُعلنون له الولاء و الطاعة له، أما أعداؤه فهم الذين يُحاربونه، و هؤلاء ليس بينه و بينهم مفاوضات إنما لهم السيف والإبادة(2).

كان منكوخان يميل إلى البوذيّة، تمامًا مثل أسلافه الجنكيزخانيّين، أمّا خيمته فكانت مليئة بالكهنة النساطرة الأتراك، كما وجد روبروك في بلاط المغول عدّة ممثّلين للعالم المسيحي مثل سفراء إمبراطور نيقيا يوحنّا الثالث فاتاتزاس Jean III Vatatzés، و مسيحي من دمشق مبعوث من قبَل أحد الملوك الأيُّوبيّين، و راهب أرميني اسمه سارج Serge قدمَ من فلسطين، وخادمة من مدينة ماتزMetz اسمها باكيت(Paquette (ou Pascha كانت في خدمة إحدى نساء الخان الأعظم النسطوريّات، و صانع مجوهرات باريسي Parisien اسمه غليوم بوشير Guillaum Boucher و الذي كان ابنه ترجمان روبروك الخاص عند المغول، و من المفضّلين عند منكوخان(3).

---

(1) رنسيمان(ستيفن)**: تاريخ الحروب الصّليبيّة**، ترجمة السيد الباز العريني، الطبعة الأولى،- بيروت - لبنان(دار الثقافة) 1969م، ج 3، ص 510-511. و انظر أيضًا :

Dawson, the Mongol mission, op.cit., pp.154-155 ; Grousset (R.), op. cit., p. 523.

(2) أنظر : Roux(J.P.), op.cit.. p. 335.

و انظر نص رسالة منكوخان الموجهة إلى لويس التاسع، في الملاحق.

(3) Guillaume (de R.), op.cit., p. 38, 160, 166 ; Grousset (R.), Histoire des croisades. , p. 523.

صارت عاصمة الإمبراطور الإغريقي في نيقيا منذ احتلال الصليبيّين للقسطنطينيّة. أنظر:

Guillaume (de R.), op.cit., p. 160, note 6.

يقول روبروك في متناول ذكره للخان منكوخان و بلاطه :

" كان مترجم منكوخان الشخصي مسيحيًا على المذهب النسطوري، و كذلك كانت زوجته المفضّلة المتوفّاة التي صار لابنتها مكانة هامّة في البلاط من بعدها، أمّا زوجتُه المُفظّلة "كوتوتا" Cotota فهي على المسيحيّة، فقد كانت تدخل إلى الكنيسة صُحبة ابنها الأكبر و نساء أُخريات، و آخرين من أبنائها، و كلُّهم خاشعين. أمّا منكوخان فكان يدخلها و يُؤتى بالكتاب المقدّس ، و يسأل عن معاني التصاوير. و في يوم الأحد التالي تأتي ابنة الزوجة المسيحيّة المتوفّاة إلى الكنيسة، و ينحني أكبر أبناء منكوخان أمام الصليب و يُكرمه بيْن أنّ مُعلّمه كان راهب نسطوري خامر اسمه داود. الكثير منهم يُحبُّون adorent الصليب و لو لم يُعمّدوا : معظم نساء الخان الكبير ينحنون أمام الصليب، بينما كانت كوتوتا تصوم أثناء الأسبوع المسيحي المقدّس...".=

رافق روبروك البلاط المغولي إلى قراقورم فدخلها يوم 05 أبريل 1254م، ثُمّ توجّه إلى الكنيسة النسطوريّة، فأدّى فيها الصّلوات. كما قابل عددًا كبيرًا من المسيحيّين من بلدان شتّى مثل المجر، و ألمانيا، و روسيا، و جورجيا، و أرمينيا، و حضر تعميد ستّين شخصًا(1).

مكث روبروك خمسة أشهر في بلاط منكوخان، فلاحظ فيه الاحترام للمسيحيّين، إضافة إلى ترؤُّسه لمناظرة بين علماء النصارى و المسلمين و البوذيّين، شارك فيها روبروك، وذلك يوم 30 مايو 1254م، و دار الحديث فيها حول الألوهيّة و منبع الشرّ(2)، لكن اهتمامه كان خاصًا بالمسيحيّين الفرنسيّين و المجريّين و الإنجليز، و كذا التيّار الجيورجي و الأرميني و الروسي والإغريقي، الذين حُرموا تمامًا من شعائرهم الدينيّة، ثمّ صبّ جامّ غضبه على النساطرة الذين منعوهم من التعميد في كنائسهم النسطوريّة(3).

علم روبروك في قراقورم أنّ منكوخان كان يعتبر القوى الإسلاميّة أهم أعدائه، و بالرغم من حضور سفراء كل من الخليفة العبّاسي و سلطان الهند و السلطان السلجوقي في قونيا، إلاّ أنّ الخان

= و عندما اشتدّ مرض زوجة الخان الثانية، كوتا Cota، حاول روبروك إشفائها بقراءة التعويذات عليها. "... أمّا "أريق بوقا" أو "إريك بوكا" Arabuccha، أصغر إخوة منكوخان، فقد كانت أمُّه مسيحيّة، و كان له اطلاع على الإنجيل، إذ تربّى و تعلّم على يدي "غليوم" Guillaume - راهب و صديق روبروك-، فكان يُظهر نوايا حسنة تجاه المسيحيّة: كان يُحيّي روبروك و من معه بإشارة الصليب، و أثناء الجدال الذي وقع بين مُسلمين من حاشيته و بين راهب إسمه "سرجيس" Sergius، تدخّل "أريق بوقا" قائلاً : "لا تتكلّموا بهذه الكيفيّة لأنّنا نعلم أنّ المسيح هو الله"، (تعالى الله عمّا يُشركون). و يذكرُ روبروك سبب هذا التدخُّل، أنّ مُسلمَيْن رفيعيْن في بلاط الخان كانا مُصاحبيْن لإريك بوكا أثناء زيارته له، سبّهُما سرجيس في حضرته، و سبّ النبيّ محمّد صلّى الله عليه و سلّم، أنْ نعتهم بالكلاب، قال: "فأخذ المُسلمين في شتم المسيح عيسى عليه السلام". و لا أدري كيف يُمكن لمسلم أيّ كان و مهما حدث أن يسُبّ رسولاً من رُسُل الله، إلاّ أن يكون ذالك من دجل روبروك الصليبي الحاقد، و على هذا عرّض بعض المسلمين لسرجيس في طريقه بالمُشاجرة و السخريّة. و مهما يكن فإنّ الصراع و الأحقاد كانت على أشدّها في البلاط المغولي بين المسيحيّين و المسلمين، ما جلب انتباه البلاط، فأُمر روبروك و من معه بالجلوس مع السفراء الآخرين بعدما كان المعهود التفريق بينهم، و لعلّ ذلك راجع لسياسة المغول الحكيمة في تعميق الشقاق بين أنصار الديانتان.

و أخيرًا فأنّ "بولقاي" Bolgay، أحد كبار مستشاري منكوخان، كان نسطوريًا و صديقًا لغليوم Guillaume(صديق روبروك).

ثُمّ إنّ المغول كانوا يلجؤون في بعض الأحيان إلى الكهنة المسيحيّين بصفة خاصّة و قبل غيرهم لأداء المناسك و الصلوات و الدعاء الجماعي للخان و أسرته و أملاكه و ماشيتهم. و رغم كلّ ذلك نجد روبروكيّة يتأسّف لتعاطف الخان مع الإعتقاد البوذي، و أنّه لا ينحاز إلى أيّ من الديانات الثلاثة(المسيحيّة، و الإسلام، و البوذيّة). و نجد هذا التوافق بين المسيحيّة و البوذيّة فيما بعد عند أخيه هولاكو المرسل إلى بلاد فارس، و لو أنّ هذا الأخير كان ميّالاً إلى البوذيّة أكثر، بالرغم أنّه ظهر للمسيحيّين أنّه "المُنتقم للمسيحيّة المضطهدة". أنظر:

Guillaume(de R.), op.cit., Article XXIX, pp. 42-44, 177-179, 203.

و لو صحّت رواية روبروك هذه، فإنّ بلاط المغول بهذا الشكل يكون قد صار على خُطى المسيحيّة، و إلاّ فإنّها مُجرّد دعاية.

(1) Guillaume(de R.), op.cit., p.192, 197 ; Grousset (R.), Histoire des croisades., pp. 523-524.

(2) Grousset (R.), Histoire des croisades. , p.524.

(3) هذا ما يدلُّ على شدّة التنافس بين مختلف الديانات و الشعائر في بلاط المغول في قراقورم. أنظر :

Guillaume (de R.), op.cit., p. 37, 194 ; Richard(J), Les missions., op.cit., p. 180.

العظيم كان يهيّئُ أخاه هولاكوخان لإرساله إلى إيران و العراق لتدمير قوّة الحشّاشين الإسماعيليّة، و قوّة الخليفة العبّاسي(1).

لم يشر منكوخان في رسالته التي سلّمها إلى روبروك ليحملها إلى لويس التاسع، لأيّ تحالف ضدّ عدوّهم المشترك، المتمثّل في مسلمي بغداد و سورية، لأنّ روبروك كان قد التزم بجمع المعلومات و التّبشير بالمسيحيّة فقط، و رفض طرح المشاكل السياسيّة كما أشار إلى ذلك المؤرّخ جروسي(2)، إلاّ أنّه اعترف بحسن نيّته رغم رفضه لبقاء روبروك في منغوليا للتبشير و مؤازرة السُّجناء الألمان(3).

غادر روبروك البلاط المغولي يوم 8 جويليا 1245م، و خرج من قراقورم يوم 18 أوت1254م(4) حاملاً رسائل منكوخان، ليصل إلى باطو في روسيا يوم 16 سبتمبر1254م، ثمّ

(1) أنظر : Grousset(R.), op.cit., p. 524.
يذكر روبروك أنّ للخان منكو، ثمانية إخوة، و أنّه أرسله أحد أشقّائه الثلاثة، فدخل بلاد فارس، و أمر الآخر بالتوجُّه إلى بلاد الإسماعيليّة لقتلهم جميعًا، و أنّ أغلب الظنّ أنّه سيدخل بلاد سلاجقة الترك le pays des Turcs، و منها يهجم على بغداد Baldach (Baghdad) و فاتاتزاس Vastace (Vatatzés) (إمبراطور نيقيا Nicée يوحنّا الثالث Jean III)، و أرسل آخرًا إلى بلاد الصين Catay ضدّ الذين لم يخضعوا له بعد. أنظر:
Guillaume (de R.), op.cit., Article XXXII, pp. 201-202.
و الشاهد أنّ الذي دخل بلاد فارس ثُمّ أرسله منكو إلى بلاد الإسماعيليّة هو هولاكو، و لم تكن مُهمّته تدمير تلك الطائفة فحسب، لكن القضاء على خليفة بغداد، و غزو بلاد الشام. أمّا الاسماعيليّة فقد هُزمت سنة(654هـ/1256م)، و سقطت بغداد يوم 10 فبراير (656هـ/ 1258م). و أمّا الذي أُرسل إلى الصين فهو "قوبلاي" Qoubilaï، الذي استكمل غزو الصين سنة(678هـ/ 1279م). أنظر:
Grousset(R.), l'Empire des Steppes., pp. 350-355, 426-430 ; Guillaume (de R.), op.cit., p. 201 note 6, et p. 202 note7 et note8.

(2) أنظر : Grousset (R.), Histoire des croisades., p. 525.
و الحقيقة أنّ روبروك لايُبرَّءُ من محاولته فرض التحالف مع المغول ضدّ المسلمين بطريقته الملتوية تلك، ذلك أنّ محاولته البقاء في قراقورم إلى جانب منكوخان للتبشير بالنصرانيّة، و مناظراته لعلماء المسلمين، ما هي إلاّ نوع من الاستدراج إلى مواقع الحرب الصليبيّة، فلا يُعقلُ أن يغفل ذلك المحارب المحنّك و المرسول من طرف ملك فرنسا الصليبي عن إغاثة إخوانه و ملكه المتعثّر في بلاد الشّام، و البابويّة التي ما يئست في مسعاها لذلك.

(3) كان أندرو أف لونجمو قد علم بوجود هؤلاء السجناء الألمان و الذين كانوا عبيدًا ل: بوري Buri في منغوليا، ثمّ نُقلوا بعد موت سيّدهم إلى الشرق لاستخراج الذهب و صناعة السلاح. أمّا روبروك فقد كان يأمل لقاء ملك أرمينيا الصغرى هيثوم الأوّل في قراقورم، لكنّ هذا الأخير وصل منغوليا شهرين بعد مغادرة روبروك لها حسب بيليوت Pelliot، ثُمّ إنّه سمع باحتمال قدوم راهب من منطقة منجميّة محاذية لجبال تالكي Talki في منطقة "بولاة" (Bolod بالمغوليّة) Bolac ou Bolat، جنوب بُحيرة سيرامنور Sairam-nor بمنغوليا، و التي كان يعمل بها عدداً من هؤلاء الأسرى المسيحيّين، فكان روبروك يرتقبه، إلاّ أنّ أخباره انقطعت كذالك، و كان هذا سبب بقائه في قراقورم خمسة أشهر(من شهر جانفي إلى ماي) و بعدها لم يأذن له منكوخان بالمكوث إلاّ شهرين، و على هذا يكون خروج روبروك من بلاط منكوخان يوم 8 جويليا 1254م، حسب بيليوت. أنظر: Guillaume (de R.), op.cit., Article XXXIII, p. 204 ;
Richard (j.), Sur les pas de., p.58 note20 ; Guillaume (de R.) op.cit., p.140 note 5, p. 227 note 1.

(4) Grousset(R.), op. cit., p. 525 ; Richard(J), Les missions., p. 180 ; Guillaume (de R.), op.cit., p. 227 note1.

قطع القوقاز ليصل إلى بايجو يوم 17 نوفمبر 1254م، و بعدها دخل أرمينيا الكبرى(*) والأناضول و قبرص و أنطاكية ثمّ وصل طرابلس يوم 15أوت 1255م (1)، حتّى انتهى به المطاف إلى مدينة عكّا ، بَيدَ أنّ لويس التاسع كان قد غادر سورية انطلاقًا من عكّا يوم 25 أفريل1254م عائدًا إلى فرنسا على إثر وفاة والدته بلانش Blanche، فأرسل إليه روبروك تقريره مُرفقًا برسالة الخان منكو(2)، و بالطبع رفض ملك فرنسا أن يتحالف مع المغول على أساس شروط منكوخان، و من ثم فشلت المفاوضات الأولى بين المغول و صليبيي غرب أوربا.

إنّ تحالفًا من هذا النوع في سنة 1251م، يعني تغيُّرًا جوهريًا في سياسة المغول، و الحقيقة أنّ المغول كانوا متخوّفين من هجوم لويس التاسع على سلطان الترك، و حلب، و الخليفة العبّاسي، الذين كانوا ضمن الخطط المغوليّة، لذا قرّر الجيجيداي الاتصال بالملك الفرنسي لمعرفة نواياه،

(1) Guillaume(de R.),op. cit., Article XXXVIII, p. 243 ; William(of R.), The journey., op.cit., p. 218 .

أمّا المؤرخان Kappler (C. et R.)، فيريان أنّ رجوع روبروك إلى معسكر باطو كان يوم 15سبتمبر1254م، أي سنة كاملة، يومٌ بيوم، من مُغادرته له. و يذكُران نقلاً عن بيليوت(Pelliot, Notes sur l’Histoire de la Horde d’Or, Paris, Adrien- Maisonneuve, 1949, œuvres postumes, T. II, p. 2)، أنّه رُبّما غادر منكوخان يوم 08 جويليا 1254م)، و قوراقورم يوميْن من بعد على الأقلّ. و على هذا يكُون سفره من قوراقورم إلى الفولجا قد استغرق شهرين و خمسة أيّام(من 10 جويليا إلى 15سبتمبر)، بينما يذكر روبروك مُدّة شهرين و عشرة أيّام. و الحقيقة أنّ هؤلاء المؤرّخين اختلفوا و تناقضوا حتّى مع أنفسهم في بعض هذه التواريخ، فعلى سبيل المثال، يذكر Richard(J), la papauté. , p.78. ، أنّ روبروك غادر بلاط سرتق في أواخر جويليا 1254م راجعًا من سفارته ، بينما يذكر في Richard(J), Les missions. , p. 180. مثل ما ذكر جروسي (histoire des croisades, p. 525.)، أنّه غادر قراقورم في 18 أوت 1254م، و إن دلّ ذلك على شيء فرُبّما يكون الخطأ في حساباتهم التي هي غالبًا ما تكون تقديريّة، خاصّة و أنّ روبروك نفسه يذكر أنّه أثناء رجوعه التقى بسرتق متّجهًا إلى منكوخان أواخر شهر أوت 1254م، فلاحظ التناقض. أنظر:

Guillaume (de R.), op.cit., Article XXXVII, p. 227, 228, 229 et p. 227 note1.

(2) أنظر : Grousset (R.), op.cit., p. 525.

و مع أنّ منكوخان استقبل سفير لويس التاسع باحترام، و أكرم وفادته، و سمح له مناظرة العلماء البوذيّين و المسلمين في حريّة تامّة، إلاّ أنّه لم يسلّمهُ جواباً مقنعًا في مسألة التّحالف، بل طالب لويس و ملوك أوربّا بالخضوع له. أنظر :

حافظ حمدي: **الدولة الخوارزميّة و المغول**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1949م، ص 248.

و الواقع أنّ سياسة منكوخان و من قبله، تفرض على أصدقاء الإمبراطوريّة المغوليّة أن يكونوا أتباعًا خاضعين له، أمّا أعداؤه فينبغي استئصالهم أو إخضاعهم، و كل ما استطاع روبروك هو أن حصل على وعد بمساعدة كبيرة على شرط تقديم أوربّا فروض الطاعة و الولاء لسيّد العالم.

(*) و في مدينة "آني"، التقى روبروك بخمسة دومينيكانيّين، أربعة منهم قدموا من فرنسة أمّا الخامس فقد التحق بهم في سوريا، و كانوا يحملون رسائل من طرف البابا إلى "سرتق" و "منكوخان" و "بوري"Büri، مُماثلة لرسالة روبروك من قبل الملك لويس التاسع، و كان مضمونها طلب السماح بالمكوث في بلاد المغول و التبشير بالمسيحيّة و غير ذالك. و الحقيقة أنّ هؤلاء الدومينيكان كانوا مهتمّين بمصير الأسرى الألمان الذين أعلن عنهم لونجمو، و من أجل ذلك كانت تلك الرسالة البابويّة الثالثة. و لمّا سمعوا من روبروك قصّته مع المغول توجّهوا إلى مدينة "تفليس" لمشاورة إخوانهم في الموضوع، ثُمّ انقطعت أخبارهم.
أمّا "بوري"، فقد سبق أن قتله "باتو" بداية سنة 1252م، لذلك اقترح المؤرّخ Rockhill أن يُعوّض ذلك الإسم ب"باتو"، ما أثار حفيضة و رفض المؤرّخ بليوت Pelliot. أنظر:

Guillaume (de R.), op.cit., Article XXXVIII, pp. 240-241, et notes 16, 17.

دون التحالف معه. و أخيرًا لم تكن للمغول في تلك الآونة سياسة موافقة للآتين و لا للكاثوليك(1)، ولم يكن بمقدور سرتق أو باطو اتخاذ قرارا يتجاوز صلاحياتهما، بإمكانه تغيير السياسة المغوليّة.

لقد وصلت بعثات البابا و ملك فرنسا إلى طريق مسدود لا مسلك له، رُغم كلّ تلك الجهود المضنية، و تبيّن فشل مشروع التحالف المغولي المسيحي الذي أُجهض في رحمه لضعف الرُأية الصحيحة من كلا الطرفين، و لو كُتب لذلك التخالُف أن يتحقّق لكانت النتائج وخيمة على الطرف الإسلامي. و رُغم ذلك الفشل، إلاّ أنّ الغرب المسيحي تمكّن بفضل تلك الإرساليّات اكتشاف جالية مسيحيّة في آسيا الوسطى و في عُقر دار المغول، لم تكن في حُسبانها، ستكون بعد وقت وجيز هي الحربة التي تدُكُّ قلب الأُمة المسلمة (2).

III- مشروع التحالف بين الأرمن و المغول :

كان أتراك قونيا قد استولواْ على الجهة الغربيّة لأرمينيا، فبدأ هيثوم الأوّل Hethoum I ملك أرمينيا الصغرى (1226-1269م) (3) في استرجاعها، و لكنّ سلاطين المماليك ظهروا كأقوى الخصوم لأرمينيا الجديدة بعد انتصاراتهم على الصليبيّين(4). أمّا المغول فكانوا يظهرون عداء كبيرا للمسلمين أكثر من عدائهم للمسيحيّين(5).

و لمّا لمس المسيحيّون في آسيا سياسة التسامح التي درج عليها المغول إزاءهم بصفة خاصّة،

(1) في رسالته إلى لويس التاسع يوضّح منكوخان أنّه لا تحالف بين المغول و الفرنجة حتى يُقرّ الملك بخضوعه للخان. أنظر : Richard (j), Sur les pas de., p.59, note. 23.

(2) و على إثر هذا الإخفاق رُدّ عددًا من الرّهبان على أعقابهم، كانوا قد تسلّموا من الملك لويس هذه الرسائل للتبشير في أرض المغول. أنظر : Richard (j), Sur les pas de., p.60, note. 25.

و بعد رجوع روبروك من سفارته كتب مذكّراته لفائدة ملك فرنسة و سمّاها : Itenerarium ad Partes Orientales، احتوت في آخرها على معلومات استخباراتيّة حول أوضاع المسلمين و حروبهم فيما بينهم، خاصّة في بلاد الترك، و نصائح لإرسال المبشّرين إلى بلاد المغول، و كذا تفاصيل عن الطريق المفترض سلوكه في حالة ما تهيّأت ظروف حملة صليبيّة على القدس. أنظر: Guillaume (de R.), op.cit., pp. 244-246.

(3) كان هيثوم الأوّل ابنا لقسطنطين Constantin من عائلة الروبينيان Les Roupeniens، وصل إلى عرش أرمينيا الصغرى بالزواج من زابيل Zabel (أو إيزابيل ou Isabel) بنت الملك ليون الثاني Leon IIالذي لم يكن له ذريّة غيرها. فكان تتويجه ملكً سنة 1224م ثمّ اعتزل لصالح ابنه ليون الثالث Leon III سنة 1269م ليصبح راهبًا تحت اسم مكار Makar. تحالف هيثوم الأوّل مع كثير من أُمراء الفرنج بمُصاهرتهم، فقد تزوّجت أختهُ ستيفاني من هنري الأوّل ملك قبرص، و تزوّجت أُخته ماريا من يُوحنّا أبلين كونت يافا، كما أنّ بناته تزوّجن من أُمراء من اللاّتين، فزُوّجت سبيل لبوهمند السادس أمير أنطاكية، بينما كانت إيفيميا ليوليان كونت صيدا، و ماريا لجاي أبلين ابن بلدوين صنجيل قبرص، أمّا ريتا فزُوّجت لأرمني كان يتولّي أمر حصن سارونتيكار. أنظر :

Guiragos de Kantzag, **Histoire d'Arménie**, traduction Dulaurier, dans J.A., Paris, octobre 1833, T.XII, p.273, note. 1 ; Setton, op. cit., T.II. p. 652 note 2.

و انظر أيضًا : السيّد الباز العريني: **المغول**، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، بيروت 1981م، ص 198 هامش 1.

(4) Pasdermadjian (H.), **Histoire d'Armenie des origines jusqu'au traité de Lausanne**, Paris, 1964 (Deuxiéme Edition revue), p. 214.

(5) Alem (Jean-Pierre), **L'Armenie**, ed. Que Sais-je, numéro 851, Paris1959, p. 34.

حاولوا التقرُّب منهم و اجتذابهم إلى صفوفهم لتخليص بيت المقدس خاصّة، و بلاد الشّام عامّة من

أيدي المسلمين. و كانت مملكة الأرمن بقليقية تُدرك خطر الزحف المغولي، إذ عاينت هزيمة الجيش السّلجوقي سنة 1243م (1)، و لهذا سعى الملك هيثوم الأوّل إلى كسب ودّ المغول، فأرسل إلى القائد المغولي باطو كتابا يفيض بالولاء و الاحترام سنة 1244م (2). و إذا كان نصارى غرب أوربا و ملوكهم يرفضون التعاون مع منكوخان على أساس التبعية فهناك من الملوك الآخرين من يقبل بذلك، و يعتبره نوعا من الواقع. لقد فكر هيثوم ملك في التحالف مع المغول على أساس التبعية كما يُريد منكوخان، و كان يعلم جيّدا قوة المغول، لأنّ بلاده قد دُمرت من قبل على أيديهم في عهد جنكيزخان ثم في عهد أوكتاي. كما هو متيقّن أن دولته ضعيفة لا ترقى إلى مستوى دولة المغول، و يعلم أيضا أنه محصور بين قوات المغول من جهة، و قوات المسلمين من جهة أخرى، و كان العداء قديما جدا بينه و بين المسلمين، و هو يتحرق شوقا لغزو بلاد الإسلام و إسقاط الخلافة العباسية، و إن لم يقبل الآن بالتبعية للمغول فسيُرغم عليها غدا، و ساعتها سيفقد ملكه بلا ثمن. وكل هذا دفع هيثوم للاتصال بالمغول ثم ذهب بنفسه لمقابلة منكوخان في قراقورم عاصمة المغول(3).

1- أولى بعثات هيثوم الأوّل إلى المغول :

لاحظ هيثوم الأوّل أنّ المغول تغلّبوا على سلطان الترك، و أنّهم يقتربون نحوه شيئًا فشيئًا، فقرّر الخضوع لقوّتهم، و أرسل إليهم في بداية ربيع عام 1244م سفراء محمّلين بالهدايا، فوصل رسل هيثوم الأوّل إلى أمير أرمينيا، جلال، في حصن خاتشين ببلاد أرتساخ Artsakh(4)، فقدّمهم

(1) كان انهزام هذا الجيش السلجوقي بقيادة السلطان غيّاث الدين كيخسرو في أرمينيا أمام جيش المغول، و كانت عساكره تظمّ اليونانيّين و الفرنج و الكرج و الأرمن و العرب، فالتقى الجيشان بنواحي أرزنكان (بلدة من بلاد أرمينيا بين بلاد الروم و خَلاط قريبة من أرزن الروم)، بموضع يسمّى كوساذاغ. أنظر :
ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صاور و دار بيروت للطباعة و النشر، طبعة لبنان (1399هـ/1979م)، ج 1، ص 150 ؛ ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول**، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان- الطبعة الأولى (1418هـ/1997م)، ص 220. و انظر :
D’Ohsonn(C.); op.cit., T.II, pp.461-462 ; Deguigne, **Histoire générale des Turcs, des Mongols, et des autres Tartares occidentaux**, Paris1756-1758, T.II, p.246.
(2) رنسيمان (ستيفن): المرجع نفسه، ج3، ص507-508.
(3) أنظر : Pasdermadjian(H.), op.cit., p. 214. ; Alem (Jean-Pierre), op.cit., p. 34.
(4) أرتساخ Artsakh هي البلاد التي يُسمّيها المسلمون حاليًا بالكرباخ Karabakh ، أو البستان الأسود jardin noir ، و هو الاسم الذي يُناسب الجهة الجبليّة لهذه البلاد شمال الأراكس L’Araxes ، أمّا خاتشين Khatchen فهي حصن مبني وسط هذه الجبال. أنظر :
Tchamtchen, **Histoire Arménienne**, Traduction Dulaurier, dans J.A., T.XII, Paris, septembre 1833, p. 206.

هذا الأخير إلى بايجو نويان Batchou noyan(1) و إلى إياثينا Ailthina أو Elthina زوجة تشارمقان Tcharmaghan، و إلى القوّاد الآخرين.

طلب المغول من الرسل أن يُسلّموا أوّلاً أم و زوجة و بنت سلطان قونيا(2)، فرجع هؤلاء الرسل بهذه الرسالة مصحوبين بسفراء مغول(3).

و لمّا علم هيثوم الأوّل بالخبر حزن كثيرًا، و اضطرّ إلى تنفيذ الأمر، فسلّم الطلب مصحوبة بهدايا كثيرة للبعثة المغوليّة و الأمير المغولي، و أردفها بسفارة أخرى استقبلها بايجو نويان بحفاوة ثمّ أبرم التحالف مع هيثوم الأوّل، و سلّم وثيقة العهد إلى البعثة التي قضت عنده فترة الشتاء ثمّ أرسلها في الربيع الثاني إلى هيثوم(4).

2- بعثة سمباد Sembad من طرف هيثوم الأوّل إلى المغول :

تفطّن هيثوم الأوّل ملك أرمينيا لما غفل عنه روبروك، و علم أهميّة التدخُّل المغولي في الصراع بين المسلمين و المسيحيّين، فقبل الدخول في ولاء المغول و طاعتهم للظفر بحمايتهم،وهمّ بالسفر بنفسه إليهم، و لكنّ أهل الرأي من حاشيته نصحوه بالتريُّث، فأرسل أخاه سمباد في سنة 1247م إلى منغوليا حاملاً معه الهدايا الثمينة إلى الخان في قراقورم(5)، و حضر القوريلتاي(6)

(1) باجو Batchou أو بايجو نويان Batchou noyan من قبيلة ييسوت Yisout ، و هو قائد لعشرة آلاف رجل. أُرسل إلى بلاد الفرس مع تشارمقان Tcharmaghan ، و بعد موته خلفه هذا الأخير. أنظر :
Tchamtchen, op.cit., p.205, note 1.

(2) Roum أو Rum (Sultanat de Qoniya ou Iconium) في الأناضول السلجوقي. أنظر :
Grousset(R.), op.cit., pp. 518-519.

(3) أنظر : Tchamtchen, op.cit., p. 206.

(4) أنظر : Tchamtchen, op.cit., p. 207.

(5) أنظر : Guiragos de Kantzag, **l'Histoire D'Arménie**, traduction Dulaurier, dans J. A., Paris, (Avril-Mais) 1858, p.463 et Idem, octobre 1833, p. 273 ; Sĕmpad le Connétable, **Chronique du royaume de la petite Arménie**, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L. , Paris, 1869-1906, T. I, p. 651 ; Hayton, **La Flor des Estoires de la Terre d'Orient**, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L. , Paris, 1869-1906, T. II, chapitre XVI, pp. 163-164 et Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835 ; Saint-Martin(J.), **Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie**, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819, T. I, pp. 395-396 ; Grekov(B.) et Iakoubovski(A.), **la Horde D'Or: la dominationtatare au XIII^{e} et au XIV^{e} siécles de la mer jaune à la mer noire**, traduit du russe par François thuret, Payot, Paris, 1939, p. 131 ; Grousset(R.), op.cit., pp. 526-527.

(6) القورلتاي : في الاصطلاح المغولي عبارة عن مجلس عظيم حافل يضمّ جميع الأمراء و أركان الدولة، و ينعقد عند تنصيب أحد أعضاء الأسرة المالكة إمبراطورًا أعظم على جميع المغول. أنظر:
رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، ج1، ص234، حاشية1.

الذي قرّر انتخاب كيوك خانًا عظيمًا للمغول(1).

استُقبل سمباد في قراقورم بحفاوة، و ناقش كل القضايا التي أُرسل من أجلها(2)، و لمّا علم الخان منه استعداد هيثوم ليكون تابعًا له، وعد بمساعدة الأرمن لاسترداد ما انتزعه السلاجقة من مدُن(3)، و سلّمه وثيقة إلى الملك هيثوم تضمن له الحماية و الصداقة(4).

كما كتب سمباد رسالة، في العام الموالي، من سمرقند إلى صهره هنري الأوّل Henri I ملك قبرص، الذي كان زوجًا لستيفاني Stephanie، أخت الملك هيثوم الأوّل، يُبيّن له فيها أهميّة الجالية النسطوريّة في بلاط و إمبراطورية المغول إذ ورد في رسالته العبارة التالية: " لقد وجدنا الكثير من المسيحيّين في بلاد الشرق، و الكثير من الكنائس العالية و الجميلة... جاء مسيحيّي الشرق إلى الخان كيوك(1247-1249م) فاستقبلهم بحفاوة، و أعطاهم الأمان، ثُمّ أمر أن لا يُؤذى المسيحيّون أينما كانوا، سواء بالقول أو الفعل..."(5).

مكث سمباد أربعة سنوات في منغوليا(6)، ثمّ رجع إلى أرمينيا حاملا تقاليد من الخان الكبير يكفل سلامة ممتلكات هيثوم و وحدتها، غير أنّ موت كيوك خان أوقف كل إجراء مباشر(7). و في طريق رجوعه اتصل سمباد بالقائد المغولي بايجو نويان Batchou noyan و سلّمه أمر الخان كيوك، فلم يكن في وسعه إلاّ تلبية رغبته ثمّ أرسله مكرّمًا(8).

و بعد وفاة كيوك خان خلفه على العرش ابنه منكو خان، الذي توثّقت علاقته بسمباد بعد أن أهداه هذا الأخير جوهرة ثمينة، و على إثرها صار سمباد من المقرّبين لدى الخان العظيم، ثمّ رجع سمباد من البلاط المغولي سنة 1251م، برسالة ليُقدّمها إلى بايجو نويان من أجل تسليم مناطق في

(1) رنسيمان: المرجع نفسه، ص 508.

(2) أنظر : Hayton, **La Flor des Estoires de la Terre d'Orient**, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L. , Paris, 1869-1906, T. II, chapitre XVI, pp. 163-164 et Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835.

(3) رنسيمان: المرجع نفسه، ص 508.

(4) أنظر : Grousset(R), Histoire des croisades., pp. 526-527.

(5) أنظر : Guillaume de Nangis, **vie de saint Louis**, Rec. Des historiens de Gaules et de La France, academie des inscriptions et belles letters, Paris 1840, T. XX, pp. 360 et suivant ; Sĕmpad Le Connétable, **Chronique du royaume de la petite Arménie**, Traduction Dulaurier(Ed.), ds R.H.C., D. A., publication A.I.B.L., Paris1869-1906, T.I, Note preliminaries, p. 606 ; Richard (j), La papauté., p. 76 ; Grousset(R), Loc. cit.

(6) أنظر : Hayton, Loc. Cit.

أمّا المؤرّخ بول بيليوت Pelliot(Paul) فيُؤكّد أنّ سفر سمباد كان من (645هـ/1247م) إلى(648هـ/1250م). أنظر: Grousset(R), op.cit., p.527, note 1.

(7) رنسيمان: المرجع نفسه، ص 508.

(8) أنظر : Tchamtchen, op.cit., p.208.

بلاد سيوني لسمباد(1).

3- قدوم الملك هيثوم الأوّل بنفسه على المغول :

لمّا علم الملك الأرميني هيثوم الأوّل أنّ المغول اقتربوا جدًا من بلاده، و سمع من أخيه سمباد ما جرى من أحداث في بلاد المغول(2)، قرّر سنة 1252م إبرام اتّفاق مع الخان الجديد، و أرسل إلى باطو، أمير شمال أرمينيا، رسالة كُلّف بحملها كاهنا اسمه باسيل Basil، يُبيّنُ له فيها استعداده لإقامة علاقات طيّبة مبنيّة على حُسن الجوار و التفاهم، فوافقه على ذلك و طلب منه القدوم إليه، إلاّ أنّ هيثوم تردّد طويلاً قبل الامتثال لطلبه. و لمّا علم أنّ المغول وصلوا إلى أرمينيا و جورجيا، و أنّهم يضطهدون هذه البلاد، قرّر التوجُّه إلى الخان العظيم، و ترك المملكة تحت إدارة أبيه قسطنطين Constantin و ابنه لوفان Levan (3).

أسرع الملك هيثوم إلى قراقورم، في نفس السنة التي عاد فيها رسول لويس التاسع منها سنة 1254م، ليعرض ولاءه وصداقته، فخرج من قيليقيا مُتخفيًا، خوفًا من غدر جيرانه الأتراك السلاجقة الذين كانوا تحت حُكم السلطان علاء الدين(4).

بعدما اجتاز هيثوم الأوّل بلاد قونيا، قابل القائد المغولي، بايجو نويان Batchou، الذي هزم سلطان الترك(5)، فعرّف بنفسه و صارحه بالذهاب لمقابلة خان المغول، فزوّده بحُرّاس

(1) أنظر : Orbêlian(Étienne, archeveque de Siounik), **Histoire des Orpélians**, in Saint-Martin(J.), Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819, chapitre VII, T. II, pp. 129-139 ; Tchamtchen, op.cit., p. 212.

و حدث أن أمر أرغون Araghoun، نائب منكوخان على بلاد فارس، عُماله عام 1254م بالقيام بجرد كلّ أراضي البلاد التي يحكمها، و قد طلب منه الأمراء بلاد جورجيا الموافقة على قتل سمباد، إلاّ أنّ طلبهم قوبل بالرفض، و رغم ذلك تمكّنوا على الاستيلاء على مجموعة من القُري التابعة لسمباد، و تخريب الباقي، مما جعل هذا الأخير يقدُم سنة 1256م على صديقه الحان منكو ليعرض شكواه، فوجد هناك القائد أرغون مصفّدا في الأغلال لتآمر بعض نوابه عليه، فاستطاع سمباد ان يشفع له، مما جعل العلاقة تتوطّد أكثر بينهما. أنظر :

Orbelian, op.cit., chapitre VIII, T. II, pp.141-145, et p. 283 note 5.

(2) أنظر : Hayton, **La Flor des Estoires de la Terre d'Orient**, dans R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L. , Paris, 1869-1906, T. II, chapitre XVI, pp. 163-164 et Idem, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, p. 835.

(3) أنظر : Vahram D'Edesse, **Chronique Rimée des Rois de la petite Arménie**, dans R.H.C., D. A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. I, p. 519 ; Ttchamtchean, op. cit., pp. 212-213 ; Hayton, Loc. Cit.

(4) أنظر : Guiragos de Kantzag, op.cit., octobre 1833, T. XII, p. 274., Avril-Mais, 1858, p.464 ; Eracles, op.cit., li trentequatriesmes livres, chapitre I, p. 441.

أمّا علاء الدين فهو ابن كيكباد Kaikobad سلطان أتراك سلاجقة قونيا Roum (Qoniya) أو آسيا الصغرى، و اعتلى العرش منذ (616هـ/1219م)إلى (634هـ/1236م) . أنظر :

Guiragos de Kantzag, op.cit., octobre 1833, T. XII, p. 274, note 2.

(5) أنظر : Hayton, Loc. Cit. ; Grousset(R), op.cit., p.527.

يُرافقونه(1)، ثمّ اجتاز القوقاز عن طريق دربند Derbend و مرّ بالفولجا السفلى La Basse Volga أين اتصل بباطو و ابنه سرتق Sartaq(2)، ثمّ اتخذ الخط الذي مرّ به روبروك قبل ذلك بشهور عبر الألتاي، ليصل إلى بلاط منكو خان قرب قراقورم(3).

قدّم هيثوم نفسه للخان منكو على أنّه تابعًا له، فصُرّ الخان و أقام له حفل استقبال رسمي في يوم 13 سبتمبر 1254م، و منحه وثيقة تكفل السلامة لشخصه و مملكته، و جرت معاملته ككبير مستشاري الخان المسيحيّين في كلّ ما يتعلّق بأمور غرب آسيا، و وعده بإعفاء الكنائس و الأديرة المسيحيّة من الضرائب(4)، فقد ذكر المؤرّخ كيراكوس Guiragos de Kantzag أنّ منكو خان أعطى الملك هيثوم الأوّل وثيقة مختومة بخاتمه، تأمر المغول بعدم التعرُّض للملك الأرميني وممتلكاته، كما سلّمه وثيقة أخرى تحرّر جميع الكنائس من قيود المغول(5).

و بعد بضعة أيّام قدَّم الملك هيثوم سبعة مطالب للخان هي:

1- أن يتحوّل الخان منكو و كل من معه إلى المسيحيّة، و أن يُعَمَّدَ كافّتهم،

2- أن يكون السلم الدّائم بين المغول و المسيحيّين،

3- أن يكون الرهبان المسيحيُّون و كلّ كنائسهم الموجودة على الأراضي التي احتلّها المغول أو يستوْلونَ عليها مستقبلا، حرّة و آمنة.

4- أن يقدّم الخان للمسيحيّين العوْن اللاّزم ، لتحرير الأرض المقدّسة من أيدي المسلمين، و يسلّمها للمسيحيّين،

---

(1) أنظر : Hayton, Loc. Cit.

(2) أنظر : Vartan Le Grand, **Histoire universelle**, traduction Dulaurier, dans J.A., (octobre-novembre) 1860, T. XVI, p. 289 ; Hayton, Loc. Cit.

(3) أنظر : Grousset(R), op.cit., p. 527.

يشرح القاموس الصيني أنّ التتار هو الاسم العام لجميع برابرة الشمال (أي المغول) فاللّفظ مغول Mongol et Mogoul يُترجم تاتا أو تتار Tata ou tatar في بداية القرن الخامس عشر الميلادي تحت أسرة مينغ Dynastie Ming . و يُشير الصينيُّون إلى أنّ أمّة المغول كانت تنقسم في زمان جنكيزخان إلى أربعة فروع كبيرة، فهؤلاء المغول ينحدرون من الموهو Moho، و التايقوت Taidjigot ou Taidjot، و الكريت Krait و التتار Tatar، و لكي يميّز الصينيّون بين هذا الأخير و التتار الذين قدموا في القرن الثامن الميلادي ليستقرُّوا في جبال يين شان Yin Chan، و الذين أعطوا هذا الاسم لجميع المغول، فقد أعطوهم اسم تاتا Tata، و سمُّوا قبيلة التتار بلفظ آخر.

و لا يختلف مؤرّخو المسلمين عن الصينيّين في ذالك، حيث اعتادوا على تسمية مغول جنكيزخان بالتتار، و شهادة أبو الفدا واضحة في هذا الشأن حينما يتحدّث عن قراقورم Karakorum ou Kara-Koum، أوّل عاصمة لخلفاء جنكيزخان : "معناه الرمل الأسود بالتركيّة، قال بن سعيد: و قراقورم كانت قاعدة التتر و في جهاتها بلاد المغل و في خالصة التتر و منها خاناتهم. " و هكذا فإنّ هذا المقطع يبرهن على أنّ اسم مغول جنكيزخان كان : التتار. أنظر:

Klaproth, **Rapport sur les ouvrages du Professeur Hyacinthe Bitchonrinski, Relatifs à l'Histoire des Mongols**, dans J.A., Paris, juillet 1830, pp. 30-32.

(4) رنسيمان: المرجع نفسه، ص 513.

(5) أنظر : Guiragos de Kantzag, op.cit., octobre 1833, T. XII, p. 279 .

5- أن يُصدر الخان أمره لمغول تركيا لتدمير بغداد، و قتل الخليفة العبّاسي حامي العقيدة الخاطئة التي جاء بها محمّد"،

6- أن يأمر المغول القريبين من أرمينيا، بعون الملك هيثوم متى طلب منهم ذلك،

7- أن تُردّ كلّ الأراضي الأرمينيّة التي انتزعها المغول من المسلمين، إلى الملك هيثوم الأوّل، وأن يترك المغول للملك هيثوم إدارة الأراضي التي يُمكنه انتزاعها من المسلمين(1).

و بعد ما سمع منكوخان طلبات الملك هيثوم،جمع بلاطه واستدعى ملك أرمينيا،و أمام حاشيته و أمرائه كان جوابه :

" بما أنّ ملك أرمينيا جاء إلينا بمحض إرادته من تلك الأرض البعيدة حتى مملكتنا فإنه أجدر بنا أن نحقّق كلّ رغباته"(2).

كانت جهود هيثوم الأوّل خلال المدّة التي قضاها في قراقورم منصرفة كليّة إلى إقناع الخان للقيام بحملة مشتركة ضدّ المسلمين، و ألحّ في طلبه حتى وافق الخان على الفكرة، فكلّف أخاه هولاكوخان(1256-1265م) بن تولي بن جنكيزخان بغزو بغداد(*)، كما أنّه تعهّد بإعادة بيت

(1) أنظر : Hayton, op.cit.(traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), pp. 835-836 ; Idem, op.cit.(dans R.H.C.), T. II, chapitre XVI, pp. 164-165.

(2) أنظر : Dardel(Jean), **Chronique D'Arménie**, dans R. H. C., D. A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. II, Chapitre XIV, pp. 11-12 ; Vahram D'Edesse, op.cit., p.519 ; Hayton, op.cit. (traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), p. 836 ; Idem, op.cit. (dans R.H.C.), T. II, chapitre XVII, pp. 165-166.

و يبدو أن منكوخان قد بدأ يتعلم طرق السياسة، و بدأ يتعلم الاعتماد على المظاهر و الكلمات المنمقة المختارة، فقد أقام منكوخان احتفالا كبيرا، واستقبالا رسميا مُهيبا لهيثوم الذي قدم نفسه على أنه من رعايا منكوخان، و عامله كملك لا كتابع، و إن كانت كل بنود الاتفاق بينهما لا تصلح إلا بين سيد و تابع، لا ملك و ملك. ثم بدأ منكوخان يُعطي وعودا كبيرة و هدايا عظيمة إلى هذا الملك، و هو يشتري بذلك ولاءه و تبعيته، و ذلك كله لا لشيء إلا لخططاستراتيجية تتمثل في:

-استفادة منكوخان من ملك أرمينيا في حرب المسلمين، و قد خبُر الأرمن بلاد الإسلام و طباعهم، و بذلك تكون المعلومات التي يحملها الأرمن إلى المغول سيكون لها أبلغ الأثر في حرب المسلمين، و هو تماما ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية القوية المتحالفة مع إنجليترا الضعيفة، فقط لأن عندها الخبرة في أرض المسلمين، و في أرض العراق بالتحديد.

-سيكون للاتحاد المغولي بالأرمن عاملا نفسيا خطيرا على المسلمين، لأن كلمة التحالف لها وقعخاص في نفوس الناس، وذلك ما فعلته أمريكا تماما بتحالفها مع أوربا في حرب العراق.

-قد تُسند أخطر المهام للقوات الأرمينية في مواجهة المسلمين، و بذلك تكون الخسائر في جانب الأرمن وليس في جانب المغول.

و هكذا تكون المفاوضات بين الطرفين مُربحة تماما للمغول، وأنها بين سيد يملك كل شيء و تابع لا يملك إلا لقب باهر مثل "كبير مستشاري ملك المغول لشؤون غرب آسيا" أو "الملك الصديق" أو غيرها، و فرصة العيش إلى جوار المغول في ذل و هوان.

و انظر ردّ منكوخان على طلبات هيثوم الأوّل، الترجمة الفرنسيّة في المُلحق. أمّا عن أنباء تعميد منكوخان، وانتشارها في أرمينيا و بلاد المشرق، فتبقى مجرّد إشاعات دون أساس.

(*) الحقيقة أنّ قرار الهجوم على بغداد و تكليف هولاكو بالمهمّة كان في حسابات المغول و اتُّخذ قبل قدوم الملك هيثوم بأمد، و قد تطرّق الباحث إلى ذلك في مُستهلّ حديثه عن سفارة روبروك.

المقدس إلى المسيحيّين إذا ما تعاونوا فعلاً مع المغول تعاونًا كاملاً(1)، ثمّ رجع هيثوم إلى بلاده مبتهجًا(2).

و هكذا عاد ملك أرمينيا "هيثوم الأول" مُنتشيا بمهارته، فخورا بعلاقته مع خان المغول، مُعظَما في شعبه، لأنه استطاع بسياسته التي يُسمونها حكيمة أن يُجنب مملكته و شعبه ويلات الحروب، فقد غادر هيثوم الأوّل قراقورم في يوم 01 نوفمبر 1254م، ثم وصل قيليقيا في جويليا 1255م (3).

و كان من رغبات منكوخان أيضا أن يعقد تحالفات مع أُمراء الممالك الصليبية في الشام، مثل مملكة أنطاكيا و طرابلس و عكا، و ذلك لشغل المسلمين في منطقة الشام فلا يُدافعون عن الخلافة العباسية إذا هوجمت. و لتشجيع هؤلاء الأمراء فقد أوصل لهم خان المغول طلب التحالف مع صديقه الجديد ملك أرمينيا الصغرى، و الذي بدأ يقوم بدور السفير المغولي في هذه المنطقة، فمكث في أرمينيا الكبرى عند عودته، مُدة طويلة، استقبل فيها العديد من الأمراء المحليّين والأساقفة و رؤساء الأديرة، و حاول ضمّهم إلى فكرة التحالف مع المغول، و لزيادة التشجيع، فإن ملك المغول وعد الأُمراء الصليبيين في الشام بأن يُعطيهم بيت المقدس هدية لهم في حال اتفاقهم معه(*)، لكن هيثوم لم يُفلح إلاّ مع أمير أنطاكية، بوهيموند السادس Bohemond VI (1251-1268م) (4).

و على هذا فإنّ الملك هيثوم الأوّل هو أوّل ملك يصل إلى بلاط المغول في قراقورم من تلقاء نفسه، و كان بهذا التصرُّف يبتغي التحالف معهم للسيطرة على الأراضي المقدّسة و انتزاعها من المسلمين.

---

(1) رنسيمان: المرجع نفسه، ج3، ص 513.

(2) كان ابتهاج هيثوم الأوّل طبيعيًا لما أحرزه في بلاد الخان من وعود، ولكن للمغول سياستهم تجاه المغلوبين، فإنّهم و إن جعلوا للمسيحيّة المنزلة الأولى أمام سائر الديانات الأخرى، فبالمقابل لم يقصدوا استمرار الإمارات المسيحيّة المستقلّة، و إنّما انطواء تحت الإمبراطوريّة المغوليّة.

(3) أنظر : Saint-Martin (J.), op. cit. , T. I, p. 396 ; Grousset (R.), op. cit., p.529.

(4) أنظر : Setton, op.cit.,T. III, pp. 652-653.

أما لمذا لم يستحسن بقية الأمراء الصليبيين في الشام هذه الفكرة، فيرى الباحث أنهم يعلمون أن المغول لا عهد لهم، و قد يبيعونهم دون ثمن، أو يُضحون بهم في مقابل أي ثمن، أو ربما دون مقابل، و لأن صليبيي الشام في قلب العالم الإسلامي، و خطورة المسلمين عليهم كخطورة المغول، بل لعلها خطورة أقرب، و من ثم لم يتحمس هؤلاء للتحالف المعلن مع المغول، و إن كانوا لم يرفضوا الأمر صراحة، و اختاروا أن يبقوا على الحياد بصورة مؤقتة إلى أن ترجح إحدى الكفتين، المغولية أو الإسلامية.

(*) كان بيت المقدس قد حُرر مرة ثانية على يد الملك الصالح أيوب سنة 643هـ/1247 بعد أن أهداه أُمراء الشام الأيوبيون إلى الصليبيين سنة 626هـ/1229م. و هكذا وعد مَنْ لا يملك بإعطاء مَنْ لا يستحق.

و قد قام هيثوم بزيارات متعدّدة إلى بلاط المغول، و قدّم مساعداته العسكريّة لهم في آسيا الصغرى و بلاد الشام، و استرجع من خلالها بعض القلاع التي كانت سلاجقة الروم قد استولوا عليها، و هي القلاع التي كانت تابعة للأمير الأرميني كوخ فاسيل Kogh Vasil(1)، كما تغلّب هيثوم على سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى قلج أرسلان(657-666هـ/1258-1267م)، وعلى التُركمان الذين استقرّوا على حدود قيليقيا عام(658هـ/1259م) و قَتل قائدهم قرمان Karaman.

و خلاصة الحديث أنّ سفارة هيثوم إلى المغول أحدثت تغييرًا إيجابيًا لصالح المسيحيّين والصليبيّين معًا من خلال هذا التحالف، لم تحرزها أيّ بعثة بابويّة أو صليبيّة أُخرى(2). هذا التحالف سوف يستمرُّ لمدّة ثلاثة أرباع القرن، أمّا وعد منكوخان في شأن العراق و الخليفة العبّاسي فقد بدأ تحقيقه بعد سنة على إثر حملة هولاكو على آسيا التي نتج عنها تدمير بغداد سنة(657هـ/1258م)، ثُمّ الهجوم على حلب و دمشق، و الوصول إلى أبوب مصر في عام(659هـ/1260)(3)، و حينما غزا هولاكو بلاد الشام، جاءه بطريق أرمينيا ليُباركه، فعبّر له هولاكو عن تقديره له، و قد شارك هيثوم الأوّل في هذه الحملات و كان له الدور العظيم في حماية المسيحيّين(4).

و من جانب آخر نستخلص من هذه المرحلة، أنّ كلاًّ من الطرفين، المغولي و الصليبي، كان حريصًا على استغلال الآخر لمصلحته الشخصيّة، و ما سفارة المغول إلاّ استعدادٌ دبلوماسيٌ أرادوا من خلاله استكمال استعدادهم الحربي لتوسيع رقعة أملاكهم على حساب بغداد عاصمة الخلافة العبّاسيّة، الشيء الذي أكّد اجتياحهم لها، ثُمّ الزحف على باقي العالم الإسلامي. و في المقابل كانت أوربّا بباباواتها و ملوكها و كذا القوى الصليبيّة الأخرى تهدف إلى جعل المغول قوّة المسيحيّة بالشرق لتطويق المسلمين من الشرق و الغرب خدمة للمشروع الصليبي.

(1) أنظر : Setton, op. cit., p. 653 ; Runciman, op. cit., pp. 195-197.

(2) يؤكّد المؤرّخ هايتون Hayton في مُؤلّفه "La Flor des Estoires de la terre d'Orient" (أنظر الملحق)، أنّ الخان منكو Mongka كان جدُّ متعاطفًا تجاه الكاثوليك (ربّما يرجع ذلك السلوك إلى أنّ جزءًا لا بأس به من ذويه و حاشيته كان نسطوريًا)، و أنّه منح امتيازات لرجال الدين و كنائسهم و أنّه جعل أرمينيا و شعبها تحت حمايته، كما كلّف أخاه هولاكو بتدمير بغداد و خليفتها(ألدّ أعدائه)، و وعد بإرجاع الأرض المقدّسة إلى المسيحيّين. أنظر:
Hayton, op.cit.(traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), p. 836-837, et dans R.H.C., D.A., T. II, chapitre (XVII-XVIII), pp.165-168 ; Grousset(R), op. cit., pp . 527-528.

(3) أنظر : Grousset (R), op. cit., p. 529.

(4) أنظر : Vartan, op.cit., p.293 ; Saint-Martin (J.), op.cit., T. I, p.396.

الفصل الثالث

علاقة المغول بالمسلمين

حتى معركة عين جالوت

I- تطوُّر العلاقات بين الدولة الخوارزميّة و المغول
1- اتصال الخليفة العبّاسي (الناصر) بجنكيزخان لغزو الدولة الخوارزمية
2- اتصال الإسماعيليّة بجنكيزخان لغزو الدولة الخوارزم
3- موقع الخوارزميّة من الصراع المغولي القراخطائي
4- علاقة الخوارزميّة بالمغول في عهد جنكيزخان و ابنه أوكتاي خان
- أوّل صدام الخوارزميّة بالمغول
- وفادة خوارزم شاه إلى الصين
- وفادة جنكيزخان إلى خوارزم شاه
- التجار الخوارزميّة عند جنكيزخان
- "فاجعة" التجار المغول في مدينة أترار ببلاد الخوارزميّة
- سفارة جنكيزخان إلى خوارزم شاه بعد الفاجعة
- قضاء المغول على دولة خوارزم شاه

II- الاتصالات بين المغول و أهل المشرق الإسلامي بعد سقوط الدولة الخوارزمية
1- المغول و الخلافة العبّاسيّة في بغداد
- الأوضاع الداخليّة لمدينة بغداد حين قدوم المغول إليها
- سقوط بغداد و خضوع الحكام المسلمين لهولاكو
2- المغول و بلاد الشام
- حملة هولاكو على الشام
- علاقة ملوك و أمراء الشام بهولاكو
3- المغول و بلاد مصر في العصر المملوكي
- اضطراب حال المغول بالشام
- مماليك مصر و المغول
- مماليك مصر و فرنجة عكّا
- معركة عين جالوت

I- تطوّر العلاقات بين الدولة الخوارزميّة و المغول:

1- إتصال الخليفة العبَّاسي (الناصر) بجنكيزخان لغزو الدولة الخوارزمية :

كان علاء الدين محمَّد خوارزم شاه سلطان الدولة الخوارزميَّة أحد أقوى سلاطين زمانه، و كانت دولته تُعدُّ من أعظم الدول في الشرق الإسلامي، تظمُّ معظم بلدان الإسلام في قارَّة آسيا من غرب الصين شرقًا إلى أجزاء كبيرة من إيران غربًا، و كان على خلاف كبير مع الدولة العبَّاسيَّة، و حاول محمّد خوارزم شاه مرارًا غزو العراق و لكن دون جدوى.

و أمام جشع علاء الدين محمَّد خوارزم شاه لجأ الخليفة العبَّاسي الناصر إلى جنكيزخان. وقد أشار ابن الأثير إلى هذه الحقيقة فقال: " و كان سببَ ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنّه هو الذي أطمع التتر قي البلاد، و راسلهم في ذلك، فهو الطامَّة الكبرى التي يصغر عندها كلُّ ذنب عظيم "(1). أمّا المقريزي فيقول : " و في خلافته (أي الناصر) خرَّب التتر بلاد المشرق، حتى وصلوا إلى همذان، و كان هو السبب في ذلك، فإنّه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد خوفًا من السلطان علاء الدين محمّد خوارزم شاه، لمّا همَّ بالاستيلاء على بغداد و أن يجعلها دار مُلكه كما كانت السلجوقيّة "(2).

2- اتصال الإسماعيليَّة بجنكيزخان لغزو الدولة الخوارزمية :

تعتبر الطائفة الإسماعيليّة في منطقة الشرق الإسلامي من غُلات الشيعة. و قاموا بتشييد القلاع و الحصون و اغتيال الشخصيّات الإسلاميّة و قلب الأنظمة. لذلك لم يتوان الخوارزميّون عن محاربة الإسماعيليّة، و العمل على الحدّ من نشاطهم، و كان أفراد هذه الطائفة يغيرون على أملاك الدولة الخوارزميّة من وقت لآخر، و يُسبّبون لحكّمها المتاعب. و عندما أحسُّوا بقوّة الخوارزميّين، بدَؤُا يتّصلون بالمغول، يُحرّضونهم على خصومهم. فقد راسل جلال الدين حسن زعيم الإسماعيليّة، جنكيزخان، بقصد التقرُّب إليه و حثّه على مناهضة الدولة الخوارزميَّة(3).

3- موقع الخوارزميّة من الصراع المغولي القراخطائي :

كان للقراخطائيّين عداوة و حروب قديمة مع المدن الإسلاميّة، و من بينها مدينة سمرقند،

---

(1) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، طبعة المطبعة الدمشقيَّة و المكتبة التجاريَّة، القاهرة(1348-1358ه)، ج9، ص361 ؛ أبي الغازي بهادر خان: **شجره ترك** (تاريخ الشعوب في آسيا الوسطى)، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة و الإسلاميّة في إطار جامعة فرانكفورت، يُصدرها فؤاد سزكين، ترجمه إلى الفرنسيّة البارون ديسميزونس Baron Desmaisons مطبعة شتراوس، هيرشبرج، ألمانيا الإتّحاديّة، (1415ه/1994م)، رقم 226، ص103-104.
و انظر أيضًا : D’ohsson, op. cit., T. I., pp. 152-153 note 1.

(2) المقريزي : السلوك، ج1، ق1، ص218 .

(3) ابن خلدون: المصدر نفسه، ج 5، ص 141.

فاضطرّ أميرها عثمان خان إلى مراسلة علاء الدين محمّد خوارزم شاه في ذلك قائلا: "إنَّ الله عزَّ و جلّ قد أوجب عليك بما أعطاك من سعة المال و كثرة الجند أن تستنقذ المسلمين و بلادهم من أيدي الكفار، و تُخلّصهم ممّا يجري عليهم من التحكم في الأموال و الأبشار، و نحن نتفق معكم على محاربة الخطا، و نحملُ إليك ما نحمله إليهم، و نذكر اسمك في الخطبة و السكّة "(1).

و الحقيقة أنّ ملوك القراخطائيّين كانوا يُمثّلون سدًا منيعًا بين المسلمين و غيرهم من الأعداء، و من بينهم المغول، و قد كان القضاء عليهم بمثابة الخطأ الذي ارتكبه السلطان خوارزم شاه، بينما كان أسلافه يتحاشون الدخول معهم في الحرب، فلمّا أغار المغول، لم يجدوا صعوبة في غزو البلاد و إفناء العباد(2).

كان كوجلك، خان الخطا، عدوًا خطيرًا لجنكيزخان الذي توجّه نحو الغرب فأخضع خصمه و حلّ محلّه، و أضحى بذلك يجاور بلاد الإسلام و يهدّدُ غرب آسيا، و في مقدّمتها الدولة الخوارزميّة.

4- علاقة الخوارزميّة بالمغول في عهد جنكيزخان و ابنه أوكتاي خان:

كان أوّل خروج المغول من بلادهم إلى نواحي الترك و فَرْغَانَة قد تمّ سنة 1209م، و أرسل خوارزم شاه محمّد بن تكش صاحب خراسان الذي أباد الملوك و أخذ الممالك، و عزم على قصد الخليفة، فلم يتهيّأ له ذلك، فأمر أهل فرغانة و الشاش و كاسان و غيرها من بلاد آسيا الوسطى بالجلاء إلى سمرقند، ثمّ قام خوارزم شاه بتخريبها خشية وقوعها في يد المغول(3).

و أراد جنكيزخان أوّل الأمر أن يكون على علاقة طيّبة بالسلطان محمّد خوارزم شاه، و لكن تطوّر الأحداث من سيّئ إلى أسوأ، جعلته يترك المهادنة، و يسيرُ بجيوشه الجرّارة إلى البلاد الإسلاميّة، فكانت الكارثة في ظلّ الانقسامات و الخلافات التي دبّت في صفوف الحكّام المسيطرين على العالم الإسلامي .

- أوّل صدام الخوارزميّة بالمغول :

علم السلطان علاء الدين خوارزم شاه بتعقُّب جيوش جوجي بن جنكيزخان لقبيلة المركيت المغوليّة، الفارّة من منغوليا بزعامة "توق طغان" خوفاً من جنكيزخان و نزلوا بوادي القرغيز في نواحي القفجاق، فجمع قوّاته ليقضي على العدوّين، إلاّ أنّ المغول كانوا قد قضوا على الفارّين، فلم

(1) ابن الأثير : المصدر نفسه، ص291 .

(2) النظامي العروضي السمرقندي : **جهار مقالة(المقالات الأربعة)**، نقله إلى العربيّة عبد الوهّاب عزّام و يحي الخشّاب، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، الطبعة الأولى، القاهرة(1368هـ/1949م)، ص 107 .

(3) السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص468.

يبق أمام خوارزم شاه إلاّ قتال أولائك المغول، فاحتدم القتال، و لولا شجاعة القائد جلال الدين منكبرتي، أكبر أبناء خوارزم شاه، لرجحت الكفة للمغول(1). ثمّ انسحب المغول في جنح الظلام دون أن يشعر بهم المسلمون. كان هذا الصدام أوّل لقاء للطرفين، اطلع فيه السلطان محمّد خوارزم شاه على قدرات المغول الحربيّة التي جعلته يخشى بأسهم(2). يقول النسوي : " و تمكّن في قلب السلطان من الرعب و الإعتقاد ببسالتهم ما إذا ذُكروا في مجلسه يقول : لم ير كرجالهم إقدامًا وثباتًا على مضض الحرب، و خبرة بقوانين الطعن و الضرب"(3).

و رغم خطورة ذلك الاشتباك، إلاّ أنّ جنكيزخان أبطن العداء و أظهر المسالمة، و حرص على إقامة معاهدة تجاريّة و تبادل السفراء، رُغم أنّ الخليفة العبّاسي لم يتوانى في تأليب جنكيزخان على الدولة الخوارزميّة.

- وفادة خوارزم شاه إلى الصين:

تمكّن الخوف من خوارزم شاه لمّا وصله خبر فتوحات المغول في الصين و استيلائهم سنة 1215م على العاصمة بكين، فأرسل سفارة إلى الصين للتأكد من ذلك، و كان على رأسها السيّد الأجل بهاء الدين الرازي. و قد اجتاز هؤلاء السفراء تركستان الشرقيّة، و وصلوا إلى أطراف بكين و شاهدوا مظاهر الخراب و النهب و المذابح الرهيبة، التي ارتكبها المغول في كل مكان توجّهوا إليه بالصين(4).

- وفادة جنكيزخان على خوارزم شاه :

استقبل جنكيزخان السيّد الأجل و من معه في معسكره بحفاوة، ثمّ حمّلهم رسالة إلى السلطان علاء الدين خوارزم شاه مفادها أنّه كما يَعتبر جنكيزخان نفسه ملك الشرق، فإنّ خوارزم شاه يُعدُّ أيضًا ملك الغرب، و أنّ جنكيزخان يرجو أن يسود الطرفين الصلح و الوفاق، و أن تستمرّ قوافل

---

(1) الجويني : **تاريخ جهانكشاي**، نشر و تصحيح العلامة محمّد بن عبد الوهّاب القزويني، ليدن (1355هـ/1937م)، ج1،ص52-ج2، ص103، نقلاً عن عبد المعطي الصيّاد: المغول في التاريخ، ص 95-96 . و انظر أيضًا :
D'ohsson, op. cit., T.I., pp. 150-152 ; Barthold(W), **Histoire des turcs d'Asie central**, Adaptation Française par Mme M. Douskis, Librairie d'Amerique et d'orient(Adrien-Maisonneuve), Paris 6⁰, 1945, p. 123.
إلاّ أنّ أبي الغازي بهادر خان، يدرج هذا الصدام في تاريخ مُتأخّر، أي بعد مذبحة أترار(المقبل ذكرها). أنظر: شجره ترك (تاريخ الشعوب في آسيا الوسطى)، ص106-107.

(2) أنظر : Barthold(W), **Turkestan down to the Mongol invasion**, London 1928, p. 372 ; Barthold(W), Histoire., p. 123 ; D'ohsson, op.cit., p. 152.

(3) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص48 .

(4) المقريزي : المصدر نفسه، ج1، ق2، ص427، حاشية 2 ؛ النسوي : المصدر نفسه، ص 55 ؛ الهمذاني : المصدر نفسه، ج1، ص 92. و انظر أيضًا:
Roux(Jean-Paul), op.cit., p.179 ; Barthold(W), op. cit., p. 123.

التجّار تروح و تجيء بين ممالك خوارزم شاه و جنكيزخان، في حريّة و أمان .

و الواقع أنّ جنكيزخان كان يهدف من خلال التجارة التمهيد لفتح أقاليم الدولة الخوارزميّة ببثّ الجواسيس، فأوْفد ثلاثة من تجّار المسلمين هم : محمود الخوارزمي(*)، و علي خواجه البخاري، و يوسف كنكا الأتراري، و حمّلهم هدايا ثمينة. و في ربيع سنة (615هـ/1218م) وصل هؤلاء التجار إلى بلاط السلطان الخوارزمي في مدينة بخارى بعد عودته منخذلاً من العراق على أثر فشل حملته على الخلافة العبّاسيّة.

سلّم هؤلاء الرسل الرسالة، و جاء فيها :"ليس يخفى عليّ عظيم شأنك، و ما بلغتَ من سلطانك، و قد علمتُ بسطة مُلكِكَ، و إنفاذ حُكمكَ في أكثر أقاليم الأرض، و أنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، و أنت عندي مثل أعزّ أولادي، و غير خاف عليكَ أيضًا أني ملكت الصّين و ما يليها من بلاد الترك، و قد أذعنت لي قبائلهم، و أنت أخبر الناس بأنّ بلادي مثارات العساكر ومعادن الفضّة، و أنّ فيها لغنيّة من طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردّد، عمّت المنافع و شملت الفوائد"(1).

و عندما اطلع السلطان على فحوَ الرسالة، اشتدّ غضبه لأنّها تحمل في طيّاتها طابع التهديد، إذ أنّ جنكيزخان تعمّد إهانته حين اعتبره في منزلة الابن التابع لخان المغول(2)، و على هذا

(1) النسوي: المصدر نفسه، ص 83-84 ؛ ابن خلدون: **المقدّمة**، مؤسّسة الأعلمى للمطبوعات، بيروت-لبنان-(1391هـ/1971م)، ج5، ص 518. و انظر أيضًا :

D'ohsson, op.cit., T.I., p. 145 **;** Cahun(Leon), op.cit., p. 264. Et note 1 **;** Roux(Jean-Paul), op.cit., p. 179.

أمّا لفظ الرسالة عند أبي الغازي بهادر خان فهو: "إنّ الله العليّ منحني مُلكَ كلّ البُلدان، من حيث تطلع الشمس حتّى بلادك. و يجب أن تعتبر نفسك كإبنًا لي، و أن تسلُك طريق الحكمة، لينعم المسلمون بالأمان الكامل". أنظر:
أبي الغازي بهادر خان: المصدر نفسه، ص 103.

(2) D'Ohsson (Le Baron), Loc.cit.

كان هذا الصنيع سمة من سمات التعبير اللغوي في ذلك العصر، و هو يُعبّر عن صلة الحاكم بالمحكوم.
كذلك حرص جنكيزخان على لفت نظر السلطان إلى ما حدث للعناصر التركيّة، و أخضعها لمشيئته، خاصّة و أنّ خوارزم شاه من هذا العنصر. و الواقع أنّ هذه الرسالة كانت أوّل صدمة حقيقيّة صدمت سياسة السلطان علاء الدين محمّد خوارزم شاه، الخارجيّة، فبعد أن كان مسموع الكلمة، غير مطموع فيه، أصبح بين عشيّة و ضحاها عرضة لتهديد المغول. أنظر:
حافظ حمدي، الدولة الخوارزميّة و المغول، القاهرة 1949م، ص 68.

(*) من المحتمل أن يكون هو نفس "محمود يلوج" أي السفير محمود الذي كان واليًا على بكين في العهد المغولي، و الذي كان ابنه مسعود بك يحكم البلاد المتحضرة بآسيا الوسطى، ثمّ وضعت "توراكينة خاتون" زوجة الخان "أوكتاي" مكانه مسلمًا آخر إسمه "عبد الرحمان" . أنظر:
أبي الغازي بهادر خان: المصدر نفسه، ص102-103 ؛ بارتولد: **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة 1958م، ص 145. و انظر أيضًا:

Barthold(W), Loc. cit **;** D'ohsson, op.cit., T.II., pp. 451-452.

استُدعي محمود الخوارزمي ليلاً لمُقابلة السلطان، بصفته أحد رعاياه(1)، فمنّاه و منحه جوهرة نفيسة كانت في أُصبعه(*) و طلب إليه أن يكون جاسوسه على جنكيزخان، فوافق خوفًا من السلطان و نقمته. ثُمّ قال له السلطان: "أصدقني فيما يقول جنكيزخان أنّه ملك الصين، و استولى على مدينة طمغاج، أصادق فيما يقول، أم كاذب ؟... فقال: بل صادق، و مثل هذا الأمر المعظّم ليس يخفى حاله، و عن قريب يتحقّق السلطان ذلك، فقال: أنت تعرف ممالكي و بسطتها، و عساكري وكثرتها، فمن هذا اللعين حتى يُخاطبني بالولد؟... ما مقدار ما معه من العساكر؟..." فلمّا شاهد محمود الخوارزمي آثار الغيظ، خاف على نفسه، فقال:"ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم، والجيش العرمرم إلاّ كفارس في خيل، أو دخان في جنح ليل"(2)، و لمّا ارتاح السلطان لما سمع قبل إبرام معاهدة صداقة و تجارة مع جنكيزخان، و أعاد الرسل إلى بلاط الخان المغولي يحملون الردّ بقبول الاتفاق(3).

---

(2) بارتولد: المرجع نفسه، ص 159 ؛ ابن خلدون: المصدر نفسه، ج5، ص 518.
و انظر أيضًا : D'ohsson, Loc. Cit.

(3) النسوي: المصدر نفسه، ص 84-85 ؛ ابن خلدون، المصدر نفسه، ج5، ص 518 ؛ أبي الغازي بهادر خان: المصدر نفسه، ص103.
إلاّ أنّ لفظ أبي الغازي هو: "إنّ جنود جنكيزخان بالنسبة لجنودك كنور القمر مُقابل ضوء الشمس". و انظر أيضًا :
D'ohsson, op.cit., p. 155.

(1) أبي الغازي بهادر خان: المصدر نفسه، ص103.
و يقول بارتولد:" إنّه من المشكوك فيه كثيرًا أن يكون جنكيزخان قد دبّر ذلك – كما يقال- لإسخاط خوارزم شاه، بحيث يجعل الحرب بينهما أمرًا لا مفرّ منه، ومهما يكن من أمر فإنّ القطيعة بين هذين الحاكمين لم تكن بسبب هذا الحادث، و يُقال إنّ محمّد خوارزم شاه كظم غيظه خلال مقابلته للوفد الذي أرسله الخان، و لم يبح بذلك إلاّ في الليلة التالية لرسول من الرسل. و قد تلقّى منه تفسيرًا مرضيًا لهذا الأمر. ثمّ صرف الرسل بعد أن ردّعليهم ردًا حسنًا". أنظر:
دائرة المعارف الإسلاميّة، مادّة جنكيزخان، المجلّد السابع، العدد الرابع، ص 135-136.
و ربّما كان الدافع الذي حمل السلطان، على إبرام هذه المعاهدة، هو ما وصل إليه من أخبار عن قوّة جنكيزخان الذي كان قد بلغ نفوذه الحدّ الأقصى في ذلك الوقت، خصوصًا بعد أن تغلّب على كوجلك خان، و قضى على البقيّة الباقية من قبيلة النايمان، كما أنّ للقائه السابق بجيش المغول ترك في نفسه، إذ يقول النسوي:" و تمكّن في قلب السلطان من الرعب و الإعتقاد ببسالتهم(أي المغول) ما إذا ذكروا في مجلسه يقول: لم يُر كرجالهم إقدامًا و ثباتًا على مضض الحرب، و خبرة بقوانين الطعن و الضرب". أنظر: سيرة جلال الدين منكبرتي: المصدر نفسه، ص48.
و كان للقضاء على كوجلك خان، و منح الحريّة الدينيّة للمسلمين من جانب أتباع جنكيز خان، رنّة فرح و سرور بين مسلمي كاشغر و ختن لدرجة أنّهم كانوا يعدُّن المغول رحمة إلهيّة لإنقاذهم من شرور هذا الطاغية. أنظر:
الجويني: المصدر نفسه، ج1، ص50، نقلاً عن الصيّاد، المغول في التاريخ، ص 101.
فكان هذا الموقف أيضًا شديد الوطأة على السلطان محمّد الذي كان يدّعي أنّه حامي المسلمين، و الذي أخذ على عاتقه أن يقوم بدور المحرّر لهم. لهذا لم يرى السلطان بُدًا من الإذعان لمشيئة جنكيزخان، فأبرم معه هذه الإتفاقيّة التجاريّة.
أنظر : D'ohsson, op.cit., p. 146.
و يقول أبي الغازي بهادر خان، أنّ جنكيزخان صُرّ بتلك المعاهدة و قرّر أن لا يُبادر السلطان بما يُخلُّها ما لم يصدر منه عملاً عدائي، و لم يلتفت إلى إغراءات الخليفة الناصر له للهجوم على خوارزم شاه. أنظر: شجره ترك، ص 103-104.

(*) يذكر أبي الغازي بهادر خان، أنّ هذه الجوهرة كانت في أصبع يد السلطان، نزعها في حضرة محمود الخوارزمي و أعطاه إيّاها. أنظر: شجره ترك، ص 103.

- التُجّار الخوارزميّة عند جنكيزخان:

و في ظلّ هذه الحالة من الهدوء و الأمان، قام ثلاثة من التجّار الخوارزميّة من سكّان بخارى برحلة إلى ممالك المغول، محمّلين ببعض البضائع من الثياب الحريريّة الموشاة بالذهب و"الكرابس"(*)، فقادهم حرّاس الطرق إلى بلاط جنكيزخان، خصوصًا عندما تأكّدوا أنّ ثالثهم يحمل ثيابًا فاخرة. فلمّا مثل التجار أمام جنكيزخان و أعجبته بضاعتهم، ابتاعها منهم بالذهب و الفضة، ثمّ أعزّ أولائك التجار الثلاثة و أكرمهم(1).

ثم إنه لم يمضي على توقيع المعاهدة التجارية إلاّ وقة يسيرا حتى قام جنكيزخان بعمل اعتبره السلطان محمد خوارزم شاه عملا عدوانيا و تعديا لبنود ذلك الاتفاق، و ذلك أن جنكيزخان وجه ضربة إلى القبائل التركية المنتشرة في أواسط آسيا و أخضعها بحجة تأمين الطريق التجاري، و جعل على مسالك التجارة حراسا، مكلفين بمرافقة التجار الأجانب إلى معسكرات المغول(2).

- فاجعة التجّار المغول في مدينة أترار ببلاد الخوارزميّة:

و عندما عزم التجّار الخوارزميّة على الرحيل، أمر الخان بقافلة تجاريّة من قبله، بلغ عدد أفرادها خمسين و أربع مائة رجلا، كلهم من المسلمين، و خمسمائة من الإبل(**)، إلى ممالك السلطان. و كلّف جنكيزخان أحد هؤلاء التجّار بحمل رسالة خاصّة إلى السلطان جاء فيها:" إنّ التجار وصلوا إلينا، و قد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين، و قد سيّرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكّد الوفاق بين الجانبين،

---

(1) ابن العبري: المصدر نفسه، ص 229-230 ؛ أبو الغازي: المصدر نفسه، ص104-105.
و انظر أيضًا: D'ohsson, op.cit., pp. 147-148.

(2) الجويني: المصدر نفسه،ج1، ص60، نقلاً عن الصيّاد، المغول في التاريخ، ص102 ؛ ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول**، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت 1958م، ص229 ؛ النسوي: المصدر نفسه، ص 85.
و انظر أيضًا : D'ohsson, Loc. Cit.
و يذكر أبو الغازي بهادر خان، أنّه عمّ المناطق الممتدّة من إيران إلى بلاد المغول في تلك الآونة أمان عام، بحيث أنّه لو خرج رجلاً حاملاً طبقًا من ذهب على رأسه واصلاً الشرق بالغرب، ما تعرّض له أحدًا بسوء. أنظر : شجره ترك، ص104.

(*) الكرابس، لفظ فارسي معرّب، و معناه الثوب الخشن، و هو من القطن الأبيض. أنظر:
ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر، الطبعة الخامسة، بيروت – لبنان- (1412ﻫ/1992م)، المجلّد 6، ص 195 ؛
محي الدين الزبيدي: **تاج العروس من جواهر القاموس**، دراسة و تحقيق علي شيْري، دار الفكر، بيروت – لبنان- (1414ﻫ/1994م)، م8، ص441.
و ذهب الباز العريني إلى أنّ التجار الثلاثة(أحمد خوجندي، و أحمد بلخس، و ابن أمير حسين(حسن))، قدموا مع سفارة السيّد الأجل(بهاء الدين الرازي) سنة(615ﻫ/1218م). أنظر : المغول، ص 117.

(**) اختلفت الروايات عن عدد الوفد، فبينما يميل كلّ من الجويني و أبو الغازي و D'Ohsson إلى هذا العدد، يذهب ابن العبري إلى أنّهم مائة و خمسين باختلاف أديانهم، أمّا بارتولد، فذهب إلى خمسمائة فرد. أنظر:
تاريخ جهنكشاي، ص 98 ؛ شجره ترك، ص105 ؛ تاريخ مختصر الدول، ص230.
و انظر أيضًا : D'Ohsson, op.cit., T. I, p. 147.

و تنحسم مواد النفاق من ذات البين"(1).

سارت القافلة متّجهة نحو ممالك السلطان حتى وصلت إلى مدينة "أُترار"(*) على الساحل الغربي لنهر سيحون، و هي ملتقى طرق التجارة بين شرق آسيا و غربها، فضلاً عن أنّها تعتبر مفتاحًا لإقليم ما وراء النّهر. و كان يحكم المدينة في ذلك الوقت رجل يُدعى"ينال خان"(**)، و كان شخصًا مغرورًا معتمدًا على قرابته من والدة السلطان و نفوذها الذي لا حدّ له(2)، فلمّا اطلع ينال خان على ما كان يحمله التجار المغول من نفائس، طمع في أموالهم، و كاتب السلطان يُخبره أنّ جواسيسا في زيّ التجّار قدموا لجمع الأخبار عن الخوارزميّين تمهيدًا لمهاجمتهم، فأمره السلطان بمراقبتهم حتّى يرى فيهم رأيه، و لكن ينال خان تمادى و قتل التجّار، ثمّ استولى على أمتعتهم(3)، إلاّ أنّ شخصًا واحدًا استطاع أن يفرّ من هذه المذبحة، و حمل خبر الفاجعة إلى جنكيزخان(4).

(1) ابن العبري: المصدر نفسه، ص230 ؛ ابن نظيف الحموي: **التاريخ المنصوري(تلخيص الكشف و البيان في حوادث الزمان)**، تحقيق أبو العيد دودُو، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر 1990م، ص73 ؛ براون: تاريخ الأدب.، ص557 .
أمّا لفض الرسالة عند أبي الغازي فهي :"...إعلم بُنيّ أنّ العليّ منحنا نحن الإثنين ملك الأرض. و إن عشنا سويًا كأب مع إبنه، فإنّ الطرق ستبقى آمنة و يعيش المسلمين في أمن و أمان.". أنظر : شجره ترك، ص105.

(2) النسوي: المصدر نفسه، ص 85 ؛ ابن العبري: المصدر نقسه، ص 230 ؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج27، ص210-211 ؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج1، ص218 ؛ أبي الغازي: المصدر نفسه، ص 105.
يذكر النسوي أنّ ينال خان كان ابن خال السلطان. أنظر:
النسوي: المصدر نفسه، ص 85
إلاّ أنّ هناك من المؤرّخين من يجعل "ينال خان" خالاً للسلطان، أمثال السيوطي، و الديار بكري، و أبي الغازي. أنظر:
تاريخ الخلفاء، ص 486 ؛ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج2، ص291 ؛ شجره ترك، ص105.
و لا يسع الباحث إلاّ أن يأخذ بقول النسوي الشاهد المعاين للأحداث بحكم الملاقاة و المعاصرة.

(3) النسوي : المصدر نفسه، ص 86 ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص 469 ؛ ابن خلدون: تاريخه، ج5، ص 518 ؛ ابن نظيف الحموي: المصدر نفسه، ص 73 ؛ أبي الغازي : المصدر نفسه، ص 105.

(*) تُعتبر مذينة أترار مفتاح إقليم ما وراء النهر، و تقع على نهر سيحون، و تشتهر بحادثيْن هامّيْن في التاريخ، فقد استيلاء المغول عليها سنة 616ه/ 1219م بداية سقوط أقاليم آسيا الغربيّة في أيدي المغول. و في هذه المدينة تُوُفّي تيمورلنك سنة 808ه/1405م، بينما كان تأهّب لقيادة حرب ضدّ إمبراطور الصين. و قد ذكرها الملك هيثُوم Haithon ملك أرمينيا الصغرى في مذكّراته و اعتبرها أعظم مدن التركستان، و ذكرها أيضًا "يي لو شوتساي Ye-lu Ch'u Ts'ai" وزير جنكيزخان و سمّاها باسم **O-ta-la.** أنظر :
النسوي: المصدر نفسه، ص 66، خاشية 1.

(**) ورد اسم " ينال خان" عند الجويني بلفظ: "ينال حق"، و لقبه " غايرخان" مثل ما هو عند أبي الغازي ، أمّا عند ابن نظيف، فهو: رسلان. أنظر:
تاريخ جهانكشاي، ج1، ص60، نقلاً عن الصيّاد، المغول في التاريخ، ص103، هامش 2 ؛ شجره ترك، ص104 ؛ التاريخ المنصوري، ص 73.

(4) ابن نظيف الحموي: المصدر نفسه، ص 73- 74 ؛ أبي الغازي : المصدر نفسه، ص 105.
و يقرّر الجويني أنّ " غاير خان : ينال خان"، أرسل رسولاً إلى السلطان، يُخبره بأنباء هؤلاء التجّار، ثُمّ أمر بإباحة دمهم و اغتصاب أموالهم. أنظر: تاريخ جهانكشاي، ج1، ص 61، نقلاً عن الصيّاد، المغول في التاريخ، ص104.
أمّا ابن الأثير، فيذكر أنّ السلطان محمّد هو الذي أمر بمصادرة أموالهم ، و أرسلها إليه، كما أمر بقتل الجميع، و باع السلع لتُجّار بخارى و سمرقند. أنظر: الكامل في التاريخ، ج9، ص 331 .
أمّا رواية أبي الغازي، فتذكر أنّ السلطان محمّد خوارزم شاه هو الذي غيّر إسم "ينال خان" إلى "غاير خان"، و لمّا لقيه =

ـ سفارة جنكيزخان إلى خوارزم شاه بعد الفاجعة:

أُبلغ جنكيزخان بما لحق رعاياه، فاشتدّ غضبه، و أوْفد إلى السلطان محمّد سفارة مؤلّفة من عضوين مغوليّين و ثالث تركي اسمه "بغرا"، يحملون رسالة شديدة اللّهجة إلى السلطان، و يطلب تسليم حاكم أترار ليُعاقب عن فعله، يقول فيها:" إنّك قد أعطيت خطّك و يدك بالأمان للتجّار، أن لا تتعرّض إلى أحد منهم، فغدرت و نكثت، و الغدر قبيح، و من سلطان الإسلام أقبح، فإن كنت تزعم أنّ الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك، فسلّم ينال خان إليّ لأجازيه على ما فعل حقنًا للدماء و تسكينًا للدهماء، و إلاّ فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح و تتعضّد معها عوامل الرّماح "(1).

و لكن السلطان محمّد رفض هذا الإحتجاج، و رفض تسليم ينال خان، لأنّه كان ابن أخ تُركان خاتون، والدة السلطان، و كانت هذه المرأة شخصيّة قويّة تحمي أقاربها و تحْضا بتأييد قبيلتها من الأتراك القنقلي، فلو أخذ السلطان برأي جنكيزخان، لتعرّض لقيام ثورة عسكريّة ضدّه، من جانب رجال الجيش الذين يؤازرون والدته، و ربّما أدّى ذلك إلى الإطاحة بعرشه. و كان السلطان يعتقد أنّه إذا سلّم ينال خان، يكون قد اقرّ بضعفه و تخاذله أمام جنكيزخان، على حين أنّه يُريد أن يبدُوَ دائمًا رجلاً قويًا، مهابًا من الجميع.

و مهما يكن من أمر فإنه لم يكن ليخفى على أحد حيل و مكر و دهاء و خداع جنكيزخان، و لذلك فإنه لم يغب عن بال السلطان محمد خوارزم شاه الشك اليقين، لأنه غالبا ما كان الجواسيس يتنكرون في ذلك الزمان بزي التجار المسلمين، ما جعل حكومة السلطان تتخذ تدبيرات صارمة في حق تلك التجارة، و انتهت بإعدام التجار.

= أولائك التجار ناداه أحدهم باسمه الأوّل، و كان من معارفه منذ سنين، فغضب لذلك و أمر بسجن الجميع ثُمّ أرسل إلى خوارزم شاه يُخبره بقدوم جواسيس إلى أوترار، فما كان من هذا الأخير إلاّ أن أمر، دون تفكير، بقتلهم جميعًا و الاستيلاء على تجارتهم. أنظر: شجره ترك، ص 105.

و مهما يكن من أمر فإنّ هذا التصرّف الأخرق، حتى و لو كان صادرًا عن حاكم أترار وحده، فإنّه لا يمكن أن يُعفى السلطان محمّد من التبعة، و خصوصًا بعد أن سنحت له الفرصة لإصلاح هذا الخطأ، و لكن مع هذا تمادى في غيّه، فزاد بذلك الطين بلّة.

(1) النسوي : المصدر نفسه، ص 87 ؛ السيوطي : المصدر نفسه، ص 469 ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب، ج27، ص167، 211 . و انظر أيضًا: D'ohsson, op.cit., pp.149-150.

أمّا لفظ الرسالة عند ابن نظيف فهو: " أنت رجل مسلم و ما نفّذنا إليك إلاّ مسلمين موحّدين حجاجا، فكيف جاز لك في دينك ما فعلته من قتلهم و أخذ مالهم، و الله لا بدّ لنا منك. إمّا أنّك تحييهم كما كانوا و تسيّرهم إلينا. و إلاّ فنحن واصلون إليك قولاً و فعلاً". أنظر: التاريخ المنصوري، ص 74.

و أمّا أبي الغازي بهادر خان، فلاّ أثر لهذه الرسالة عنده، بل يذكر أنّه بمجرّد وصول خبر الفاجعة جمع جنكيزخان قُوَّاد جيوشه و قرَّر الحرب على الدولة الخوارزميّة، ثُمّ أرسل إلى خوارزم شاه يتوعّده و يُعلمه بالحرب. أنظر: شجره ترك، ص105.

و لم يقف السلطان عند هذا الحد، بل أمر بقتل الرسول "بغرا" و أمر الرسولين المغوليّين الآخرين بالعودة بعد أن حلق ذقنيهما، و ذلك سنة 615ه/1218م، قاطعاً بذلك كلّ أمل ممكن في التفاهم مع المغول، و بهذا جرّ السلطان على نفسه و على الممالك الإسلاميّة الخراب و الدمار. يقول الجويني:" إنّ كلّ قطرة من دماء هؤلاء التجار قد أجرت نهرًا من دماء المسلمين، و كان القصاص لكلّ شعرة مئات الآلاف من الرؤوس"(1).

و بعد أن قُتل أصحاب جنكيزخان، أرسل خوارزم شاه جواسيسه ليستخبر عن حقيقة العدوّ

---

(1) الجويني: المصدر نفسه، ج1، ص61، نقلاً عن الصياد، المغول في التاريخ، ص105 ؛ النسوي : المصدر نفسه، ص 88 ؛ السيوطي : المصدر نفسه، ص 469 ؛ ابن نظيف الحموي: المصدر نفسه، ص 74 ؛ ابن خلدون: تاريخه، ج5، ص 519 ؛ النويري : نهاية الأرب، ج27، ص167 ؛ براون : المرجع نفسه، ص557. و انظر أيضًا:

D'ohsson,op.cit., p.150.

على أنّ هناك من يرى أنّ أطماع جنكيزخان، لم تكن تقف عند حد، و أنّ نيّته كانت في الانقضاض على تلك الأقاليم في أيّة لحضه، حتى ولو لم تقع هذه الحادثة، إذ لا يُعقل أن يكتفي المغول بمركزهم في آسيا الوسطى دون الجنوب الغربي منها، و القرائن تؤيّد ذلك، فإنّ كلّ غاز لإقليم التركيستان، كان لا بدّ و أن يُغير عاجلاً أو آجلاً على الهضبة الإيرانيّة . أنظر:

Spuler (Bertold), **Les Mongols dans l'Histoire**, Paris, Payot, 1961, p.21.

قضى جنكيزخان السنوات العشر الأولى في إعداد العدّة لإخضاع العالم بأسره، فأوحى إلى أتباعه بأنهم سوف يهيمنون على العالم، ليمنّيهم بإشباع رغبتهم في النهب، ثمّ إنّ مذبحة أترار، و ما صاحبها من رفض السلطان تسليم ينال خان، و إقدامه على قتل رسل جنكيزخان في المرّة الثانية، كلّ ذلك قد أعطى جنكيزخان الحجّة الدّامغة لتبرير الهجوم عليه. و لإثبات أوجه الضعف و الخذلان التي كانت تسود إيران في تلك الفترة، يذكر براون أنّه "من المحتمل جدًا أنّ الكارثة كانت آتية لا ريب فيها، و أنّه لم يكن ليمنعها مانع، و لكن سببها المباشر، يرجع إلى حادثة مقتل التجّار المغول في أترار" . أنظر:
براون: المرجع نفسه، ص557 .

أمّا بارتولد، فيرى أنّ خطط جنكيزخان، إذا لم تكن بتحريض من دول أجنبيّة، فقد كانت على الأقلّ تلقى تأييدًا من الخارج، و بخاصّة من خليفة بغداد النّاصر، ذلك على حين أنّ الدراسة المقارنة لما ورد بالمصادر الإسلاميّة عن هذه الحرب، يدلُّ على أنّ " محمّد خوارزم شاه " سبّب هذه الحرب، أو على الأقلّ عجّل قيامها. أنظر: بارتولد: المرجع نفسه، ص 149 ؛ محمّد الخضري: تاريخ الأمم الإسلاميّة(الدولة العبّاسيّة)، ص 397.

و مهما يكن فإن جنكيزخان، و في أوج اشتياقه إلى إسقاط الخلافة العباسية في العراق رأى أن أنجع الطرق إلى ذلك هو التمركز أولا في أفغانستان و أوزباكستان كقواعد إمداد للجيوش المغولية، ففكر في الحرب ضد الدولة الخوارزمية التي كانت تظم أفغانستان، و أوزباكستان، و تركمانستان، و كازاخستان، و طاجكستان، و باكستان، و أجزاء من إيران، و كل هذه المناطق تقع في قلب و وسط آسيا، و بالتالي بإمكان من سيطر عليها أن تكون له قبضة شديدة على آسيا بأكملها، و كانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة أورجندة، في تركستان الحالية، و أما المعاهدة التجارية التي أقامها جنكيزخان مع خوارزم شاه فلم تكن إلا شبه اتفاق غيثما يؤمن ظهره إلى أن يستتب له الأمر في شرق آسيا، أي في الصين و منغوليا، و هو تماما ما فعله هيتلر في القرن العشرين للميلاد حينما أقام معاهدة مع روسيا قبل الهجوم على بولونيا، ثم سنحت الفرصة لجنكيزخان للهجوم على أملاك خوارزم شاه بعد ذريعة مذبحة تجاره في مدينة أوترار.

نخلص من هذا إلى أنّ تصرُّف خوارزم شاه، أعطى جنكيزخان أكثر من سبب كاف لإعلان الحرب على السلطان .

أمّا ابن العبري فيروي أنّ على إثر الفاجعة، صعد جنكيزخان إلى رأس تلّ عال و كشف رأسه و تضرّع إلى الباري تعالى، طالبًا نصره على من بادرهُ بالظلم، و بقي هناك ثلاثة أيّام بلياليها صائمًا. و في الليلة الثالثة رأى في منامه راهبًا عليه السواد و بيده عكّازة، و هو قائم على بابه يقول له: لا تخف افعل ما شئت فإنّك مؤيّد. فانتبه مذعورًا ذُعرًا مشوبًا بالفرح و عاد إلى منزله و حكي حلمهُ لزوجته و هي ابنة أونك خان (ذات الديانة المسيحيّة النسطوريّة)، فقالت لهُ: هذا زيّ أُسقف كان يتردّد إلى أبي و يدعو له، و مجيئُه إليك دليل انتقال السعادة إليك. فسأل جنكيزخان مَن في خدمته من نصارى الإيغور: هل هاهنا أحدٌ من الأساقفة، فقيل له عن " ماردنحا"، فلمّا طلبه و دخل عليه بالبيرون الأسود قال: هذا زيُّ مَن رأيت في منامي لكن شخصه ليس ذلك، فقال الأسقف: "يكون الخان قد رأى بعض قديسينا". و من ذلك الوقت صار يميل إلى النصارى و يُحسن الظنّ بهم و يُكرمهم. أنظر: ابن العبري: المصدر نفسه، ص 230 .

الداهم، فعادوا بعد مدّة طويلة، و أخبروه أنّ عدده كالنمل و الجراد و أنّهم من أصبر الخلق، فسقط قلبه بين قدميه و ندم عن فعلته، فاستشار الشهاب الحيوفي، و هو فقيه ذو رأي عنده، فدلّه على خطّة في الجهاد، إلاّ أنّ أمراء الجيش لم يُوافقوا. و بينما هم على خلاف جاءهم خبر قدوم المغول(1).

- قضاء المغول على دولة خوارزم شاه:

أرسل جنكيزخان قبل أن يشرع في الإنتقام من خوارزم شاه، قائده جيبي نويون Jebe-noyon، فقضى على مملكة كوجلك و احتلّ البلاساغين، و المااليق، و كاشغر، ثُمّ أطلق حريّة العبادة للمسلمين، حتّى لا يتحجّج خوارزم شاه بصفة الحرب الدينيّة ضدّ خصمه بعد أن قتل مسلمي القافلة المغوليّة. ثُمّ اصطدم أحد جيوش جنكيزخان بجيش خوارزم شاه، و استمر القتال أربعة أيام شرق نهر سيحون بكازاخستان، فمات فيه من المسلمين عشرون ألفا، و من المغول أضعاف ذلك، ثم انسحب محمد خوارزم شاه في أواخر سنة 616هـ/1219م، لأنه وجد أن أعداد المغول هائلة(2).

ثم خطّط جنكيزخان للهجوم على أقاليم الدولة الخوارزميّة بتقسيم جيشه العرمرم إلي أربعة، بين أبنائه و قوّاده، وكلّف كُلاً منهم بمهمّة خاصة في آن واحد، ليجعل خوارزم شاه في كمّاشة لا مفرّ منها، و لينْقَضَّ على بلاد ما وراء النهر أوّلاً قبل السير إلى ما بعدها من البلاد الإسلاميّة.

أمّا الجيش الأوّل فيقوده ابنيه (جغطاي Tchagatai، و أوقتاي Ogotai)، كانت مهمّته فتح مدينة أترار في إقليم خوارزم، بينما كانت مهمّة الجيش الثاني، فتح المدن على ساحل نهر سيحون، و خاصّة مدينة "جند" في إقليم خراسان، التي تعتبر حصناً منيعًا على هذا النهر، يقوده ابنه الأكبر جوجي Djoutchi، و أرسل فرقة لفتح مدينتي "بنكت" و "خجندة" في إقليم العراق العجمي، أمّا جنكيزخان فقد سار بأغلب القوّات مصطحبًا ابنه تولوي Touloui، إلى وسط إقليم ما وراء النهر في أعالي نهري سيْحون و جيْحون، و بالخصوص بخارى و سمرقند أهم و أكبر مدن ما وراء النهر، تمهيدًا للإستيلاء على إقليم "غزنة"(3).

و بعد ما قضى جنكيزخان صيف 616هـ/1219م على نهر آرتش، تقدّم في الخريف إلى قايليق فانحازت إليه قوّات الأمراء المسلمين في المااليق و قايليق، من بينهم أرسلان خان أمير

(1) ابن الأثير: **الكامل**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1980م، ج9، ص 331.
(2) ابن الأثير : المصدر نفسه، بيروت 1982م، ج 12، ص 364-365.
(3) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 14، و ص 14حاشية1.
حافض حمدي: الدولة الخوارزميّة و المغول، ص 66 ؛ عبد المعطي الصيّاد: المغول في التاريخ، ص112.

القارلوق، و كذلك تُجّاراً مسلمين استخدمهم جنكيزخان كأدلاّء على البلاد، فضلاً عن الأعداد الهائلة من الأُسارى المسلمين الذين كان يستعملهم المغول في حروبهم كأذرع يدرؤُون عنهم السهام، أمّا جيش الخوارزميّة فقُدّر بأربع مائة ألف رجل، إلاّ أنّ الفتنة و الشقاق تغلغل بين عناصره، و لم يتمكن من الاجتماع مرة أخرى(1).

و حاول محمد خوارزم شاه تحضير الجيوش لكنه كان معاديا للخلافة العباسية في العراق، ولغيرها من الممالك الإسلامية، فلم يكن على وفاق مع الأتراك و لا مع السلاجقة و لا مع الغوريين في الهند، فأصبحت مملكة خوارزم شاه معزولة عن العالم الإسلامي الذي كان في تلك الآونة يغزوبعضه بعضا و يسبي بعضه بعضا.

وصل جنكيزخان إلى أترار، و جعل قسمًا من جيشه في حصارها، و أرسل ابنه جوجي لمحاصرة مدينة خوقند، بينما وصل هو مع ابنه الأصغر "تولوي" إلى بخارى في فبراير سنة 617هـ/1220م، ليقطع الإتصال بين السلطان و جيشه المشتت، فسقطت في العاشر من الشهر نفسه بعد أن تخلّى عنها قادتها، أمّا قلعتها فقد صمدت اثنى عشر يومًا و بها أربعمائة فارس بذلوا جهدهم في منعها حتّى سقطت. و يذكر ابن الأثير أنّ المغول استباحوها بعد ذلك و أحرقوها وقتلوا جميع من فيها سوى القليل منهم، بعد أن أعطاهم الأمان(2)، و اصطحبُوا الأُسارَى إلى سمرقند التي سقطت هي الأخرى في مارس من السنة نفسها، ثُمّ سقطت أترار في شهر أبريل سنة 617هـ/1220م، بعد خمسة أشهر من المقاومة، ثُمّ حُمل ينال خان إلى جنكيزخان، فصُبّ الفضة في أذنيه و عينيه مات على إثرها، ثُمّ هوت المدن الأخرى تدريجيًا، منها "بناكت" و "خوقند"(3).

أمّا خوارزم شاه فقد فرّ إلى بلخ، و وصل نيسابور في فبراير من سنة 617هـ/1220م، بعد

---

(1) الباز العريني: المغول، ص 120-122.

(2) ابن الأثير: الكامل، طبعة بيروت 1980م، حوادث سنة617ه، ج9، ص 332 ؛ الباز العريني: المغول، ص 122-123.
و انظر: Roux(Jean-Paul), op.cit., p. 189.
دخل ابن بطُّوطة بخارى في القرن الرابع عشر الميلادي، فوجدها خرابًا كأن لم تغنى بالأمس، فالمساجد و المدارس و الأسواق لا تزال خرابًا حتّى زمانه، إلاّ القليل منها، أمّا أهل العلم فلم يبقى منهم أحد. أنظر:
ابن بطُّوطة: **رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النظار في عجائب الأسفار**، المطبعة الخيريّة، القاهرة 1322ه، ج1، ص 281.
و انظر أيضًا : Roux(Jean-Paul), op.cit., p. 189.

(3) النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي، ص91 ؛ الباز العريني، المغول، ص 124-125.
و انظر أيضًا : Roux(Jean-Paul), loc.cit. ; D'ohsson, op.cit., pp.157-158.

أن خدعه المغول برسالة زادت الشقاق بين السلطان و قُوَّاد جيشه و والدته(*)،فأَرسل جنكيزخان في أثره جيشا يتكوّن من ألف فارس، بقيادة جيب Tcheb وسوبوداي Souboutai، اجتاز نهر جيحون، و أُمروا ألاّ يتعرّضوا للسكان لئلا يتعطّلوا. و لكنّ السلطان استمرّ في الفرار من مدينة إلى أخرى عبر منطقة خرسان أمام الجيش المغولي الذي يقتفي أثره حتّى بلغ ساحل بحر الخزر (بحر قزوين)(**)، فركب سفينة سارت به إلى جزيرة في وسط ذلك البحر و رضي بالبقاء فيها في قلعة تدعى كناك تارك شعبه يلقى مصيره المشؤوم، ثُمّ مرض و قضى نحبه ليُدفن فيها في ديسمبر عام 617هـ/1220-1221م، و ما عنده ما يُكفّنُ به، بعد أن عهد الحكم إلى ابنه جلال الدين منكبرتي، و لمّا افتقد المغول أثره أغاروا على أذربيجان و نهبوا أردبيل، ثُمّ انسحبوا إلى شاطئ بحر قزوين، و أثناء عودتهم، هجموا على مدينة مازندران بإيران فقتلوا فيها الكثير و أحرقوها، ثم تجاوزوها إلى مدينة الري و هي من إيران أيضا، و في طريقهم إليها وجدوا والدة السلطان محمد خوارزم شاه و نساءه و معهم الأموال الكثيرة، فسبوهم و غنموا و أرسلوا الكل إلى جنكيزخان المتمركز في سمرقند، ثم ملكوا الري و فعلوا فيها الأفاعيل و قتلوا من أهلها ما يزيد عن أربعين ألفا، ثم اتجهوا إلى مدينة تبريز بإيران وكان عليها رجل اسمه أوزبك بن البهلوان، و كان لا يفيق من شرب الخمر، فصالحهم على الأموال و الدواب و الثياب فتركوه، و توجهوا إلى قتال قبائل الكرج النصرانية منها و الوثنية التي تجمعت لقتال المغول، فاصطدم بهم الجيش المغولي في مدينة تفليس بجورجيا، و قتل منهم الكثير، ثُمَّ مَلَكَ أرمينيا و جورجيا(1).

(*) ذلك أنّه لما استولى جنكيزخان على أُترار، حضره بدر الدين العميد، و كان ينوب بأترار عن الصفي الأقرع وزير السلطان ببلاد الترك، و خلا به، و كان يحقد على السلطان لقتله أباه القاضي العميد سعدا، و عمه القاضي منصور، و جماعة من بني عمه و أخوته عند استصفائه مملكة أترار، فأخبر جنكيزخان بما بين خوارزم شاه و أُمه من الوحشة و التنافر، و اتفقا على تزوير رسائل عن لسان الأمراء الموالين لأم السلطان و الذين هم أصلا في خدمته، مفادُها تآمُرهم مع أُمه و الإنقلاب عليه، و بحيْث تقع في يدي السلطان. و لمّا وقعت الرسائل بين يدي السلطان اخذ يُبددُ شمل الأُمراء و يُفرق جمعهم، تعليلا بتقوية البلاد. فنجحت خُطة العميد و تلاشت قوة الخوارزمية. أنظر : النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 92-93.

(**) قزوين، مدينة عليها حصن، و هي ثغر الديلم الذي يشمل جيلان و طبرستان و جرجان و قومس علي بحر الخرز. أنظر: الإصطخري: **المسالك و الممالك**، تحقيق محمّد جابر عبد العال الحيني و مراجعة محمّد شفيق غربال، الإدارة العامّة للثقافة، الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، 1961م، ص121حاشية1، 124، 128.

(1) النسوي : سيرة جلال الدين منكبرتي، ص 92-96، 102، 102حاشية1، و ص 107-108 ؛ ابن الأثير: الكامل، طبعة بيروت1980م، حوادث سنة617هـ،ج9، ص 333-334 ؛ ابن الأثير: الكامل، بيروت 1982م، ج12، ص380-382 ؛ الباز العريني :المغول، ص 126-127 ؛ حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية و المغول، ص 134.

و انظر: D'ohsson, op.cit., p.158 ; Grousset, hist. du moyen age, p. 302.

و يُشير Defremery(M)، إلى أنّ بعض المؤرّخين الغربيّين أخطئوا بتقدير أوّل هجوم للمغول على الكرج Géorgie في سنة1222م أو 1225م أو 1226م، أمثال Klaproth (أنظر J.A. année 1830, p.7.) و غيره. أنظر:

Defremery (M.), **Fragments de Géographes et d'Historiens Arabes et Persans Inédits**, dans J. A., Paris, Novembre-Décembre 1849, p. 451 note 2.

و لم يكن "بدر الدين العميد" إلاّ غيض من فيض في جملة أعداء السلطان و من يكرهونه و ينصرون الكفّار ضدّه في اندفاع =

و في ربيع 617هـ/1220م أضحى إقليم ما وراء النهر من أملاك جنكيزخان، فأرسل إلى "بخارى" حاكمًا، ثُمّ زحف على "ترمذ" و حاصرها أحد عشر يومًا حتّى دمّرها و قتل أهلها، ثُمّ قضى شتاء 617-618هـ/1220-1221م على شاطئ نهر جيحون، ثُمّ أرسل مائة ألف جندي إلى "جرجانية" عاصمة خوارزم بقيادة أبنائه (جغطاي، و أوكتاي، و جوجي)، فسقطت في أبريل 618هـ/1221م بعد سبعة أشهر من الحصار، و قتلوا جميع من فيها، و نقلوا ما يزيد عن مائة ألف من الصنّاع و أرباب الحرف إلى المناطق الشرقيّة(1).

= أعمى أسال دماء الملايين من المسلمين الأبرياء لقرون قبلها و بعدها، و إذا عُرف السبب بطل العجب. و فيما يخصُّ خوارزم شاه يقول المؤرّخ الجويني في جند السلطان: "...لقد كانت الحكمة و الشفقة بعيدين كلّ البعد عنهم، و أزيحتا من قلوبهم، فأيُّ بلد مرُّوا به أو حلُّوا فيه فإنّهم يقومون بتدميره فيهرب سكانه و يلتجئون إلى أماكنهم الحصينة، و يطلبون الأمان داخل أسوارها، ففي حقيقة الأمر كانت تصرُّفاتهم الرعناء و جلافتهم الهمجيّة و عنفهم و أرواحهم الشرّيرة هي سبب سقوط أسرة السلطان...".
أنظر: تاريخ جهنكشاي، ج1، ص464.
و كانت العامّة و أهل العلم يُبغضون السلطان، و خاصّة لمّا أمر بحذف اسم الخليفة العبّاسي الناصر من الخطبة في أراضيه، و قصده بغداد مرارًا، و إذلاله للأئمّة و الأعيان. أنظر:
الهمذاني: جامع التواريخ، ج1، ص 97.
و أمّا أبي الغازي بهادر خان، فيذكر من بين أسباب مصيبة محمّد خوارزم شاه، أنّه قي إحدى الليالي و بينما هو على سكره، أمر بقتل أحد كبار شيوخ مدينة بخارة و كان اسمه "مجد الدين" و كان يشُكُّ بوجود علاقة ما بينه و بين أمّه "توركان خاتون"، ما أغضب شيوخ بخارة و العامّة، و بعد ذلك بفترة و جيزة كانت الفتنة بينه و بين الخليفة ناصر الدين أبو العبّاس العبّاسي و تحصّل السلطان على فتوة من مُفتيّي بلاده لإزاحة الخليفة و وضع مكانه سيّدًا من مدينة "ترمذ" Terméd اسمه علاء الملك، و منع اسم الناصر في الخطبة و كذا في العُملة. أنظر:
شجره ترك، ص 107-108.
أمّا ابن العبري فيقول إثر تعرُّضه لأحداث(627هـ/1229م): " ثُمّ أرسل (أي السلطان علاء الدين كيقباد) سفيرًا إلى خوارزمشاه(أي جلال الدين منكبرتي) يقول: إنّك سلطان ابن سلطان فلا تصنع ما يُخالف الشرع. و اعلم أنّ أباك بسبب ظلمه أثار عليه الله تعالى جيوش التتر من المشرق...". أنظر:
ابن العبري: **تاريخ الزمان**، نقله إلى العربيّة الأب إسحاق أرمَلة و قدّم له الأب جان مُوريس فييْه، دار المشرق، بيروت(1286هـ/1986م)، ص 275-276.
أضف إلى ذلك أنّ خوارزم شاه أمر سكّان بلاد ما وراء النهر المجاورين لبلاد الخطا و خاصّة سكّان فرغانة و الشاش بالجلاء عنها إلى بخارى و سمرقند، و أمر بتخريب البلاد التي جلى عنها سكّانها لألاّ يملكها المغول، بينما كان بإنكان سكّنها أن يُدافعوا عنها إن هوجمت (لو صلحت النيّات)، و لكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً. أنظر:
ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص398 ؛ ابن خلدون: تاريخه، ج5، ص 102 ؛ الديار بكري: الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج2، ص 367-368.
و على هذا فإن الصراع لم يكن فقط بين الخلافة العباسية و الدولة الخوارزمية، بل قامت الدولة الخوارزمية نفسها على صراعات داخلية و خارجية و مكائد كثيرة، ومؤامرات عديدة، فلم تتوحد القلوب في هذه البلاد، و من ثم تشتتت الصفوف و لم يحدث النصر، و ما كان للنصر أن يتحقق و الأمة على هذا النحو.
أما الجيش المغولي الذي كان في أثر محمد خوارزم شاه فقد كان في مأزق لا يحسد عليه لأن المسافة بينه و بين جيش جنكيزخان الرئيسي تقدر بآلاف الأميال، و حوله ملايين من البشر المسلمين الحاقدين على جرائم المغول فيهم، و لكن الهزيمة دبت في نفوس و قلوب المسلمين و تعلقوا بدنياهم و رضوا بالقعود في قراهم و مدنهم ينتظرون الموت على أيدي الجيش المغولي، و نزع الله من قلوب المغول مهابة المسلمين تماما.

(1) ابن الأثير: الكامل، بيروت 1982م، ج12، ص 390-393 ؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج4، ص320 ؛ الباز العريني: المغول، ص 128-129 . و انظر أيضًا :
Grousset, hist. du moyen age, pp. 299-300.
كانت وفاة جنكيزخان سنة(624هـ/1227م)، فتوقّفت غزوات المغول لأسباب عدّة، منها الخلاف القائم بين "أوكتاي"(خليفته =

و بهذه الأحداث انتهت مرحلة هامة من نجاح القوات المغولية في السيطرة على جانب كبير من الأراضي الخوارزمية، و هي بلاد ما وراء النهر، و الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية، و إقليم خوارزم، وإقليم خراسان.

و في سنة 618هـ/1221م ظهر جلال الدين منكبرتي، أكبر أبناء خوارزم شاه، وانضم إليه أحد ملوك الأتراك المسلمين و اسمه سيف الدين بغراق، وملك خان أمير مدينة هراة الواقعة شمال غرب أفغانستان و الذي فر منها بفرقة من جيشه حين سقطت في يدي جنكيزخان سنة 617هـ/1220م، فاستطاع أن ينتصر على المغول في شمال شرق مدينة غزنة بأفغانستان، و بعد ثمانية أيام هزم جيشا آخرا قوامه ثلاثين ألف مقاتل مغولي(1).

و لكن القتال الذي دار بين ملك خان و سيف الدين بغراق بسبب الغنائم، و موت أخي هذا الأخير في تلك الفتنة، جعلت سيف الدين بغراق ينسحب بجيشه المكون من ثلاثين ألف فارس، ما أرغم جلال الدين منكبرتي على الإنسحاب أمام جيوش المغول إلى الجنوب و عبور نهر السند ليفر إلى الهند. و لكن جنكيزخان أسرع خلف جلال الدين وبدأ جلال الدين يفعل مثل فعل أبيه، يفر من مدينة إلى أخرى متوجها إلى الجنوب، حتى وصل إلى حدود باكستان فاخترقها كلها و وصل إلى نهر السند الذي يفصل في ذلك الوقت بين باكستان و بين الهند فأراد العبور بجيشه إلى الهند على الرغم من العلاقة السيئة مع ملوك الهند المسلمين، إلا أنه لم يجد سفنا، فطلبها من مكان بعيد، وبينما هم كذلك ينتظرونها، إذ طلع عليهم جيش جنكيزخان، فاقتتل الجيشان لثلاثة أيام متصلة، وكان ممن قُتل في صفوف المسلمين الأمير ملك خان الذي كان قد تصارع من قبل مع سيف الدين بغراق على الغنائم و ها هو لم يظفر من الدنيا بشيئ، و لكن شتان بين من يموت و هو ناصر

= على العرش) و أتباع "جغتاي"(أكبر أبناء جنكيزخان). و كان "جلال الدين منكبرتي"(الإبن البكر لمحمّد خوارزم شاه) قد فرّ إلى الهند بعد وفاة أبيه، و أثناء انشغال المغول بحربهم الثانية في الصين، جهّز جلال الدين جيشًا و استرجع عرشه في إيران سنة(622هـ/1225م) ، ثُمّ دخل في حرب مع جيرانه و تناسى خطر المغول، فكرّ عليه خان المغول(أوكتاي) بجيش عليه القائد "جرمكان نويان" فهزمه سنة(628هـ/1231م)، ذلك أنّ مقدّم الإسماعيليّة كاتب التتر و عرّفهم أنّ جلال الدين قد ضعف و انهزم من كيقباذ صاحب الروم و من الأشرف و أنّه وقع بينه و بين من يجاوره من الملوك، و أنّهم لا ينصرونه و ضمن لهم الظفر به. و هاكذا انهارت الدولة الخوارزميّة نهائيًا بموت جلال الدين منكبرتي(منهم من ذكر موته في تلك المعركة ، و منهم من ذكر وفاته أثناء فراره على يدي أحد الأكراد انتقامًا لأحد أبويه الذي قضى بسببه) . أنظر:
ابن الأثير: الكامل،ج9، ص355-379،358 ؛ القلقشندي: المصدر نفسه،ج4، ص307 ؛ النويري: المصدر نفسه، ج27، ص233 ؛ عبد المعطي الصيّاد : المغول في التاريخ، ص 164 ؛ حافظ حمدي : الدولة الخوارزميّة و المغول، ص128-129. و انظر أيضًا :

Guiragos de Kantzag, op.cit., dans J.A., Paris, Avril-Mai 1858, pp. 203-209 ; Hayton, op.cit. (traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler), pp. 830-831 ; Grousset(René), **Histoire de l'asie**, Paris 1921, T, III, p. 43.

(1) النسوي : المصدر نفسه، ص154-155 ؛ ابن الأثير : الكامل، طبعة بيروت 1982م، ج 12، ص 393.

للمسلمين بكل طاقته، و من يموت و قد تسبب بصراعه في فتنة أدت إلى هزيمة مرة. و في اليوم الرابع انفصلت الجيوش لكثرة القتل، و بدأ كل طرف يُعيد حساباته، و بينما هم في هذه الهدنة المؤقتة، جاءت السفن إلى نهر السند، و لم يُضيع جلال الدين الوقت في التفكير طويلا فقفز الزعيم المسلم هربا إلى السفن و معه خاصته و عبروا إلى بلاد الهند و تركوا المغول مع بلاد المسلمين دون حماية عسكرية، و جيوش المغول لا تعرف الرحمة، إضافة إلى الحقد الشديد في قلب جنكيزخان نتيجة كثرة القتلى في المغول في الأيام الأخيرة، فانقلب جنكيزخان على بلاد المسلمين يصُب عليها جام غضبه، و دخل مدينة غزنة التي انتصر عندهاالمسلمون منذ أيام أوأشهر، فقتل كل رجالها و سبى كل نسائها، و عبر ابن الأثير في ذلك بقوله:" ...تركها خاوية على عروشها كأن لم تغن بالامس...". ومن بين الذين أمسك بهم جنكيزخان أطفال جلال الدين، فأمر بذبحهم جميعا، و هكذا ذاق جلال الدين من نفس المرارة التي ذاقها الملايين من شعبه(1)، و هكذا يكون جنكيزخان قد احتل أفغانستان بهذه السهولة و هو الحلم الذي كان يُراوده لتكون بوابة إلى الخلافة العباسية وغيرها، فقد وصل من الصين إلى كازخستان، و أوزباكستان ، و تركمانستان، و أفغانستان، وإيران، و أذربيجان، و أرمينيا، و جورجيا، و قد اقتربوا جدا من العراق، و كل ذلك في سنة واحدة هي سنة (617-618هـ).

و في سنة 620هـ/1223م قفل جنكيزخان راجعا إلى بلاده، ليصل قوراقورم عام 1225م، بعد أن خرب المدن الخوارزمية و شرد الأسرة الخوارزمية الحاكمة، ثم دخل في صراع عسكري مع الصين و القبائل الثائرة حتى وفاته في عام 624هـ/1227م(2).

و في الوقت نفسه انشغل جلال الدين منكبرتي لبعض الوقت في صراع عائلي من أجل العرش، و صراع آخر مع الدولة العباسية، و بعض الحروب مع دولة الكرج، و صراع آخر مع الحكام الأيوبيين في مدينة خلاط، و انشغل بفكرة التحالف مع سلاجقة الروم ضد الخطر المغولي، و تجنب عداوة طائفة الإسماعيلية، ثُمّ سنحت فرصة انهزام الجيش المغولي في روسيا سنة

---

(1) ابن الأثير : الكامل، بيروت 1982م، ج 12، ص 397 ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، ص 412-413 ؛ النسوي : المصدر نفسه، ص 155-156، 158-159.

(2) أنظر: Lamb(Harold), Genkiskhan, London, 1926, p. 194.

620هـ/1223م أمام طائفة البلغار(*)، و الذي ترتب عليها فقدان المغول السيطرةَ على المناطق التي احتلوها في غرب بحر قزوين، و هي روسيا و جورجيا و أرمينيا و الشيشان و داغستان وأذربيجان و شمال إيران، إلى ظهور غياث الدين، أحد أولاد السلطان محمد خوارزم شاه، فتملك بعض المناطق التي تركها المغول و سيطر على مدن الري و أصبهان، و وصلت سيطرته إلى إقليم كرمان الواقع في جنوب إيران، و بذلك يكون قد سيطر على شمال و غرب و جنوب إيران، أما المنطقة الشرقية و الشمالية الشرقية من إيران فبقيت في قبضة المغول، و هي إقليم خرسان بكامله. و على هذا فإن غياث الدين يُعتبر بمثابة حائط فاصل بين المغول و الخلافة العباسية.

و لكن الخليفة العباسي الناصر لم ينس الأحقاد التي بينه و بين الخوارزميين، فراسل الأمير إيغان طائسي الذي كان أكبر أمراء غياث الدين، و أطمعه في الملك بالانقلاب على غياث الدين، ففعل ثم انهزم و فر مع شرذمته إلى أذربيجان(1). و إن كنا نعجب من هذه الصراعات الداخلية في ذلك الزمان، فإننا نشهد في هذا الزمان الصراعات نفسها، و المسلمون يتلقون هذه الأخبار بدم بارد و بلا اكتراث.

و في سنة 621هـ/1224م اشتعلت الحرب بين غياث الدين و أحد المسلمين و اسمه سعد الدين بن دكلا، و دامت قرابة العام حتى رضي الطرفان بنقسيم البلاد بينهما، و في أثناء ذلك القتال بين الإخوة المسلمين هجم المغول مرة أخرى بثلاثة آلاف فارس، و أوقعوا القتل في مدن الري، وساوة، و قم، و قاشان، و همدان، ثم عادوا سالمين إلى جنكيزخان(2)

(1) ابن الأثير : الكامل، بيروت 1982م، ج 12، ص 415-416 ؛ النسوي : المصدر نفسه، ص 144-153.

(2) ابن الأثير : المصدر نفسه، ج 12، ص 419-420.

(*) كان عدد الجيش المغولي نحوا من أربعة آلاف رجل، قُتل أكثرهم و رجع الباقون إلى جنكيزخان. أنظر : ابن الأثير : المصدر نفسه ، ج 12، ص 388-389.

و كانت هذه فرصة للمسلمين لكي يعيدوا ترتيب صفوفهم، و تجهيز عدتهم ليقابلوا المغول و هم في حال الإضطراب بعد الهزيمة مع البلغار. و لكن الذي حدث أن أحد الـمراء المسلمين في منطقة أرمينيا، و كان تحت قيادة الملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة (و هو من الأكراد و يحكم شمال العراق)، جمع عُدته و هجم على قبائل الكرج في جورجيا، و قد كان الكرج قد عانوا من المغول مثل ما عان منهم المسلمون، و كان المتوقع من المسلمين التحالف مع الكرج ضد المغول (العدو المشترك)، أوعلى الأقل تحييد موقفهم لألا يستنزفوا قوتهم في حروب جانبية، خاصة أن الكرج يعرفون خبايا هذه المناطق، و لو استمالهم المغول في حربهم ضد المسلمين لكان هذا وبالا على المسلمين، و لكن المسلمين في هذه الآونة أُصيبوا بالعمى و الحول السياسي، ففقدوا الرؤية الصحيحة و الحكمة العسكرية، و الهدف الواحد المشترك، و الإتحاد بين الصفوف،فدارت المعركة بين المسلمين و الكرج، و فقد كل منهما عددا كبيرا من القتلى، كما فقدوا الثقة في إمكانية التحالف ضد المغول. و هكذا لم يستغل المسلمون موازن القوى لصالحهم في هذا الوقت، ثم سكنت الحرب، و أقيم الصلح منجديد، و لكن بعد فقد طاقة كبيرة جدا من الطرفين. أنظر : ابن الأثير : الكامل، بيروت 1982م، ج 12، ص 414-415.

كان المسلمون لا يُفرّقون بين العدو و الصديق. و بينما كان ينبغي للأزمات أن تجمع الصف المسلم إذا بها تفرقه، و ما ذلك إلا لقلة الإيمان في القلوب، و لعظم الدنيا في العيون و لسوء التربية أو انعدامها في فترات طويلة متراكمة.

و في الفترة ما بين عام621هـ/1224م و عام 622هـ/1225م خفت قبضة المغول على غرب الدولة الخوارزمية نسبيا، فرأى جلال الدين منكبرتي الذي فر منذ خمس سنوات إلى الهند، أن الضروف مواتية تماما للعودة إلى مملكة خوارزم، خاصة وأن علاقته مع ملوك الهند لم تكن طيبة، و أن المغول تركوا منطقة فارس نسبيا، و أن جنكيزخان قد عاد إلى بلاده، و أن أخاه غياث الدين قد سيطر على معظم أجزاء فارس، فعبر نهر السند و دخل إقليم كرمان في جنوب باكستان، ثم تجاوزه إلى بلاد فارس الواقع جنوب إيران، ثم بدأ يجمع حوله الأنصار، و تحالف مع سعد الدين بن دكلا ضد أخيه غياث الدين، و بدأ جلال الدين في غزو إقليم فارس من جنوبه إلى شماله مُحاربا أخاه غياث الدين، حتى وصل إلى إيران و أصبح قريبا من الخلافة العباسية فأعلن الحرب عليها، هذا و جيوش المغول لا تزال مُرابطة قريبا جدا في شرق إيران، فدخل إلى البصرة و حاصرها مُدة شهرين، ثم تركها و اتجه شمالا حتى اقترب من بغداد، ما دفع بالخليفة الناصر لدين الله إلى الاستعانة بالمغول، لكن هؤلاء كانوا مُنشغلين في بسط سطوتهم في المناطق الشاسعة التي احتلوها و لم يلتفتوا له، و بسط جلال الدين سيطرته على المناطق المحيطة ببغداد، ثم شمال العراق، ثم منطقة شمال فارس، و بدأ يدخل إلى أذربيجان و ما حولها من الأقاليم الإسلامية، وكان يقتل و يسبي المسلمبن أبناء جلدته و دينه، ثم أوقع الهزيمة بالكرج النصارى سنة 622هـ/1225م، ثم رجع إلى تبريز بسبب الاضطرابات التي وقعت فيها، ثم أعاد في سنة 623هـ/1226م الهجوم على الكرج و احتل عاصمتهم تفليس(1).

ثم استمر جلال الدين في حربه ضد المسلمين، فاتجه إلى مدينة خلاط المسلمة، في شرق تركيا اليوم، و كانت تحت حكم الملك الأشرف بن الملك العادل الأيوبي الذي كان في دمشق في هذه الفترة، فسقطت في يديه سنة 624هـ/1227م و فعل في أهلها الأفاعيل، ثم تمردت ذات المدينة عليه سنة 627هـ/1230م، فحاصرها شهورا حتى سقطت في يديه السنة نفسها، و فعل بأهلها المسلمين ماكان يفعله المغول بهم، فتحالف الملك الأشرف مع سلطان سلاجقة الروم و هو علاء

(1) ابن الأثير : الكامل، بيروت 1982م، ج 12، ص 434-436، 450-469 ؛ النسوي : المصدر نفسه، ص 174-177، 192-196، 197-204، 211-212 ؛ حافظ أحمد حمدي : الدولة الخوارزمية و المغول، ص201.

الدين كيقباذ الأول(1219-1236م)، فهزموه في معركتين فاصلتين، رجع فيها جلال الدين أدراجه(1).

و في تلك الآونة كان قد استقر ملك المغول في منغوليا، و تولى قيادة المغول الزعيم الجديد "أوكتاي" فأخذ يُنظم أمور مملكته في معقلها بمنغوليا و الصين، و ذلك من سنة 624هـ/1227م إلى سنة 627هـ/1230م، و هي تُعتبر فترة هدوء، ارتاح العالم فيها نسبيا من هجوم المغول، و بعد ذلك بدأ أوكتاي يُفكر في اجتياح العالم الإسلامي، و استكمال الحروب في منطقة روسيا التي هزم فيها الجيش المغولي قبل ذلك، و محاولة استكمال الفتح داخل أوربا.

و لذلك كلف أوكتاي أحد قادته و هو شورمجان للقيام بهذا الاجتياح، فجمع جيشا هائلا و تقدم صوب العالم الإسلامي الذي كان يشهد في تلك الآونة فُرقة عظيمة.

و قد علم شورمجان أن جلال الدين قد ضعف جدا لانهزامه مرتين من الأشرف بن العادل حاكم ديار الجزيرة في شمال العراق و جنوب تركستان.

و كانت طائفة الإسماعيلية الشيعية في غرب إقليم فارس، قد راسلت المغول و أخبرتهم بضعف جلال الدين، وذلك لأنه كانت بينهم و بينه حروب، فأرادوا الانتقام منه بذلك الإخبار.

و جاء المغول، و كان هدفهم الرئيسي الإمساك بجلال الدين منكبرتي، فدارت سنة628هـ/1231م، المعركة بين الجيشين فرّ على إثرها جلال الدين بعد هزيمته النكراء، من قطر إلى قطر و من مدينة إلى مدينة، و المغول على أثره، تماما مثل ما فعل أبوه قبل أحد عشر عاما، فاستولى المغول على مدينتي الري و همدان و البلاد التي تقع بينهما، ثم تقدموا إلى إذربيجان مقتفين أثر السلطان جلال الدين منكبرتي، ثم تبعوه إلى تبريز ففر منها إلى سهل موقان الواقع على الجانب الغربي لبحر قزوين ، ثم عاد إلى تبريز فاتجه إلى مدينة آمد بأمل الاستنجاد بحُكام ديار بكر والجزيرة و الخلافة العباسية، و لكن المغول عاجلوا اللحاق به و أنزلوا به هزيمة فر على إثرها إلى أن وصل إلىأرض الجزيرة بشمال العراق، و قد تفرق عنه جنوده أجمعون و بقي وحيدا شريدا، و اختفى ذكره شهورا، حتى لقي فلاحا من الأكراد في منطقة كردستان، و كانت جنود الخوارزمية قد قتلت أخاه من قبل، فتعرف عليه و أكرمه، حتى إذا نام جلال الدين و اطمأن قام إليه الفلاح و قتله بفأس عنده، و أخذ ما عليه من الجواهر و سلمها إلى شهاب الدين غازي صاحب تلك المنطقة، و الذي طالما ذاق من ويلات جلال الدين، و ذلك سنة 628هـ/1231م، و هكذا انتهت حياة

(1) ابن الأثير : الكامل، بيروت 1982م، ج12، ص 487-488 ؛ ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، بيروت، دار المسار، ص 245-246 ؛ النسوي : المصدر نفسه، ص299-324.

آخر سلاطين الدولة الخوارزمية.

ثم ضم شورمجان سنة629ﻫ/1232م، شمال إقليم فارس إلى إمبراطورية المغول، و زحف على إقليم أذربيجان فضمه إلى أملاكه، و بذلك الإنتصار المغولي الساحق و إلى جانب موت جلال الدين اكتمل سقوط الدولة الخوارزمية بسقوط إقليم فارس بأكمله باستثناء الشريط الغربي الضيق الذي تُسيطر عليه طائفة الإسماعيلية(1). و هكذا كانت نهاية الظالمين المفرطين، و ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط.

و دبّت الهزيمة النفسية داخل قلوب المسلمين، فما استطاعوا أن يحملوا سيفا، و لا أن يركبوا خيلا،و غاب عن أذهانهم الجهاد، ما سهَّل مُهمة المغول الذين وجدوا أبوابا مفتوحة و رقابا جاهزة القطع(*).

ثُم ذهب شورمجان يُرسخ حكم المغول في المنطقة لمدة خمس سنوات كاملة، من سنة 629ﻫ/1232م إلى سنة634ﻫ/1237م، و أثناء هذه السنوات لم تندلع عليه ثورة مسلمة واحدة، ولم يتحرك لقتاله جيش مسلم واحد، مع أن جيوش المسلمين تملأ المناطق المجاورة لفارس وأدربيجان، و ذلك في العراق و الموصل و مصر و الحجاز و غيرها، و ما أشبه زماننا بذلك الزمان.

و على هذا فإن المنطقة الآسياوية بأكملها كانت تموج بالاضطرابات و الفتن، و ليس في منطقة العراق و فارس فقط، بل في كل ديار المسلمين، فالحرب بين الأُمراء المسلمين في الشام ومصر كانت مُستمرة، و لم تتحد كلمتهم أبدا، بالرغم من أن معظمهم من نفس العائلة الأوربية، بل و أحيانا من الإخوة الأشقاء، و نتج عن ذلك أمر مريع في سنة 626ﻫ/1229م و هو تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين صُلحا، أي أن المسلمين في الشام اتفقوا على إعطاء بيت المقدس للصليبيين في مُقابل أن يترك الصليبيون بعض الإمارات في الشام للمسلمين، و عند رُؤية مثل هذه الأحداث في كل بلاد المسلمين، نُدرك لماذا فعل المغول ذلك بهذه البلاد مع ضخامتها و أعدادها و ثرواتها الهائلة، و لا جرم أن هذه سُنة مُطردة في الكون، فإن من كانت هذه حاله فلا بُد أن يُسلط عليه طواغيت الأرض، و مهما يكن فإن المغول قد نجحوا في فتوحاتهم السابقة إلى غاية سنة639ﻫ إلى ابتلاع النصف الشرقي للأمة الإسلامية و ظموا مُعظم الأقاليم الإسلامية في آسيا إلى دولتهم، و

(1) ابن الأثير : الكامل، بيروت 1982م، ج 12، 383-384، 495-503 ؛ حافظ أحمد حمدي : المرجع نفسه، ص193.

(*) يروي ابن الأثير، قال:"...حتى قيل إن الرجل الواحد منهم(يعني المغول) كان يدخل القرية أو الدرب و به جمع كثير من الناس، فلا يزال يقتلهم واحدا بعد واحد، ثم لا يتجاسر أحد يمُد يده إلى ذلك الفارس ". أنظر:
ابن الأثير : الكامل، بيروت1982م، ج12، ص 500-501.

قضوا على كل مظاهر الحضارة في هذه المناطق، كما شلُّوا تماما أي نوع من المقاومة في هذه المناطق الواسعة، و ظل الوضع كذلك لسنوات كثيرة لاحقة، بينما ظل القسم الأوسط من العالم الإسلامي و الذي يبدأ من العراق إلى مصر مُفرقا مُشتتا لا يكتفي فقط بمُشاهدة هذه الجيوش المغوليّة و هي تُسقِط مُعظم ممالك العالم الإسلامي في وقتهم، وإنما اشتغل أهله بالصراعات الداخلية فيما بينهم، و ازداد تفككهم بصورة كبيرة.

II- الإتصالات بين المغول و أهل المشرق الإسلامي بعد سقوط الدولة الخوارزميّة:

1- المغول و الخلافة العبّاسيّة في بغداد:

يُعتبر الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحد أسباب سقوط الخلافة الإسلامية، حتّى و لو أن ذلك كان بعد وفاته بعقود من الزمن، فقد أساء التخطيط لتجهيز الجيوش لحماية الأمة، و أفحش في ظلم الرعية، و لعل الدسائس التي كان يحيكها و الفتن التي كان يختلقها بين مختلف القوى الإسلامية في زمانه لهي أبلغ دليل عن مدى ظلم الرجل و قلة البصير.

دخل المغول إلى مدينة مراغة بأذربيجان سنة 618هـ/1221م، و أوقعوا فيها القتل، ثم فكر المغول في غزو مدينة أربيل في شمال العراق، فدب الرعب فيها و في مدينة الموصل، غرب أربيل، و خشي الخليفة العباسي الناصر لدين الله أن يعدل التتار عن مدينة أربيل لطبيعتها الجبلية، فيتجهون إلى بغداد بدلا منها، و بدأ يفيق من السبات العميق الذي أصابه في السنوات السابقة، و بدأ يستنفر الناس لملاقات المغول في أربيل إذا وصلوا إليها، و لكن الخليفة لم يستطع أن يجمع إلا ثمانمائة رجل فقط، و لم يستطع قائد الجيش "مظفر الدين" طبعًا أن يلتقي بالمغول بهذا العدد الهزيل، فانسحب، و لكن المغول ظنوا أنها خدعة و أن هذا الجيش ما هو إلا مقدمة العسكر العباسي، فانسحبوا بجيوشهم(1) لتجنب المعركة لأنهم كانوا يُقدرون إمكانيات العراق بأكثر من الحقيقة بكثير، و على ذلك فضلوا حرب الإستنزاف بتوجيه ضربات خاطفة موجعة للعراق، و عن طريق الحصار الطويل المستمر، و أيضا عن طريق عقد الأحلاف و الاتفاقيات مع الدول والإمارات المجاورة لتسهيل الحرب ضد العراق في الوقت المناسب، و لذلك انسحب المغول بإرادتهم ليطول بذلك عمر العراق عدة سنوات أخرى، و انقلب المغول يعبثون في الأرض فسادا.

و حينما تقدم جيش جلال الدين الخوارزمي إلى العراق، فمر قريبا من العاصمة العباسية بغداد في سنة 622هـ/1225م، خاف الخليفة الناصر لدين الله من أن يقتحم مدينته، فحصنها و جهز الجيوش، و فوق ذلك أرسل إلى المغول يستعين بهم على حرب جلال الدين، هذا و تاريخ المغول في الغدر لا يخفى على أحد ، فكيف يستعين الخليفة بمن هو أضر للأمة الإسلامية و للخلافة

(1) يروي ابن الأثير تلك الحادثة قائلا:"و حكى مظفر الدين قال: لما أرسل إلي الخليفة في معنى قصد التتار قلت له: إن العدو قوي، و ليس لي من العسكلر ما ألقاه به، فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس استنقذت ما أخذ من البلاد، فأمرني بالمسير، و وعدني بوصول العسكر، فلما سرت لم يحضر عندي غير عدد لم يبلغوا ثماني مائة طواشي، فأقمت، و ما رأيت المخاطرة بنفسي و بالمسلمين". أنظر:
ابن الأثير: الكامل، بيروت1982م، ج 12، ص 377-379.

العباسية من جلال الدين، ألم يعلم أن الدور يكون عليه بعد الإنتهاء من الخوارزميّين، ثم توفي الخليفة في السنة نفسها بعد سبع و أربعين سنة من الحكم(1).

و تولى الخلافة ابنه الظاهر بأمر الله و كان على النقيض من أبيه تماما، فقد كان رجلا صالحا، أظهر العدل و ألغى الضرائب الباهضة، و أعاد للناس حقوقهم، و لكنه لم يحكم طويلا، فما هي إلا تسعة أشهر و بضعة أيام حتى مات. ثم تولى من بعده المستنصر بالله، الذي ظل في كرسي الحكم حتى سنة 640هـ/1243م، أي حوالي سبعة عشر عاما، ثم خلفه ابنه المستعصم بالله.

- **الأوضاع الداخليّة لمدينة بغداد حين قدوم المغول إليها:**

يُعتبر المستعصم بالله(640-656هـ/1242-1258م) آخر الخلفاء العبّاسيّين في بغداد، قال فيه بن طباطبا:" كان المستعصم رجلاً متديّنًا، ليّن الجانب...، إلاّ أنّه كان مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمور المملكة، مطموع فيه، غير مهيب في النفوس، و لا مطّلع على الأمور، و كان زمانه ينقض أكثره بسماع الأغاني، و التفرُّج على المساخر...، و كان أصحابه مستولين عليه، و كلُّهم جُهَّال من أرذل العوام، إلاّ وزيره مؤيّد الدين محمّد بن العلقمي..."(2).

و ممّا اشتهر عنه أنّه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، يطلب منه جماعة من ذوي الطرب، و في تلك الحال وصل رسول هولاكو إليه، يطلب منه منجنيقات و آلات الحصار، فقال بدر الدين لؤلؤ: " أنظروا إلى المطلوبين، و ابكوا على الإسلام و أهله "(3).

كانت الأخبار تصل الخليفة تباعًا باقتراب جيوش المغول، و مع ذلك لم يتّخذ الأهبّة لمواجهتهم قبل أن يستفحل خطرهم،و كان يقول: " أنا بغداد تكفيني و لا يستنكرونها عليّ إذا نزلتُ لهم عن باقي

(1) ابن الأثير: الكامل، بيروت1982م، ج 12، ص 202 ؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 143 ؛ المقريزي: السلوك، ج1،ق1، ص218 ؛ ابن العبري: **تاريخ مختصر الدول**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1997م، ص 207.

(2) ابن طباطبا: **الفخري في الآداب السلطانيّة و الدولة الإسلاميّة**، المطبعة الرحمانيّة، ط1، مصر، 1927م، ص 244.
و قد أورد ابن كثير في البداية و النهاية معلومة خطيرة لاتليق إطلاقًا بمن قيّده الله سبحانه أمور الأمّة، فيقول في مستهلّ حصار التتار لبغداد:"... و أحاطت التتار بدار الخلافة يرشقونها بالنبال من كلّ جانب حتّى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي اخليفة و تضحكه، و كانت من جملة حظاياه، و كانت مولّدة تسمّى عرفة، جاءها سهم من الشبابيك فقتلها و هي ترقص بين يدي الخليفة فانزعج الخليفة من ذلك و فزع فزعًا شديدًا، و أحضر السهم الذي أصابها بين بديه فإذا عليه مكتوب إذا أراد الله إنفاذ قضائه و قدره أذهب من ذوي العقول عقولهم، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز، و كثرت الستائر غلي دار الخلافة- و كان قدوم هولاكوخان بجنوده كلّها، و كانوا نحو مائتي ألف مقاتل- إلى بغداد في ثاني عشر المحرّم من سنة 656هـ (19جانفي1258م). أنظر: ابن كثير : البداية و النهاية، ج13، ص 200.
و هكذا وسط فزع الأمّة و انقطاع السبل و ضعف العُدّة و العدد و فساد معظم الرعيّة و قد فشت فيهم المنكرات و القبائح، و خان وُلاّت الأمور أمورهم، نزلت همّة الخليفة و انصرف إلى اللهو و الترف وسط بحر من الأهوال.

(3) نفس المصدر، ص 40-41.

البلاد، و لا أيضًا يهجمون عليّ و أنا بها، و هي بيتي و دار مقامي "، و يقول لوزيره:"... بيني وبين هولاكوخان، و أخيه منكوخان صداقة و أُلفة... فلا بدّ أنّهما صديقيْن و موالين لي..." (1).

و فوق كلّ ذلك كان المستعصم يضنُّ المغول قُوّة فائتة مثل أسلافها البويهيُّون و السلاجقة وأنّ الخلود للخلافة العبّاسيّة إلى يوم الدين في اعتقاده(2).

و كان سكّان بغداد من أهل السنّة و الشيعة و المسيحيّين و اليهود، و كانوا في خلاف دائم حول المسائل الدينيّة و السّياسيّة، و لهذا كثُرت بينهم الفتن و المنازعات، من ذلك أنّه في أواخر عهد المستعصم، نشب قتال بين الشيعة و أهل السنّة، فعهد الخليفة إلى ابنه أبي بكر بفضّ هذا النزاع، فأغار أبو بكر على مقرّ الشيعة في الكرخ و ارتكب الفضائع، بقتل الرجال و سبي النساء، و استباحة الحرمات، فنقم الشيعة على المستعصم و على ابنه، و تمنّواْ زوال دولته(3).

و أمّا السلطة في بغداد فقد كانت مُفرّقة بين عدّة أطراف متنازعة، و كلّ منها ينقم من الأخرى، و يدبّر ضدّه المؤامرات و يُسفّه رأيه عند الخليفة، فدام الخلاف، و استحكم العداء، خصوصًا بين مؤيّد الدين ابن العلقمي، وزير المستعصم، الذي كان شيعيًا، و بين مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير السنيّ المذهب، فقد حدث قُبيل حملة هولاكوخان أن جمع الدواتدار الصغير

---

(1) ابن العبري: المصدر نفسه، ص 255 ؛ رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص272-273.
و كذلك فإنّ هذه الخيالات الفاسدة و أمثالها مالت به عن الصواب فجاءه ما لم يخطر ببال أمثاله.
يقول ابن شاكر الكتبي :" كان (المستعصم) متديّنًا، متمسّكًا بمذهب أهل السنّة و الجماعة على ما كان عليه والده و جدّه، و لم يكن على ما كانوا عليه من التيقّظ و الهمّة، بل كان قليل المعرفة و التدبير و التيقظ، نازل الهمّة، مُحبًا للمال، مهملاً للأمور، يتّكل فيها على غيره". أنظر :
ابن شاكر الكتبي: **فوات الوفيات**، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت –لبنان-، آذار (مارس) 1974م، دون طبعة، ج2، ص231 .

(2) رشيد الدين الهمذاني: **جامع التواريخ(تاريخ المغول في إيران)**، ترجمة محمّد صادق نشأة، و محمّد موسى هنداوي، و فؤاد عبد المعطي الصيّاد، القاهرة (دار إحياء الكتب العربيّة)، مايو 1960م، م2، ج1، ص 247 .
و انظر:
Grousset (René), **L'Empire des steppes : Attila, Gengis-Khan, Tamerlan**, Payot, Paris(16, boulevard S[t] Germain), 1939, p. 428 ; Grousset (R.), Histoire des croisades, T.III, p. 568 ; D'Ohsson, op.cit., T.II. , pp. 525-526.
و على حدّ تعبير الخليفة على لسان رسوله إلى هولاكو حينما جاء لحصار بغداد :" لو غاب عن الملك، فله أن يسأل عن المطّلعين على الأحوال، إذْ أنّ كل ملك قصد أسرة العبّاسيّين و دار السلام بغداد، صارت عاقبته وخيمة، و مهما قصدهما الملوك ذوُو الصلابة و أصحاب الشوكة، فإنّ بناء هذه الأسرة محكم للغاية، وسوف يدوم إلى يوم القيامة...". أنظر:
رشيد الدين الهمذاني : المصدر نفسه، ص 275 .

(3) الجوزجاني : **طبقات ناصري**، نشر وليم ناسوليس و مولوي خادم حسين و مولوي عبد الحي، كلكته، 1864م، ص 444، نقلاً عن الصيّاد، المغول في التاريخ، ص254 ؛ أبو الفدا : **المختصر في أخبار البشر**، دار المعرفة للطباعة و النشر، دون طبعة و دون تاريخ، بيروت، ج3،ص193؛ ابن كثير : البداية و النهاية، ج13، ص201.

حوله كثيرًا من رعاع القوم، و أخذ يُهدّدُ الأمن، و يضع الخطط لخلع الخليفة و تولية آخر مكانه. فلمّا علم الوزير بتلك المؤامرة، أخبر الخليفة، و لكنّ هذا لم يُصغ إلى نصيحته، و أمّن الدواتدار على حياته، و أمر بذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة، و من جُملة ما قال الدواتدار في حضرة الخليفة، أنّ الوزير مزوّر مخادع، حمله الشيطان بعيدًا عن الطريق المستقيم و مال إلى هولاكو(1). و لا شكّ أنّ تصرُّف الخليفة على هذا النحو، دليل على سوء الحالة التي وصلت إليها الخلافة قي هذا العهد، و أنّها لا محالة قد آذنت بالسقوط .

كان مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير يستند إلى تأييد السنيّين و رجال الجيش، و مُعارضًا لاقتراح الوزير، و مُصرًّا على مقاومة المغول. و لمّا فتح هولاكو قلاع الإسماعيليّة، و أرسل رسولاً إلى الخليفة يُعاتبه على إهماله في تسيير النجدة، شاور الخليفة وزيره، فنصحه ببذل الأموال و الهدايا و التحف له و لخواصّه، و عندما أخذوا في تجهيزها، أرسل الدواتدار الصغير باتفاق مع الأمراء الآخرين و وُفود بغداد يقولون : إنّ الوزير إنّما يُدبّرُ شأن نفسه مع التتار و هو يروم تسليمنا إليهم، فلا تُمكّنه من ذلك، فإنّنا سوف نُلقي القبض على الرسل و نأخذ أموالهم و نُعذّبهم، فعدل الخليفة عن إرسال الأحمال بسبب ذلك(2).

ـ سقوط بغداد و خضوع الحكام المسلمين لهولاكو:

جاء المغول عدّة مرّات إلى العراق في عهد المستعصم، فحدثت مناوشات بينهم و بين جيوش الخليفة، و لكنّهم لم يُوفّقوا للاستيلاء على بغداد حتّى أوائل سنة(656هـ/1258م)(3). وعندما صمّم هولاكو على مهاجمة الإسماعيليّة، أرسل إلى الخليفة يطلب إليه أن يُمدّه بجيش ليُعاونه في القضاء على تلك الطائفة.

و لمّا شاور الخليفة أتباعه، حذّروه، و أدخلوا في روعه أنّ هولاكو إنّما يُريد بهذه الوسيلة أن تخلو بغداد من الجيش، حتّى يسهل عليه أن يستولي عليها في أيّ وقت يشاء دون مشقّة، فامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو(4).

و في سنة(644هـ/1246م) قدم رسولان من المغول إلى بغداد، فاجتمعا بالوزير مؤيّد الدين ابن العلقمي، فتغمّت على الناس بواطن الأمور. و كان يُراسل هولاكو سرًا ليُطْلعه بضعف الخليفة، و يُسهّل لهم مهمّة الغزو، و الخليقة المستعصم لا يطّلع على باطن الأمور. و لمّا حاول الخليفة

(1) ابن كثير :المصدر نفسه، ص 262-264 .
(2) ابن العبري: المصدر نفسه، ص 270 ؛ رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص 272 .
(3) ابن الفوطي: المصدر نفسه، ص199-200 ؛ رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م1، ج2، ص243-245 .
(4) ابن العبري: المصدر نفسه، ص 269 ؛ ابن كثير: البداية و النهاية، ج13، ص200.

ملاقاة جيش المغول، قطع ابن العلقمي أرزاق الأجناد مثلما فعل سنة(648هـ/1250م)، فثبّط همّةَ الخليفة، و صَرَفهُ عن الاستعداد بحُجّة أنّه رتّب شؤون الصُّلح ، و كان حريصًا على زوال دولة بني العبّاس(1).

و لمّا فرغ هولاكو من محاربة الإسماعيليّة، قصد همذان، و في شهر رمضان سنة(655هـ/1257م) أرسل رسولاً يحمل رسالة إلى الخليفة مصاغها في قالب من التهديد والوعيد، لامتناعه عن إرسال المدد. و لم يكن هذا الإحتجاج في الواقع إلاّ ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنيّة التي سبق أن منحت في بغداد لأمراء البويهيّين ثمّ لسلاطين السلاجقة. يقول هولاكو في هذه الرسالة:" لا بدّ أنّه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص و العام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغوليّة منذ جنكيزخان، و علمت أيّ مذلّة لحقت بأسر الخوارزميّين و السلاجقة و ملوك الديلم و الأتابكة و غيرهم ممن كانوا أرباب العظمة و أصحاب الشّوكة، و مع ذلك لم يُغلق باب بغداد قط في وجه أيّ طائفة من تلك الطوائف التي تولّت هنا السيادة، فكيف يُغلقُ هذا الباب في وجهنا رغم ما لنا من قدرة و سلطان؟... و قد نصحناك قبل هذا. و الآن نقول لك : تجنّب الحقد والخصام و الضغينة، و لا تحاول أن تقف في سبيلنا لأنّك ستتعب نفسك عبثًا. و مع هذا فقد مضى ما مضى، فعليك أن تهدم الحصون و تطمّ الخنادق، و تسلّم ابنك المملكة، ثمّ تتوجّه لمقابلتنا، و إذا كنت لا تريد ذلك فأرسل إلينا الوزير و سُليمان شاه و الدواتدار، ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نُقصان، فإذا أطعت أمرنا، فلا حقد و لا ضغينة، و نُبقي لك ولايتك و جيْشك و رعيّتك. و أمّا إذا لم تنتصح، و سلكت طريق الخلاص و الجدال، فأعدّ جيشك، و عيّن جبهة للقتال فإنّنا مستعدّون لمحاربتك، و اعلم أنّني إذا غضبت عليك، و قدت الجيش إلى بغداد، فسوف لا تنجو منّي، و لو صعدت إلى السماء، أو اختفيت في باطن الأرض...، فإذا أردت أن تحفظ رأسك و أسرتك، فاستمع لنصحي بمسمع العقل و الذكاء، و إلاّ فسأرى كيف تكون إرادة الله"(2).

رفض الخليفة هذا التحذير المغولي، و أوفد شرف الدين بن الجوزي، و كان رجلاً فصيحًا ومعه بدر الدين محمود وزنكي النخبواني بصحبة الرسل، و أجاب قائلاً:" أيها الشاب الحدث، الذي لم يخبر الأيّام بعد، و الذي يتمنّى قصر العمر، و الذي أغرته إقبال الأيّام و مساعدة الظروف،

(1) أبو الفدا : المصدر نفسه، ص 193-194 ؛ ابن كثير : البداية و النهاية، ج13، ص201 ؛ ابن خلدون : **العبر و ديوان المبتدأ و الخبر**، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1971م، ج3، ص536-537 ؛ المقريزي : المصدر نفسه، ج1، ق2، ص412 ؛ ابن تغري بردي : المصدر نفسه، ج6، ص356، ج7، ص 20 ؛ السيوطي : المصدر نفسه، ص466 ؛ ابن الوردي : المصدر نفسه، ص282.

(2) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص 267-268 ؛ ابن كثير: البداية و النهاية، ج13، ص200.

فتخيَّل نفسه مسيطرًا على العالم، و حَسَبَ أنّ أمره قضاء مبرم، و أمر محكم. لماذا تطلب منّي شيء لن تجده عندي ؟... ألا يعلم الأمير أنّه من الشرق إلى الغرب، و من الملوك إلى الشحّاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمن بالله و يعتنقون الأديان، كلّهم عبد هذا البلاط و جنودٌ لي ؟... إنّني عندما أشير بجمع الشتات، سأبدأ بجسم إيران، ثمّ أتوجّه منها إلى بلاد توران، و أضع كلّ شخص في موضعه، و عندئذ سيصير وجه الأرض مملوءًا بالقلق و الاضطراب...غير أنّي لا أودّ الحقد و الخصام، و لا أن أشتري ضرر الناس و إيذائهم، كما أنّني لا أبغي من وراء تردُّد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعيّة بالمدح و القدح، خصوصًا أنّي مع الخاقان و هولاكوخان قلب واحد و لسان واحد... فإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبّة، فما شأنك بخنادق رعيّتي و حصونهم؟... أسلك طريق الودّ، و عُدْ إلى خراسان، و إن كنت تريد الحرب و القتال، فلا تتوان لحظة و لا تعتذر، فإنّ لي ألوفًا مؤلّفة من الفرسان و الرجالة هم على أهبّة الاستعداد للقتال"(1).

وصل رسل الخليفة إلى هولاكو، فلمّا اطلع على الردّ، و علم بما لحق رسله من أذى العامّة في بغداد، غضب، و أعاد رسل المستعصم، و حمّلهم رسالة أخرى تتضمّن إنذارًا نهائيًا له، صيغ في لهجة شديدة عنيفة إذ يقول:" إنّ الله الأزلي رفع جنكيزخان، و منحنا وجه الأرض كلّه من الشرق إلى الغرب، فكلٌّ من سار معنا تبقى له أمواله... لقد فتنك حبّ الجاه و المال، و العجب و الغرور بالدولة الفانيَة، ... و أنّ في أُذنيك وقرًا، فلا تسمع نصح المشفقين، و لقد انحرفت عن طريق آبائك و أجدادك، و إذن فعليك أن تكون مستعدًا للحرب و القتال فإنّي متوجّه إلى بغداد بجيش كالنمل

(1) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه ، م2، ج1، ص 269-270 .

حرص الخليفة على التهديد في رسالته أكثر من حرصه على المسالمة، و ربّما كان يظنُّ أنّ ذلك يرعب هلاكو، و يجعله يفكر في التراجُع، و لكنّه كان واهمًا، لأنّه لم يكن له سندًا قويّ يمكنّه من هذا الموقف المتشدّد مع المغول المحاربين المتمرّسين، ثمّ إنّه إذا كان يعتمد على العالم الإسلامي الذي يدّعي أنّه رهن إشارته، فقد أخطأ كذلك، لأنّ المستعصم كان أوّل من يعلم حقيقة التفكُّك و الإنحلال الذي أصاب العالم الإسلامي في ذلك الوقت، فلا يُعقل أن يهبّ لنجدته مهما كانت الأسباب. و عندما اشتدّ مُهاجمة المغول لأسوار بغداد الشرقيّة، أرسل الخليفة إلى هولاكو سفارة تظمُّ البطريق النسطوري ماكيكا لعلّه يُؤثِّرُ في زوجة هولاكو النسطوريّة.

يقول السيّد الباز العريني: "الواقع أنّ الخليفة اعتقد بأنّه سوف يُلبّي نداءه الأيُوبيُّون في الشّام و المماليك في مصر، فيهرعون إلى الانطواء تحت العلم الأسود شعار العبّاسيّين، و سوف تُعلن إيران و تركستان التمرُّد و العصيان على المغول، على أنّ هذه الآمال كانت خادعة، إذ أنّ الأيُوبيّين بالشّام و الممالك بمصر، توافر عندهم من المشاكل ما يمنعهم من النهوض لمساعدة بغداد، و لن يتحرّك الأتابكة الترك و الفرس لمساندة الخليفة، بعد أن استجدّ بهم الخوف و الرعب من المغول". أنظر: الباز العريني: **المغول**، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، بيروت، 1981م، ص 216-217. و أنظر: محمود سعيد عمران: **تاريخ الحروب الصليبيّة(1095-1291م)**، دار المعارف الجامعيّة، مصر، 2002م، ص 322.

و الجراد، و لو جرى سير الفلك على شاكلة أخرى، فتلك هي مشيئة الله العظيم "(1).

و لمّا عُرضت رسالة هولاكو على الخليفة، استشار كبار دولته، فرأى الوزير أن يُرسل الأموال و الهدايا إلى هولاكو، و يقدّم الاعتذار إليه، و يجعل الخطبة و السكّة باسمه مثل ما كانت الأمور أيّام البويهيّين و السلاجقة، و هذا كفيل بأن يُثني المغول عن عزمهم، و لا يتعرّضوا للخليفة بسوء، و كان المستعصم يميل إلى الأخذ بهذا الرأي(2)، و كان أبوه المستنصر قد استخدم عساكر عظيمة لم يستخدم مثلها أبوه و لا جدُّه، و كانت تزيد على مائة ألف و عشرين ألف فارس، و كان مع ذلك يُصانع المغول و يُهادنهم و يُرضيهم، و قصدت المغول البلاد فلقيهم عسكره فهزموا المغول هزيمة عظيمة، و كان له أخ يُقال له الخفاجي، كان يقول: إن ولّيتُ لأعبُرنّ بالعساكر نهر جَيْحون، و آخذ البلاد من أيدي المغول و أستأصلهم، فلمّا مات المستنصر لم ير الدُّويدارُ الكبير و لا الشَّرابيّ تقليد الخفاجيّ خوفًا منه، و أقاما المستعصم للِيْنه و ضعف رأيه، ليكون لهما الأمر، فأشار عليه الوزير ابن العلقمي بقطع أكثر الجند، و أنّ مصانعة المغول و إكرامهم يحصل به المقصود، ففعل ذلك، ثمّ إنّ الوزير أرسل أخاه إلى المغول يستدعيهم، و أطمعهم في البلاد، وسهّل عليهم ذلك، و طلب أن يكون نائبهم، فوعدوه بذلك و ساروا قاصدين بغداد(3).

و قبل أن يقدم هولاكو على غزو بغداد، استشار المنجّمين فيما يتعلّق بأحكام النجوم و طوالع السعد و النحس. أمّا الفلكي حسام الدين الذي جاء برفقة هولاكو من قبل خان المغول العظيم "منكو"، فقد كان سنيًا يعطف على الخليفة العبّاسي، و يحرص على منع هولاكو من غزو بغداد،

(1) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص 270-271 .

اختلفت الروايات عن كيفيّة موت الخليفة، و لكنّ فارطانVartan يذكر أنّ هولاكو قتله بيديه. أمّا المسيحيّين في بغداد فقد نجوا بفضلحماية دوقوز خاتون. أنظر: Vartan, op.cit., p. 291.

قتل المغول في بغداد كل ما عثروا عليه من الرجال و النساء و الولدان و المشايخ و الكهول و الشبّان، فجرت منهم وديان الدماء، و لم ينجو إلاّ من دخل في الآبار و قنى الوسخ، ثمّ هلكوا غرقًا بعد فتح المغول السدود، و لم ينجوا منهم أحد سوى أهل الذمّة من اليهود و النصارى و من التجأ إليهم و إلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي و طائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا بأموالهم. أنظر : ابن كثير: البداية و النهاية، ج13، ص201-202.

(2) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، ص 271-272 ؛ ابن كثير : البداية و النهاية، ج13، ص 200.

يُحدّثُنا صاحب الفخري عن صديقه" فلك الدين محمّد بن إيدمر" فيقول:" كنت في عسكر الدويتدار الصغير لمّا خرج إلى لقاء التتاربالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ستّ و خمسين و ستمائة. قال فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل، فكان الفارس منّا يخرُج إلى المبارزة، و تحته فرس عربي، و عليه سلاح تام كأنّه و فرسه الجبل العظيم، ثمّ يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنذه الحمار، و في يده رمح كأنّه المغزل، و ليس عليه كسوة و لا سلاح، فيضحك منه كلّ من رآه، ثمّ ما تمّ النهار حتّى كانت لهم الكرّة، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح كلّ الشرّ، ثمّ كان من الأمر ما كان ". أنظر: ابن طباطبا: المصدر نفسه، ص 246-247 .

(3) السيوطي: المصدر نفسه، ص 466-467، نقلاً عن الصيّاد، المغول في التاريخ، ص263-264 ؛ الذهبي: **تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، 1998م، ج46، ص453-454 ؛ الذهبي: العبر ، ج3، سنة 656هـ، ص277 ؛ أبو الفدا :المصدر نفسه، ص194.

فذهب يُؤكّد لهُحدوثُ خلل في نظام الكون، فضلاً عن أنّ الحملة ستكون وبالاً على الخان نفسه، فكان ممّا قاله : الحقيقة أنّ كلّ ملك تجاسر – حتّى هذه اللحظة- على قصد الخلافة و الزحف بالجيش إلى بغداد، لم يبقى له العرش ولا الحياة. و إذا أبى الملك أن يستمع لنصائحي، و تمسّك بمشروعه، فسينتج عنه ستُّ مصائب كبيرة :

أوّلاً: تموت الخيول كلّها، و يمرض الجنود،

ثانيًا: لن تطلع الشمس،

ثالثًا: لن ينزل المطر،

رابعًا: تهبُّ رياح شديدة، و يُعاني العالم من الزلازل،

خامسًا: لن ينبت النبات في الأرض،

سادسًا: يموت الخان الأعظم في هذا العالم(1).

و كانت لنصير الدين الطوسي مكانة في بلاط الخان منكو بقراقورم لرسوخه في علم الفلك، فسُيِّر في حملة هولاكو كدليل و مُستشار. و لمّا كان يكره الخليفة، و يعمل على إسقاطه، فقد نقض كلّ ما قاله حسام الدين، و طمأن هولاكو حينما استشاره، بأَنْ لا وجود لموانع تحُول دون الغزو، و لم يقف عند هذا الحدّ، بل أخذ يُؤيّد وجهة نظره بالحجج القويّة التي تكذّب بنبوّة حسام الدين، فذكر أنّ الكثيرين من أصحاب الرسول(صلّى الله عليه و سلّم) استشهدوا، و مع ذلك لم يحدث فساد قط، و إذا قيل أنّ ذلك خاص ببني العبّاس، فإنّ الكثيرين من الناس قد خرجوا على هذه الأسرة، و قتلوا منهم الخلفاء، دون أن تختلّ الأمور(*)، و أخذ نصير الدين الطوسي يتمثّل بطاهر بن الحسين قائد المأمون الذي قتل محمّدًا الأمين، و بالأمراء الذين قتلوا المتوكّل، و المنتصر، و المعتز، و غيرهم، فسُرّ هولاكو بذلك كثيرًا(2).

(1) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، ص 279 .

(2) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص 279-280 .

يذكر ابن كثير نصير الدين هذا (و الحقيقة لم أجد له للدين نصرة بعد هذا)، "...و كان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لمّا فتح الألموت، و انتزعها من أيدي الاسماعيليّة، و كان النصير وزيرًا لشنس الشموس و لأبيه من قبل علاء الدين بن جلال الدين، و كانوا ينسبونه إلى نزار بن المستنصر العبيدي، و انتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلمّا قدم هولاكو و تهيّب من قتل الخليفة هوّن عليه الوزير ذلك فقتلوه...". أنظر: ابن كثير: البداية و النهاية، ج13، ص201.

(*) كان بين الخليفة المسترشد و السلطان مسعود السلجوقي وحشة، فأوعز الأخير إلى الإسماعيليّة بقتل الخليفة، فقتلوه سنة(529هـ/1134م) و مثّلوا به، و لمّا حاول الخليفة الراشد الثأر لأبيه قتلوه سنة(532هـ/1137م). أنظر: الديار بكري: **الخميس في أحوال أنفس نفيس**، المطبعة الوهبيّة، القاهرة (1283هـ/1866م)، ج2، ص 362.

أصدر هولاكو على إثر ذلك أمره بأن تتحرّك جيوش المغول من أطراف بلاد الروم عن طريق إربل و الموصل متّجهة نحو بغداد لتحاصرها من الجهة الغربيّة، و تنتظر حتّى تصل إليهم جيوش هولاكو من الناحية الشرقيّة. أمّا كيتوبوقا، أحسن قوّاد هولاكو، فقد اتّجه بالجناح الأيْسر إلى العاصمة العبّاسيّة عن طريق لورستان و خوزستان، كما أنّه أنفذ إليها بعض أمراء المغول عن طريق كردستان الحاليّة.

و في أوائل المحرّم سنة(655هـ/1257م) نزل هولاكو من همذان إلى دجلة عن طريق كرمانشاه و حلوان، و كان معه في تلك الغزوة الأمير أرغون و الخواجه نصير الدين الطوسي والوزير " سيف الدين البيتكجي، و علاء الدين عطا ملك الجويني"(*)، و استميل إلى جانبه سكّان الأماكن الجبليّة المتاخمة للعراق و كافّة سلاطين و كُتّاب بلاد إيران بواسطة الأموال، منهم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل الذي أمدّه بالعسكر، و الأتابك أبو بكر، و كثيرًا من جنود سليمان شاه(1)، و كل ذلك خوفًا على أنفسهم من المغول و طمعًا في العيش و لوْ للحضات في دنياهم التعيسة تلك.

و لمّا انتهى حشد القوّات المغوليّة، و أقام هولاكو معسكره شرق بغداد، حاول الجيش الصغير الذي أعدّه الخليفة بقيادة مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير أن يحول دون استقرار المغول في مكانهم، فكان النصر حليف المسلمين ابتداء، لكنّ أكثرهم كان قد تسلّل إلى المدينة ليلا، و لم يشعروا بعوْد المغول الذين صبّحوهم، فهزموا الباقية هزيمة منكرة، و قُتل عدد كبير من الجند،إمّا بالسيف، أو غرقا في مياه دجلة، فلم يسع مجاهد الدين إلاّ الهرب مع قليل من أتباعه(2).

(1) سليمان شاه بن برجم الأيُّوبي هو أحد قوّاد المستعصم المشهورين، يقترن اسمه بحادثة سقوط بغداد، إذ كان أحد الأشخاص الثلاثة الذين آلت إليهم مقاليد الأمور في دولة المستعصم : سليمان شاه، و الدواتدار الصغير، و مؤيّد الدين بن العلقمي، و ذلك بعد وفاة إقبال الشرابي و الدواتدار الكبير، و سليمان شاه كان في مقدّمة الأشخاص الذين أشاروا على المستعصم برفض مهادنة المغول و الإستعداد للقائهم. و نظرًا لأهميّته في دولة المستعصم، كان هولاكو في رسائله إلى الخليفة، يطلب إليه أن يُرسل سليمان شاه، فكان الخليفة يعتذر دائمًا. و هكذا إلى أن صار النصر محققًا للمغول، فأُجبر الخليفة على إرساله مع الدواتدار الصغير إلى هولاكو. أنظر: رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، ص 281 ؛ ابن كثير، البداية و النهاية، ج13، ص 200.

(2) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، ص 285-287 ؛ ركن الدين بيبرس الدوادار: **زبدة الفكر في تاريخ الهجرة**، تحقيق دونالدس ريتشاردز، الشركة المتحدة للتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، 1998م، ص36-37 ؛ الذهبي: **العبر في خبر من غبر**، تحقيق أبو هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1985م، ج3، سنة 656هـ، ص 277.

(*) هو الأمير سيف الدين البيتكجي بهارد بن عبد الله الخوارزمي وزير هولاكو و مدبّر مملكته. قدم مع هولاكو عندما جاء بحملته على إيران عام 653هـ. و بعد أن فرغ هولاكو من فتح بغداد، طلب إليه سيف الدين أن يُرسل مائة نفر من المغول إلى النجف ليُحافظوا على قبر أمير المؤمنين عليّ، و السكّان القاطنين هناك. أنظر:
رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، ص 281-282 .

و بعد الهزيمة المنكرة التي مُني بها جيش الخليفة، الهزيل، رجع سليمان شاه، و مجاهد الدين أيبك الدواتدار الصغير إلى الخليفة ليُخبراه بما حدث، و أفهماه أنّه لا طاقة لمن بقي من جيش المسلمين، على الصمود أمام المغول، البالغ عددهم مائتي ألف جنديّ و أكثر، و اقترحا عليه أن ينقل خزائنه و نساءه في سفينة إلى البصرة عبر نهر دجلة، غيث ما يأتيهم نصر الله. ولكنّ الوزير أقنع الخليفة بالبقاء، لأنّه مهّد طريق الصلح، و أنّ هولاكو سيأتيه طائعًا منقادًا. ثمّ حثّه على إرسال ابنه أبا بكر إلى المغول ليرى مصداق ما يقول، فاستصوب الخليفة رأي وزيره، و في الوقت نفسه طلب ابن العلقمي إلى هولاكو سرًا أن يخدع أبا بكر بمَعْسُول القَوْل، حتّى تتمّ المؤامرة. فلمّا مثل أبو بكر بين يديه و رأى منه حفاوة و معاملة طيّبة، رجع إلى أبيه، و أخبره بما رأى و سمع، ففرح الخليفة، و لم يشكّ في حسن نيّة المغول نحوه، و خرج من بغداد للقاء هولاكو بناءً على إشارة الوزير،و اصطحب معه ألف و مائتي شخص من أشراف القوم، ثمّ استدعى ابن العلقمي الفقهاء والأمثال، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد و المدرّسين، و منهم ملك الأمراء ركن الدين الدوايدار المستنصري و أستاذ دار الخلافة العلاّمة محيي الدين بن الجوزي و أولاده، حتّى إذا اكتمل عددهم في قبضة المغول، قُتلُوا عن آخرهم(1)، على أنّ الرواية الشائعة تذكر أنّه على إثر الهزيمة التي مُني بها جيش الخليفة، خرج الوزير مؤيّد الدين بن العلقمي إلى هولاكو، فتوثّق منه لنفسه، و عاد إلى المستعصم، و أخبره أنّ هولاكو يُبقيه في الخلافة كما فعل بسلطان الروم، و يُريد أن يُزوّج ابنته من ابنه أبي بكر(2)، و حسّن له الخروج إلى هولاكو، فخرج من بغداد، و معه أبناؤه الثلاثة. فلمّا وصلوا إلى هولاكو، لم يُبدي أثرًا للغضب، و لاطفهم، ثمّ طلب إلى الخليفة أن يُنادي في الناس بإلقاء أسلحتهم، و الخروج من المدينة لإحصائهم، فلمّا ألقى النّاس أسلحتهم و خرجوا، قتلوا جميعًا. أمّا الخليفة و أولاده، فوُضعوا تحت الحراسة إلى حين(3).

(1) الجوزجاني: المصدر نفسه، ص 427-428 ؛ السيوطي: المصدر نفسه، ص 465- 467 ؛ ابن الوردي: المصدر نفسه، ص283.

(2) وصاف الحضري(الشيرازي): **تاريخ وصاف**، بمباي 1269هـ، ص37، نقلاً عن الصياد، المغول في التاريخ، ص272 ؛ أبو الفدا: المصدر نفسه، ص 194 ؛ ابن الوردي: **تتمّة المختصر في أخبار البشر(تاريخ ابن الوردي)**،إشراف و تحقيق أحمد رفعة البدراوي، الطبعة الأولى، دار المعارف-بيروت-لبنان، (1389هـ/1970م)، ج2، ص283 ؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، ج2، ص122-123؛ السيوطي: المصدر نفسه، ص 471-472 ؛ الذهبي: العبر ، ج3، سنة 656هـ، ص 278.

(3) أُحكم الحصار يوم الثلاثاء 22 من المحرّم(656هـ/1258م) حول مدينة بغداد، و استمرّ حتى نهاية هذا الشهر، و في خلال تلك الفترة كان المغول يُطلقون يد التخريب في المدينة، و يفتحون الأبراج حتّى استولوا بهجماتهم على القسم الشرقي من التحصينات. و لمّا رأى الخليفة حرج موقفه، أراد أن يُهدّئ المغول و يُثنيهم عن عزمهم إتمام الفتح، فأرسل إليه الرسل و الهدايا. و لكنّ هولاكو لم يرضى بذلك، و أرسل نصير الدين الطوسي إلى الخليفة يأمره بإحضار سليمان شاه و الدواتدار، فوجد نفسه مضطرًا إلى إطاعة هذا الأمر، و طلب إلى المذكورين أن يذهبا لمقابلة هولاكو. فلمّا وصلا إليه، أعادهما إلى بغداد لاصطحاب إتباعهما و كلّ ما يخصُّهما، بحجّة أنّهم سيُنفَوْن جميعًا إلى مصر و الشّام، فخرج معهما جند بغداد و كثير من السكّان ظانّين أنّ ساعة الخلاص قد حانت. فلمّا خرج هذا الجمع أمر هولاكوخان بقتلهم عن آخرهم. و في 02 صفر، قتل =

كان مؤيّد الدين ابن العلقمي يتولّى الوزارة للخليفة المستعصم مدّة أربع عشرة سنة، و كان كُفئًا خبيرًا بتدبير شؤون الملك، وكان الخليفة أوّل من يثق به و يطمئنُّ إليه، غير أنّ بعض حاشية الخليفة، كانوا يحسدونه، و يكيدون عليه، فلمّا رأى من نفسه العجز عن مقاومتهم، تخاذل و كفّ يده عن أكثر الأمور، حتّى أنّ أغلب المصادر الإسلاميّة تنسب إليه التواطؤ مع هولاكو، و سبَبُ احتلال بغداد و مقتل الخليفة، إذ كان من كبار الشيعة الرافضة، و تألّم كثيرًا لنهب الكرخ(*) السَنَة قبل سقوط بغداد، و تخريب مشهد الإمام موسى الكاظم، و إهانة الشيعة على يد أبي بكر بن المستعصم. و لهذا كتب إلى وزير أربل :"... و قد ديس البساط النبوي، و نُهبت العترة العلويّة، واستؤسرت العصابة الهاشميّة."

هذا و يذهب بعض المؤرّخين إلى أنّ ابن العلقمي، و أثناء جهاد المسلمين في بغداد ضدّ المغول، لم يتورّع عن إصدار أمره بفتح سدّ كان مُقامًا على نهر يقع خارج بغداد، فغرق بسببه الكثير من جيش الخليفة(1). أمّا سكّان الكرخ، و المواضع حول مشهد الإمام موسى في الكاظميّة، من الشيعة، فكانوا يكرهون الخليفة السنيّ، فاتّصلوا سرًا بالعدوّ الكافر(2).

أمّا المقريزي فيُقرّر بأنّ خيانة ابن العلقمي، كانت قبل حادثة الكرخ، فيقول في عرضه لحوادث سنة 654هـ :" و فيما وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيّد الدين محمّد بن العلقمي ببغداد، و تحدّثوا معه، و وعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدّة مواعد، و الخليفة في لهوه لا يعبأ بشيء من ذلك(3).

= الدواتدار الصغير و سليمان شاه مع سبعمائة شخص من أقاربه و أتباعه، و كذالك قُتل تاج الدين ابن الدواتدار الكبير، و أُرسلت رؤوس هؤلاء الثلاثة إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليُعلّقها على أسوار مدينته. و رُغم أنّ بدر الدين كان صديقًا لسليمان شاه، فإنّه لم يكن في وسعه إلاّ أن يذرف الدمع، و يُذعن للأمر، فعلّق تلك الرؤوس خوفًا من بطش هولاكو و تجنُّبًا لنقمته. و في يوم الأحد 04 من صفر سنة 656هـ (10 فبراير 1258م) خرج الخليفة من بغداد، و سلّم نفسه و عاصمته للمغول دون قيد أو شرط، بعد أن وعده هولاكو بالأمان. أنظر:

رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، ص 290 ؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، سنة 656هـ، ص 277.

(1) الجوزجاني: المصدر نفسه، ص 427، نقلاً عن الصيّاد، المغول في التاريخ، ص272 .

(2) لسترانج(ج) Le Strange (Guy): **بغداد في عهد الخلافة العبّاسيّة**، ترجمة بشر يوسف فرنسيس، الطبعة الأولى، بغداد(1355ه/1936م)، ص 292. و انظر أيضًا :

Le Strange(Guy),**The Lands of the Eastern Caliphate(Mesopotamia, Persia, and central Asia from the Moslem Conquest To the time of Timur)**, Third Impression, London(Frank Cass and Co. LTD.), 1966, p.219.

(*) الكرخ مدينة بالجبل، بين أصبهان و همذان، و هي في نصف الطريق و إلى همذان أقرب. أنظر:

عبد السلام محمّد هارون : **معجم مقيّدات ابن خلكان**، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة (1407هـ/1987م)، ص 277 ؛ النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب،ج27، ص 257.

(3) المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص 400 .

هناك من المؤرخين، الشيعة منهم خاصّة، من برّء ابن العلقمي من تهمة الخيانة، و ألقواْ كلّ اللوم على الخليفة و ابنه أبي بكر، و الأُمراء و قوّاد الجيش، و من هؤلاء " محمّد بن علي بن طباطبا" ، بقوله:" و نسبه الناس إلى أنّه خامر، و ليس ذلك =

يقول ابن الوردي:" أراد ابن العلقمي نصرة الشيعة فنصر عليهم، و حاول الدفع عنهم فدفع إليهم، و سعى و لكن في فسادهم، و عاضد و لكن على سبي حريمهم و أولادهم، و جاء بجيوش سلبت عنهم النعمة، و نكبت الإمام و الأمّة، و سفكت دماء الشيعة و السنّة و خلّدت عليه العار واللّعنة "(1).

أوقع سقوط بغداد العالم الإسلامي في فزع سارع على إثره حُكّامه المستضعفون إلى الطاغية

= بصحيح،و من أقوى الأدلة على عدم مخامرته، سلامته في هذه الدولة، فإنّ السلطان هولاكو لمّا فتح بغداد، و قتل الخليفة، سلّم البلاد إلى الوزير، و أحسن إليه و حكّمه، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه". ثمّ سرد رواية سمعها عن أحمد بن الضحّاك ابن أخت الوزير مفادُها أنّ ابن العلقمي لم يلب دعوة هولاكو إلاّ تحت ضغط الخليفة، و أنّ هولاكو استمع إليه، و استحسنه، فلمّا فتح بغداد، سلّمها إليه.

أنظر: ابن طباطبا: المصدر نفسه، ص 249 .

و الحقيقة أنّ ابن طبابطا أحسّ بفداحة جُرم ابن العلقمي، أخاه في المذهب، الذي كان في ضياع الخلافة بتواطئه مع المغول، ثمّ إنّ المصيبة أصابت الشيعة أيضًا، و هم جميعًا في النهاية مسلمون.

(1) ابن الوردي: المصدر نفسه، ج2، ص283، حاشية 1.

و أمّا عبد الله الشيرازي فيُقرّر أنّ الوزير ابن العلقمي، لم يلق ما كان يُؤمّلُه من المغول، بل على العكس كانوا ينظرون إليه نظرة ازدراء و احتقار بسبب خيانته للخليفة، و عاملوه بمنتهى الإذلال و الإهانة، إذ جعلوه تابعًا لشخص يُدعى ابن عمران، كان خادمًا في دولة المستعصم. أنظر : وصاف الحضري(الشيرازي)، المصدر نفسه، ص 41-42 .

أمّا محمّد ابن شاكر الكتبي، فيذكر أنّ بعض أهل بغداد قالوا لابن العلقمي :"يا مولانا أنت فعلت هذا جميعه حميّة، و حميت الشيعة، و قد قُتل من الأشراف الفاطميّين خلق و ارتُكبت الفواحش مع نسائهم، فقال: بعد أن قُتل الدوادار و من كان على رأيه لا مبالاة بذلك". و أمّا من صور الاحتقار فيذكُر أنّ فارسًا تتريًا ممّن ليس له وجاهة دخل على ابن العلقمي، فسار بفرسه على بساط الوزير و خاطبه و بال الفرس على البساط فأصاب ثياب الوزير و هو صابر على الهوان، ولم تطل مدّته حتّى مات غمّا و غيظًا أوائل سنة 657هـ. أنظر : فوات الوفيات، ج3، ص 252.

و يروي النويري، "أنّ هولاكو استدعى الوزير مؤيّد الدين محمّد ابن العلقمي، و كان قد كاتبه و حثّه على قصد بغداد، و أضعف جيوش الإسلام، فلمّا مثل بين يدي هولاكو سبّه و وبّخه على عدم موافاته لمن هو وليُّ نعمته، و أمر بقتله فقُتل، و قيل لم يُقتل بل استبقاه و أنّ امرأة رأته في يوم و هو على برذون ليس معه أحد فنظرت إليه و قالت: يا بن العلقمي هكذا كنت في أيّام أمير المؤمنين ؟ ". أنظر : النويري: المصدر نفسه،ج23، ص 190.

أمّا الدوادار، فيقول:" ... و أمّا الوزير و هو يومئذ مؤيّد الدين محمّد بن العلقمي فإنّ هولاكو استدعاه بين يديه و عنّفه على سوء سيرته و خبث سريرته و ممالأته على ولي نعمته و أمر بقتله... كان على ما يُقال من أشدّ البواعث لهولاكو على قصد دار السلام و انتهاك حرمة الإسلام و كاتبه مرارًا و حثّه على التوجه إليها مدرارًا و و عده المظافرة و المناصرة والمهاجرة و المخامرة و سبب ذلك أنّه كان شيعيًا..." و ذكر تألم الوزير لفاجعة الكرخ، ثُمّ قال"... و لمّا عزم الوزير المذكور على استدعاء هولاكو كتب إلى صاحب تاج الدين بن الصلايا صاحب اربل و كان يُفضي بأسراره إليه كتاباً..." يُخبرُه بعزمه.

أنظر : الدوادار: المصدر نفسه، ص 38-40.

و يقول السويطي:" إنّه لم يتمّ للوزير ما أراد، و ذاق من التتار الذلّ و الهوان، و لم تل أيّامه بعد ذلك". و يذكر أيضًا أنّ ابن العلقمي "حسّن للمغول أن يُقيموا خليفة علويًا، فلم يُوافقوه، و طرحوه، و صار معهم في صورة بعض الغلمان، و مات كمدًا".

أنظر : السيوطي: المصدر نفسه، ص473.

و يقول ابن كثير:"... نهبت فيها الكرخ و محلّة الرافضة حتّى دور قرابات الوزير ابن العلقمي...و لهذا أوّل من برز إلى التتار هو(أي ابن العلقمي)، بأهله و أصحابه و خدمه و حشمه، فاجتمع بهولاكو..." ثمّ عاد فأشار على الخليفة بالخروج "...خرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة و الفقهاء و الصوفيّة و رؤوس الأمراء و الدولة و الأعيان...و قتلوا عن آخرهم..." إلاّ الخليفة و ستة عشر نفسًا معه، "...ثُمّ عاد إلى بغداد و في صحبته نصير الدين الطوسي، و الوزير ابن العلقمي و غيرهما، و الخليفة تحت الحوطة و المصادرة...و قد أشار ألائك الرافضة و غيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، و فال الوزير متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلاّ عامًا أو عامين ثُمّ يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، و حسّنوا له قتل الخليفة..." فقتله بإشارة من الوزير ابن العلقمي، و المولى نصير الدين الطوسي كما قيل...". =

هولاكو، يُقدّمون له فروض الطاعة خوفًا من بطشه، و اتقاء شرّه، فكان ممن حضر لتهنئته في مراغة: أتابك الموصل الهرم " بدر الدين لؤلؤ"(*)يوم(29رجب656هـ/1258م)، و كان قد جاوز التسعين، فأكرمه هولاكو، و أعاده في يوم 06 شعبان 656هـ.

أمّا أبو بكر أتابك فارس فقد أرسل ابنه "سعدًا" في السابع من شعبان 656هـ للغرض نفسه، ووصل كذلك إلى معسكر هولاكو بمونيق من ضواحي تبريز، اثنان من سلاطين سلاجقة الروم، وهما الأخوان المتنافسان: السلطان عزّ الدين كيكاوس الثّاني في الرابع من شعبان، و السلطان ركن الدين قلج أرسلان الرابع في الثامن من شعبان. أمّا عزّ الدين، فكان يرتجف رعبًا، لأنّ جنوده

= ثُمّ حصل لابن العلقمي من الإهانة و الذل على أيدي المغول، و قد رأته امرأة و هو في الذل و الهوان فقالت له: يا ابن العلقمي هكذا كان بنو العبّاس يعاملونك؟ فوقعت كلمتها في قلبه و انقطع في داره إلى أن مات نكدًا و غبينة و ضيقًا، و قلّة و ذلّة، في مستهل جمادة الآخرة من سنة دخول المغول بغداد سنة 656هـ. أنظر : البداية و النهاية، ج13، ص201، 212-213.
و يُفهمُ أيضًا من المصادر الأوربيّة أنّ المغول لم يكونوا يطمئنُّون تمامًا إلى ابن العلقمي بسبب موقفه من المستعصم، فها هو رنسيمان، يُقرّر أنّ هولاكو،" اختار لحكم بغداد الوزير السابق، مؤيّد الدين، الذي خضع لإشراف دقيق من قبَل الموظّفين المغول، أمّا البطريرك النسطوري، ماكيكا، فغمره هولاكو بالأحباس، و جعل له أحد قصور الخليفة مقرًا و كنيسة".
أنظر : رنسيمان: المرجع نفسه، ص522 .
و أمّا نصير الدين الطوسي فقد كان هو الآخر شيعيًا، و وثيق الصلة بهولاكو، و يقول براون في هذا الصدد :" يحب أن لا يغيب عن أذهاننا أنّ ابن العلقمي، و كذلك نصير الدين الطوسي، كانا من الشيعة، و أنّ الثاني منهما ... أنكر جميل مضيفيه من الإسماعيليّة، كما ساعد على الإطاحة بالخليفة في سبيل أن يُرضيَ فاتحًا وثنيًا سفّاكًا للدماء مثل هولاكو. و على هذا يبدو أنّ ابن العلقمي خُدع بالوعود المغول، ثمّ أعماه التعصّب المذهبي، و مثله مثل نصير الدين الطوسي الذي أصبح وزيرًا لهولاكو، فرضي بأن يخون الخليفة و بغداد، و أن يُسلّمهما معًا إلى المغول، ليفعلوا بهما ما يشاءون. و قد قرّبه المغول كعادتهم، حتّى إذا اعتصروا عصارته و نالوا منه ما يريدون تخلّصوا منه في قليل من الزمن، و ربّما يؤيّدُ هذا الرأي إنّنا نجد أنّ حياته لا تمتدُّ إلاّ لثلاثة أشهر بعد موت الخليفة أي إلى مايو سنة 1258م- جُمادى الأولى سنة 656هـ. أنظر :
براون: المصدر نفسه، ص588.
ولا يفوتنا أنّ ابن العلقمي لم يكن ليطمئنّ إلى عمله في الوزارة، خصوصًا بعد أن احتدم النزاع بينه و بين الدواتدار الصغير و وقوف الخليفة إلى جانب خصمه. كلُّ ذلك جعله يكفّ يده عن مساعدة الخليفة و الإخلاص له، كما حمله على البحث عن مخرج يخلصه من تلك المتاعب. و هذه الحالة النفسيّة نستدلُّ عليها بشعر ورد على لسانه، و سمعهُ عنه بعض أصحابه :

كيف يُرجى الصلاح في أمر قوم ضيّعوا الحزم فيه أيّ ضياع
فمُطاع الكلام غير سديد و سديد المقال غير مطاع . أنظر :

ابن الفوطي: **الحوادث الجامعة و التجارب النافعة في المائة السابعة**، نشره مصطفى جواد، بغداد، 1351هـ، ص 322 .
و هكذا و على ضوء المصادر و القرائن السابقة يُمكنُنا الجزم أنّ موقف بن العلقمي لم يكن بريئًا، و لكنّنا نُشركُ معه الخليفة و رجال حاشيته الآخرين .

(*) أمّا بدر الدين لؤلؤ، الملقّب بالملك الرحيم "و الحقيقة أني لم أجد له هذه الصفة بعد ما فعل"، فهو أرمينيّ اشتراه رجل خيّاط، ثمّ صار إلى الملك نور الدين أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الاتابكي صاحب الموصل. أباد أولاد أستاذه غيْلة، و أزال الدولة الأتابكيّة عن الموصل فصارت إليه، و سار إلى خدمة هولاكو طاعة له بعد سقوط بغداد و معه الهدايا و التحف، و رجع من عنده فمكث بالموصل أيّامًا يسيرة، مات بعدها يوم الجمعة ثالث شعبان سنة 657هـ بقلعة الموصل، و دُفن في مشهد هناك(بمدرسته البدريّة، و عمره مقدار ثمانين سنة (أو مائة سنة عند ابن كثير)، و قد ملك الموصل نحوًا من خمسين سنة، و كان ذا مكر و دهاء. أنظر:
ابن خليكان: **وفيات الأعيان و أنباء أهل الزمان**، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1994م، ج1، ص 184 ؛ البداية و النهاية، ج13، ص214.

قاتلوا القائد المغولي " بايجو نويان" فدحرهم في "آقسرا"(1)، فلمّا سقطت بغداد حاول أن يُخلّص نفسه من تلك الورطة بنوع من الذلّة و الخضوع، و ذلك أنّه رسم صورتهُ على نعل زوج من الأحذية، و قدّمهما للخان الساخط قائلاً له :"عبدك يأمل أن يتفضّل الملك فيُشرّف رأس عبده بوضع قدمه المباركة عليها"، فرقَّ له قلب الطاغية هولاكو، و رفعت دوقوز خاتون(*) من قدره، وتشفّعت له، فعفا عنه، و حينما عزم هولاكو على غزو الشام و مصر، أرسل إلى بدر الدين لؤلؤ، الذي تجاوز التسعين سنة، بإرسال ابنه الملك صالح مع الرايات الغازية، فلمّا وصل إلى حضرته منحه ابنة السلطان جلال الدين خوارزم شاه ليتزوّج منها(2).

وهكذا يتبيّنُ لنا مدى الاستذلال و المهادنة التي بلغها بعض الحُكّام المسلمين من خلال ذلك الموقف المُخزي(3).

2- المغول و بلاد الشام:

- حملة هولاكو على الشام:

كان يتقاسم إقليم الشّام في ذلك الوقت سلطات ثلاث هي : سلطة الفرنج، و سلطة الأرمن المسيحيّين، و سلطة الحُكّام المسلمين المتمثلين في الأُمراء الأيُّوبيّين، و كان هؤلاء يحكمون في

---

(1) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م 2، ج1، ص 300-301 ؛ ابن العبري: المصدر نفسه، ص 482-486 ؛ أبو الفداء: المصدر نفسه، ص 197-198 ؛ النويري: المصدر نفسه، ج27، ص209-210.
و انظر: Grousset(R), L'empire des steppes., p. 433.

(2) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، ص 301، 305.

(3) كان لذيوع الأنباء المتعلّقة بتدمير بغداد، أثر عميق في جميع أنحاء آسيا فابتهج المسيحيُون في كلّ مكان في هذه القارّة، إذ كتبوا في نشوة النصر عن سقوط بابل الثانية، و هلّلوا لهولاكو و زوجته المسيحيّة دوقوز خاتون، و اعتبروهما قسطنطين و هيلينا، و أنّهما ليسا إلاّ أدوات الله للانتقام من أعداء المسيح. و في الحقيقة كان الاستيلاء على بغداد، و زوال الخلافة عملاً شجّعه و باركه حاشية هولاكو من النساطرة، ابتداء من دوقوز خاتون حتّى كيتبوقا الذي ينتمي هو الآخر إلى قبيلة النايمان، و قد تراءى غزو بغداد كأنّه من أعمال حملة صليبيّة نسطوريّة، و يُؤيّدُ ذلك ما كان من اختيار البطريق النسطوري ماكيكا ليكون رسولاً للمستعصم إلى هولاكو، و كان يأمل أن يتوسّط له عند دوقوز خاتون، لمحاولة التفاوض مع الغازي المغولي، يُضاف إلى ذلك ما تصادفه من جيوش هولاكو من وحدات عسكريّة من الكرج الذن كانوا أوّل من اقتحم أسوار بغداد، و اشتهروا بشدّتهم و قسوتهم في التغريب و التدمير. أنظر:
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبيّة، ج3،ص522-523 .

(*) هي زوجة هولاكو المسيحيّة النسطوريّة و كانت تعطفُ على المسيحيّين باختلاف أجناسهم، و تطلبُ هي و زوجها دعواتهم، و كان المغول يحملون معهم خيمة على شكل كنيسة تُقام الصلاة فيها كلّ يوم، و كان هناك مدارس للصغار، و هنا كانت تعيشُ الجالية المسيحيَّة المختلفة المشارب بكلّ أمان. و قد أمرت ببناء الكنائس في بغداد و تخريب كلّ مساجدها، و استعباد المسلمين، ثُمّ إنّها ألحّت على هولاكو لغزو بلاد الشام، و إعادة إمارة فلسطين إلى المسيحيّين، إلاّ أنّه لم يتمكّن في استكمال ذلك المشروع بسبب أنباء موت أخيه الخان في قراقورم، فغادر بلاد الشام و ترك عليها أحد قُوّاده و كان اسمه كيتوبوقا.
أنظر:

Hayton, op.cit.(ds. Recueil des Historiens des croisades), T. II, chapitre XIX, p.170, et p.169 note c, et chapitre XX, p. 170 ; Eracles, op.cit., li trentequatriesmes livres, chapitreIII, p. 444 note c ; Vartan, op.cit., pp. 290-291.

مدن ميافرقين، و حصن كيفا، و الكرج، و حلب، و حماة، و حمص، و هم ينتسبون إلى الأسرة الأيُّوبيّة التي أسّسها صلاح الدين الأيُّوبي في مصر، في الثُّلُث الأخير من القرن السادس الهجري/الثّاني عشر الميلادي، و كانت ترجع إلى أصل كردي(1)، و ممّا يُؤسفُ أنّ كلّ واحد من هؤلاء الأمراء كان يعتبر نفسه مستقلاً، فلا وفاق بينهم، و لا سلطان لأمير منهم على أمير، و كانوا في نزاع دائم و خلاف مستمر، حتّى في الوقت الذي بدأ يظهرُ فيه شبح المغول مخيفًا مرعبًا، وأصبح هذا الخطر مائلاً للعيان على إثر فتح بغداد. و لو قُدّر لهؤلاء الأُمراء، فاتّحدوا وتكتّلوا،لاستطاعوا أن يكونوا سدًا منيعًا، يدرؤون به خطر المغول عن تلك البلاد.

و في شهر رمضان سنة657هـ/1259م تحرّك الجيش المغولي الكبير من أدربيجان قاصدًا سورية، يقود طلائعهُ "كيتوبوقا"، و أمّا "بايجو" و "ستقر" فيقودان الجناح الأيمن، بينما تُرك الجناح الأيسر ل "سونجاق"، و أخيرًا القلب، و كان يقوده هولاكو نفسه، كما أرسل ابنه "يشموت" مع "سونتاي نويان" لمحاصرة ميافرقين، و عهد إلى الملك الصالح بن بدر الدين لؤلؤ بفتح آمد(2).

- علاقة ملوك و أمراء الشام بهولاكو:

و بعد عبور الفرات تقدّم هولاكو على رأس جيش كبير، يُعاونه الأرمن و الفرنج لمحاصرة حلب، و جريًا على عادة المغول أرسل الغازي المغولي رسالة إلى"الملك المعظّم توران شاه(*)

(1) هناك عامل هام شجّع المغول على فتح الشام، و نعني به التحالف الذي تمّ بين الحكّام المسيحيّين في غرب آسيا من جهة، و بين المغول من جهة أخرى، فقد رأى "هيثوم" ملك أرمينية (المقصود هو أرمينية الصُّغرى أو قيليقية)، و قد ذكر المقريزي أنّ هيثون انظمّ إلى هولاكو رغبة منه في حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشام، و دولة المماليك بالجنوب، و صارت تلك المملكة بذلك ولاية تابعة لدولة التتر بفارس)، أنّ الفرصة سانحة للانضمام إلى المغول، لاستخلاص الشام بوجه عام، و بيت المقدس بوجه خاص. أنظر: المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص 510، حاشية1.
و لمّا كان " بوهمند" السادس ملك أنطاكية الصليبيّة حليفًا وفيًا لجاره هيثوم، و كان قد تزوّج من ابنته، دخل هو الآخر في الحلف المغولي، و ممّا هو جديرٌ بالذكر أنّه كان لزوجة هولاكو المسيحيّة " دوقوز خاتون"، و التي يُؤثرُها باحترامه، أكبر الأثر في توطيد أواصر الصداقة بين الزعماء المسيحيّين و بين هولاكو. يذكر "جروسيه Grousset" نقلاً عن المؤرّخ الأرمني " هيتون Hayton " أنّ خطّة الحملة المغوليّة قد تقرّرت بعد لقاء تمّ بين هولاكو و تابعه الأرمني "هيثوم" الأوّل ملك قيليقية الذي قدّم له أربعين ألف راجل و أثنة عشرة ألف فارس من جنوده الأرمن، و كان الخان قد طلب إليه أن يسير بجيشه الأرمني إلي الرها بحجّة أنّه ذاهبٌ لكي يُخلّص الأرض المقدّسة من أيدي المسلمين ، و يردّها إلى المسيحيّين، ففرح الملك هيثوم بهذا الخبر، و جمع جيشًا كبيرًا، و انضمّ إلى هولاكو و قدم البطريق الأرمني ليمنح البركة للخان. أنظر:
Dardel(Jean), op.cit., T. II, Chapitre XVI, pp.12-13, et p. 13 note 1. ; Grousset(R), op. cit., p. 434.
و هكذا اتّخذت حملة حفيد جنكيزخان المغوليّة الأرمينيّة سمات الحرب الصليبيّة، ذلك لأنّ ملك الأرمن هيثوم، كان في علاقته بالمغول، لا يتحدّث عن نفسه فقط، و إنّما يفاوض كذلك لصهره الفرنجي "بوهمند" أمير أنطاكيا(Antioche) . أنظر:
Philippe de Navarre et Gerard de Montreal, **Chronique du Templier de Tyr(1241-1309)**, dans: Les Gestes des Chiprois Publie par Gaston Raynaud(Societe de l’orient latin), Geneve1887, p. 161 ; Grousset(R), Histoire des croisades.,op.cit. p.581.

(2) أنظر : Grousset(R), L’Empire des steppes., op. cit., p.434.

(*) يكتب ابن العماد الحنبلي "بوران شاه" عوَض توران شاه. أنظر: شذرات الذهب، ج5، ص287، 290.

ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف" والي حلب، يطلب إليه أن يسلم المدينة، و وعده بتوفير الأمن هو و لأتباعه، فلم يُجبْهُ إلى طلبه، و صمّم على محاربته. أمّا السلطان الناصر صاحب حلب، فبدلاً أن يبقى ليُدافع عن المدينة، آثر الهروب إلى دمشق(*)، فحمل عنه هذا العبء الملك المعظّم توران شاه. و في ذلك الوقت كان رئيس أساقفة حلب هو المؤرّخ " ابن العبري "، فسارع إلى المغول، و قدّم طاعته لهولاكو.

نصب المغول عشرين منجنيقًا حول المدينة، واستباحوها من يوم الأحد(09 صفر658هـ) إلى(14 صفر658هـ)، قتلوا خلالها خلقًا كثيرًا، و لم يسلم من أهلها إلاّ من التجأ إلى دار شهاب الدين ابن عمرون، و دار نجم الدين أخي مزدلين، و دار البازيار، و دار علم الدين قيصر الموصلي، و الخانقاه التي فيها زين الدين الصوفي، و كنيسة اليهود بأيديهم(1) و أمّا قلعة حلب، فقد استمرّت في المُقاومة مدّة ثلاثين يومًا، ثمّ سلّمت، و استغلّ هيثوم ملك أرمينية تلك الفرصة، فأحرق الجامع الكبير في الوقت الذي احترقت فيه الكنيسة اليعقوبيّة(**).

(1) ابن الوردي: المصدر نفسه، ص 292-293 ؛ ابن كثير: البداية و النهاية، ج13، ص218 ؛ ابن العماد الحنبلي: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، المكتبة التجاريّة، بيروت-لبنان- دون تاريخ، ج5، ص 288، 290. و انظر أيضًا :

Samuel d'Ani, **Chronographie**, R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906, T. I, p. 461.

(*) كان في مستهلّ سنة 658هـ، يحكم العراقيّين و خرسان و غيرها من بلاد المشرق السلطان هولاكو ملك التتار، و كان السلطان على ديار مصر الملك المظفّر سيف الدين قطز، أمّا دمشق و حلب فكانت للملك الناصر بن العزيز بن الظاهر، و بلاد الكرك و الشوبك للملك المغيث بن العادل بن الكامل محمّد بن العادل أبي بكر بن أيُوب، و هو حرب مع الناصر صاحب دمشق على المصريّين، و معهما الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، و قد عزموا على قتال المصريّين و أخذ مصر منهم، و الأمّة حديثة عهد بمصيبة التتار العازمين بمجاوزة الفرات إلى غيرها، و لكن إذا أراد الله استنفاذ أمره نزع من اهل العقول عقولهم. أنظر : ابن كثير: البداية و النهاية، ج13، ص218.

(**) اليعاقبة طائفة دينيّة نصرانيّة، أسّسها يعقوب القديس بالقدس، و كان اليهود يُسمُّونه العادل، ومات حسب المؤرخين في عام 62م. أنظر: الموسوعة العربيّة، ج27، ص 319.

يقول ابن الشحنة الحلبي: "... حينما احتلّ المغول حلب، يوم الأحد 10 من صفر 658هـ (26 جانفي 1260م)، دخل ملك أرمينيا إلى الجامع الكبير و ذبح فيه جُمهورًا كبيرًا، و أحرق جهته الشرقيّة، ثُمّ انتقل الحريق إلى جنوبه و غربه، فأحرق المدرسة الحلويّة و سوق تُجّار الثياب. فأرسل عماد الدين القزويني إلى هولاكو يُبلغه أنّ الأرمن أحرقوا الجامع الكبير و أعفواْ كنائس المسيحيّين من ذلك. فأمر هولاكو بالكفّ عن ذلك و إطفاء النيران و قتل أهل سيس (الأرمن) المتسبّبين في ذلك، فقُتل منهم الكثير، إلاّ أنّه لم يُمكن إطفاء الحريق لولا أنّ الله أنزل مطرًا كثيفًا أطفأه...". أنظر:

بن الشحنة (أبي الفضل محمّد الحنبلي): **الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب**، ترجمة فرنسيّة من عمل جان سُوڤاجَيه، إصدار فؤاد سزكين، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة الإسلاميّة، سلسلة الجغرافيا الإسلاميّة، جامعة فرانكفورت، جمهوريّة ألمانيا الإتّحاديّة، 1413هـ-1993م، مج 76، ص65.

و الظاهر من رواية ابن الشحنة أنّ العنصر غير المغولي، و المقصود به الأرمن و من معهم، كان له الدَوْر الأهمّ فيما لحق مدينة حلب من إفراط في حرق و تدمير و سفك للدماء، و لكنّ الغريب ما في الأمر أن يأمر هولاكو المتعطش لدماء المسلمين ، بقتل الأرمن (حُلفائه) المتسبّبين في ذلك الحريق، أكان ذلك لمخالفتهم الياسا الجنكيزخاني الناس على احترام المعابد و ترك عُمّارها و شأنهم، أم أنّ ثَمّة أمر؟.

و عندما هدأت الأحوال، أصدر هولاكو أمره بوقف تلك المذابح، و أعطى ملك الأرمن جُزءًا من الأنفال، و أعاد إليه الأقاليم و القصور التي كان قد استولى عليها مسلمو حلب، كما ردّ إلى بوهمند جميع الأراضي التي كان المسلمون قد اقتطعوها منه، و بعد ذلك رحل المغول إلى قلعة حارم(1)، بعد أن ولّى علي حلب عماد الدين القزويني، و لكنّ أهلها أبوا أن يُسلّموا لغير فخر الدين المعروف بالساقي والي قلعة حلب، لأنّه رجلٌ صادق مؤمنٌ خيّر، يُوثق به، فغضب عليهم هولاكو، و لكنّه تظاهر بالنزول على رغبتهم، و استدعى فخر الدين، حتّى إذا ما سُلّمت إليه القلعة أمر هولاكو بقتل فخر الدين أوّلاً، ثمّ بقتل جميع من في القلعة من صغار و كبار الرجال منهم و النساء حتّى الأطفال، كذلك سقطت في أيدي المغول حماة و المعرّة و حمص(2).

و كان الناصر يوسف- صاحب حلب و دمشق (640- 659هـ)- أكثر الأمراء الأيُّوبيّين قوّة و اقتدارًا، و لكنّه كان مُتخاذلاً ضعيف البصيرة. يقول ابن العبري أثناء تأريخه لحوادث سنة 656هـ :"و فيها توجّه الأشرف بن الملك الغازي بن الملك العادل صاحب ميافرقين، إلي الملك الناصر صاحب حلب، يطلب منه نجدة ليمنع المغول من الدخول إلى الشام، فاستخفّ برأيه، و لم يسمع مشورته، بل سوّفه بكلام و سرّحه من عنده بالأمان"(3).

و لم يقف الناصر عند هذا الحدّ من التخاذل، فعلى إثر فتح بغداد مال إلى مهادنة المغول، بإرسال ابنه الملك العزيز إلى هولاكو، يحمل إليه الهدايا و التحف، و يُقدّم صكّ العبوديّة عن طواعيّة و اختيار، بل ويطلب إليه على لسان أبيه أن يُمدّه بنجدة تساعد في الاستيلاء على مصر، وتخليصها من المماليك(4).

ولكن هولاكو شكّ في إخلاص الناصر الذي لم يفد عليه بنفسه ليعرض ولاءهُ، ثمّ يتجرّأ بطلب التحالف ضدّ المماليك في مصر. و بناءً على هذا رأى هولاكو أنّ الوفد الذي أرسلهُ الملك

---

(1) حارم، حصن و كورة تجاه أنطاكية، و هي من أعمال حلب. أنظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج2، ص 205.
"و سُبي في حلب، من النساء و الذراري زهاء مائة ألف، بيعوا في جزائر الفرنج و بلاد الأرمن، و وصل إلى هولاكو وهو على حلب جماعة منهم الأشرف موسى بن إبراهيم بن شيركوه، و هو صاحب حمص، فأكرمه هولاكو، و وصل أيضًا القاضي محيي الدين بن الزكمي، فولّاه هولاكو قضاء الشام. و لمّا عاد ابن الزكمي إلى دمشق لبس خلعة هولاكو، فكانت مذهّبة، و جمع الفقهاء و غيرهم من أكابر دمشق و قرأ عليهم تقليد هولاكو". أنظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج27، ص261، 262، 263.

(2) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص279 ؛ رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص 307 ؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج27، ص263.

(3) ابن العبري: المصدر نفسه، ص277.

(4) المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص410-411 ؛ ابن كثير: البداية و النهاية، ج13، ص215.
و انظر أيضًا : Dardel(Jean), op.cit., T. II, Chapitre XVII, pp. 13-14.

الناصر إليه لا يُناسب مقامه، فأرسل يأمُره بضرورة المجيء إليه و تقديم الخضوع و التبعية دون قيد أو شرط(1).

و من ناحية أُخرى تعرّض الملك الناصر لاستنكار شديد من الأمراء الآخرين بسبب مُحاولته التقرُّب إلى المغول، فأظهروا العداء له. فلمّا رأى دناءة مسعاه، و جفاء المسلمين له، ردّ على رسالة هولاكو برسالة كلّها قذف و سباب(*). ولمّا علم الملك الناصر بسير المغول إلى دمشق، تركها لمصيرها، ليحتمي في قلعة كرك بمدينة غزّة على مقرُبة من النجدة التي وعدهُ بها سلطان مصر، فلمّا خابت آماله، طلب الأمان و سلّم نفسه لكيتوبوقا، فعفا عنه هولاكو و وعَدَهُ بتفويض حكومة الشام إليه بعد أن يستوليَ على مصر(2).

أمّا أهالي دمشق، فقد عرفوا ما حلّ بمدينة حلب، و كانوا يخشون أن يلقوا نفس المصير إذا حاولوا المقاومة. و لهذا سارع أهل الرأي و الوجهاء منهم إلى هولاكو، و قدّموا له الهدايا والتّحف، و سلّموه مفاتيح المدينة، و أظهروا له الانقياد و الطاعة، فدخل المغول المدينة دون إراقة دماء، ولكن امتنعت عليهم قلعة دمشق، فحاصروها، و أقاموا عليها المنجنيق إلى أن استسلمت لهم في منتصف جمادى الأولى، و نهبوا جميع ما فيها(**).

---

(1) ابن العبري: المصدر نفسه، ص 278 ؛ ابن الفوطي: الحوادث الجامعة، ص 339.

(2) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص308 ؛ أبو الفدا: المصدر نفسه، ج3، ص200.

(*) يقول ابن أبي أصيبعة، و كذا الكتبي :"و لمّا جاءت رسل التتار يطلبون البلاد و يشترطون ما يحمل إليهم من المال فبعث الملك الناصر زين الدين رسولاً إلى هولاكو، فأحسن إليه و استماله، فصار من جهته، و مازج التتار، و تردّد في المراسلات مرّات، و أطمع التتار في البلاد، و هوّل على الملك الناصر أمرهم و عظّم شأنهم، ووصف عساكرهم و صغّر شأن الناصر و من معه من العساكر حتّى أوقفه على الحرب، فلمّا جاءت التتار إلى حلب و نازلها هولاكو، هرب الناصر من دمشق إلى مصر، و خرجت عساكر مصر و ملكها قطز، فانكسر الناصر و ملكت التتار دمشق، و صار زين الدين يأمر بها و ينهى، و بقي معه جماعة، حتّى كانوا يدعونه الملك زين الدين. و لمّا كسر التتار على عين جالوت و انهزم مللك التتار و من معه من دمشق، توجّه زين الدين الحافظي معهم خوفًا على نفسه من المسلمين ". أنظر :

ابن أبي أصيبعة: **عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء**، شرح و تحقيق نزّار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت 1965م،ج2، ص189- 190 ؛ فوات الوفيات و الذيل عليها، ج2، ص 77-78.

ثُمّ كان جزاء "الزين الحافظي" هذا من جنس عمله، إذْ أحضره هولاكو بين يديه و قال له : "ثبت عندي خيانتك و تلاعبك بالدول، خدمت صاحب بعلبك ثُمّ خدمت صاحب جعبر و صاحب دمشق و خنت الجميع، و انتقلت إلي فأحسنت إليك، فشرعت تكاتب صاحب مصر"، و عدّد ذنوبه ثُمّ قتله، و قتل أولاده و أقاربه و كأنوا نحوًا من خمسين نفرًا، و كان سبب ذلك كُتُبًا بعثها إلى الظاهر بيبرس، و ذالك سنة 662هـ. أنظر: الكتبي: المصدر نفسه، ج2، ص78.

(**) على إثر فتح دمشق، سنحت للمسيحيّين الفرصة للانتقام من المسلمين، فتجرّؤوا على المسلمين و استطالوا بتردُّد التتر إلى كنائسهم، و ذهب بعضهم إلى هولاكو و جاءوا من عنده بفرمان يتضمّن الوصيّة بهم و الاعتناء بأمرهم، و دخلوا بالفرمان من باب ثوما، و صلبانهم مرتفعة، و هم يُنادون بارتفاع دينهم و اتّضاع دين الإسلام فنظّموا مواكب عامّة، و كانوا يُنشدون فيها الأناشيد، و قالوا جهرًا " ظهر الدين الصحيح دين المسيح"، و يُجبرون المسلمين على أن يقفوا احترامًا لصلبانهم، و من يمتنع منهم، كان يتعرّض للسبّ و الإهانة، و بلغ بهم التحدّي أقصاه، فدقُّوا النواقيس، و تظاهروا بالخمر في رمضان، و رشُّوه على ثياب المسلمين في الطُّرقات، كما صبُّوه على أبواب المساجد، و لم يستثنوا حتّى الجامع الأموي، و صاروا يمرُّن في الشوارع إلى كنيسة مريم (كانت تلك الكنيسة تابعة للطوائف اليونانيّة المسيحيّة، و لا يعدلُها عندهم سوى كنيسة القيامة ببيت المقدس)، و يخطُبُون في الثناء على دينهم، فضجر المسلمون من ذلك، و رفعوا شكواهم إلى كيتوبوقا (يذكرُ Guiragos أنَّه كان من =

ابتدأت الحملة على سورية بغارة محليّة ضدّ إمارة ميافارقين بديار بكر سنة(657هـ)، و كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة أحد الأمراء الأيُّوبيّين المسمّى " الملك الكامل" محمّد بن الملك المظفّر بن العادل أبي بكر بن أيّوب. و كان ممّا آخذه المغول على الملك الكامل، أنّه بتعصُّبه صلب قسّيسًا مسيحيًا يعقوبيًا، قدم لزيارته مبعوثًا من قبل هولاكو(1)، فعهد هولاكو إلى الأمراء يشموت وإيلكانويان، و سونتاي بالاستيلاء على ميافارقين،تُساندهُم فرقٌ جورجيّة و أرمينية مسيحية تحت إمرة حسن برُوشHasan Brosh، فلمّا اقتربوا منها، أرسلوا رسلهم إلى الملك الكامل يدعونه إلى الانقياد و الطاعة، فأخبرهم بأنّهم يُحاولون عبثًا، بل سيمتشق الحسام ضدّهم ما دام على قيد الحياة. ثمّ توجّه الكامل إلى أفراد شعبه مقوّيًا من عزيمته، فقال:" إنّني لن امنع الفضّة و الذهب و الغلات التي توجد في المخازن، بل سأوثرُ بها المُحتاجين، فلست – بحمد الله- مثل المستعصم عبدًا للدينار و الدرهم، الذي طوّح برأسه، و بملك بغداد، بسبب بخله و شحّه"(2)، فبدأ الحصار و استمرّ لمدّة عامين أظهر خلالها المدافعون عن المدينة ضروبًا من الشجاعة المنقطعة النظير، أنزلوا فيها خسائر فادحة بجيش المغول، حتّى نفدت الأزواد، و عمّ القحط، و انتشر الوباء، فهلك أكثر السكّان، و استسلم الملك فقتلوه شرّ قتلة، إذ كانوا يُقطّعون لحمه قطعًا، و يدفعونها إلى فمه حتّى مات، ثمّ قطعوا رأسه و حملوه على رمح، و طافوا به في البلاد السوريّة الكبيرة، و كان يتقدّم موكب الرأس مغنُّون و طبّالون، و أخيرا علّق في شبكة بسور باب الفراديس بدمشق، ثمّ قتلوا جميع مسلمي المدينة و نجا المسيحيُّون و كنائسهم(3).

= قبيلة النايمان التتريّة اعتنقت الدين المسيحي منذ قرون) نائب هولاكو، فلم يحفل بهم، بل أهانهم، و ضرب بعضهم، و أخذتهُ موجة من التقوى، فجعل يزور الكنائس، و يُعظّمُ رجالها على اختلاف مذاهبهم، و ساهم مع بوهموند السادس في تحويل عدّة مساجد إلى كنائس. أنظر:

الذهبي: **كتاب دول الإسلام**، تحقيق فهيم محمّد شلتوت و محمّد مصطفى ابراهيم، نشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر، 1988م، ج2، ص 162- 163 ؛ الذهبي: البداية و النهاية، ج13، ص219 ؛ العيني: المصدر نفسه، ص 215 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص 291 ؛ ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج7، ص80-81 ؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص425، و ص425 (حاشية 2 و حاشية 5). و انظر أيضًا :

Guiragos, op.cit., dans J.A., Avril-Mai 1858, p.498 ; Grousset(R.), **L'Empire du levant**, Académie française, Payot, Paris 1946, p. 272.

(1) Grousset(R), L'Empire des Steppes., p.434.

(2) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص 319-320 ؛ ابن كثير: البداية و النهاية، ج13، ص215. و انظر: Vartan, op.cit., pp. 293-294.

(3) كان مسيحيو المشرق يُؤمنون أنّهم بتعاونهم مع المغول ضدّ المسلمين في الشام، إنّما يُشاركون في حرب صليبيّة جديدة، و قد نجا الجميع من مذبحة ميافرقين التي كانت من قبل أُسقفيّة يعقوبيّة قديمة و مركزًا أرمينيًا. أنظر:

Grousset, Histoire des croisades., op.cit., p. 578 ; Labourt (J.), **Le christianisme dans l'empire perse sous la dynastie sassanide**, librairie Victor Lecoffre, Paris 1904, p. 52. =

و بعد ميافارقين، نزل هولاكو سنة 657هـ على آمد القريبة من ماردين، و بعث رسله إلى حاكمها "الملك السعيد" بالتسليم فأبى إلاّ أن يُقاوم و أرسل إليه ابنه "الملك المظفّر" و قاضي البلاد مهذّب الدين محمّد بن مجلى بهديّة و اعتذر أنّه ضعيف، فقبض هولاكو على ابنه، و استمرّ في حصارها مدّة ثمانية أشهر دون أن ينجح في احتلالها، حتّى حدث ما لم يكن في الحُسبان، فقد حاول أحد أبناء الملك السعيد أن يُثني أباه عن عزمه، و يحمله على الاستسلام للمغول . فلمّا لم يُفلح، لم ير بُدًا من قتل أبيه، حقنًا لدماء المسلمين، فتخلّص منه، و سلّم القلعة للمغول، فنصّبوه واليًا على ماردين بدلاً من أبيه(1).

و نتيجة لهذه الانتصارات السريعة الحاسمة، و ما صاحبها من قتل و تشريد و تخريب وتدمير، عمّ الرعب كلّ بلاد سورية الإسلاميّة، فسارع الأمراء الآخرون بتقديم فروض الطاعة للمغول، و لحق الملك الأشرف موسى الأيوبي ، سليل أسد الدين شيركوه، و ملك حمص سابقًا، بهولاكو عند أسوار حلب، و كان في ذلك الوقت يملك قرية "تل باشر" الصغيرة قرب الرها فَحَسْب. فكافأهُ هولاكو على ولائه للمغول، بأنّ ردّ إليه حمص التي كان الناصر قد انتزعها منه في سنة 646هـ/1248م. ثُمّ نصّبهُ نائبًا عنه ببلاد الشام، و لمّا حضر بالمرسوم امتثل كيتوبوقا، وصارت الدواوين و غيرها تحضر إلى الأشرف، و عندما فتح المماليك الشام، أرسل الأشرف إلى قطز يستأمنه فأمّنه(2).

= بقي الرأس على هذه الحال إلى أن عادت دمشق إلى المسلمين فدُفن بمشهد الحسين، داخل باب الفراديس. أنظر: ابن الوردي، المصدر نفسه، ج2، ص 295 ; ابن كثير، البداية و النهاية، ج13، ص215.

و في أثناء حصار ميافارقين، كان هولاكو يغزو الإمارات الإسلاميّة في سورية، إذ نزل من كردستان إلى الجزيرة، و استولى على نصيبين، و استسلمت له حرّان و الرها، و قَتَل أهالي سروج عن آخرهم، لأنّهم قاوموه، ثمّ احتلّ البيرة، و عبر نهر الفرات، و أغار على منبج حيث سفك دماء الكثيرين من أهلها. أنظر:

Grousset(R), Histoire des croisades., p.579.

(1) الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج3، سنة 657ه، ص 285 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ، ج5، ص 287.

(2) المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص423، 425، 433 ؛ النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت 733هـ): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق نجيب مصطفى فوّاز و حكمت كشلي فوّاز دار الكتاب العلميّة، ط1، بيروت، 2004م، ج27، ص262 ؛ مختار العبادي: قيام دولة المماليك في مصر و الشام، ص 153.

و في الأسابيع الثلاثة التي أعقبت فتح دمشق، أتمّ المغول فتح معظم بلاد الشام، و قتلوا حامية نابلس، لأنّهم قاوموا، ثمّ تقدّموا إلى غزّة دون أن يلقوا مقاومة تُذكر، و استسلمت لهم حامية عجلون، غير أنّ قوّات المغول لم تصل مطلقًا إلى بيت المقدس نفسه. و بذا أحاط المغول بالفرنج من كلّ الجهات. و لكن لم يكن في نيّتهم أن يُهاجموا مملكة الفرنج، بشرط أن تظهر لهم الانصياع التام.

و لا شكّ أنّ هذه الانتصارات المتتابعة التي أحرزها المغول، كانت قد حيّرت الناس، و تركت في نفوسهم أثرًا عميقًا، و جعلتهم يميلون إلى الإعتقاد بأنّ هؤلاء المغول إنّما هم بلاء من الله سلّطه على المسلمين، و لن تستطيع قوّة على ظهر الأرض أن تقف أمامهم.

3- المغول و بلاد مصر في العصر المملوكي:

استطاع المغول و في مدّة قصيرة أن يستولوا على معظم أقاليم العالم الإسلامي المعروف في ذلك الوقت، فالتهموا دوله الواحدة تلو الأخرى، و توغّلوا في ممالكه يهتكون، و يسفكون الدماء، و يحطّمون العروش، فلقد قضوا على الدولة الخوارزميّة، و حطّموا قلاع الإسماعيليّة، وفتحوا بغداد، و قتلوا الخليفة المستعصم، و أخضعوا معظم بلاد الشام، و لم يبق أمامهم إلاّ مصر آخر معقل للإسلام في الشرق.

يقول رنسيمان :" بسقوط المدن الثلاث الكبيرة: بغداد و حلب و دمشق، تراءى كأنّ الإسلام في غرب آسيا حان أجله. ففي دمشق، و في سائر الجهات في غرب آسيا، لم يكن للفتح المغولي من معنى سوى انتعاش المسيحيّين المحليّين. و إذا كان كيتوبوقا نفسه مسيحيًا، لم يُخف عواطفه، فأضحى المسلمون بداخل سورية لأوّل مرّة منذ القرن السابع الميلادي يُعتبرون أقليّة مغلوبة على أمرها، فأخذوا يتحرّقون للإنتقام"(1).

- إضطراب حال المغول بالشام:

و بينما الحال كذلك، وقعت حادثة قلبت الموازين كُليّة، إذ وصلت هولاكو أخبار وفاة أخيه الأكبر منكوخان في الصين منذ سنة (655هـ/1257م)، و تنازع أخواه الآخرين "قوبلاي" و "أريق بوكا" ولاية العرش. و بالرغم من أنّ هولاكو هو الابن الرابع " لتولوي"، و من حقّه أن يُنافس أخويه الآخرين في تولّي عرش المغول، إلاّ أنّهُ اكتفى بما تهيّأ له من الفتح في إيران و الشّام، و لكنّه كان يرى أنّ أخاه قوبيلاي أجدر بتولّي هذا المنصب من أخيه الآخر "أريق بوكا"، فحرص على أن يحضر القوريلتاي ليُزكّي ترشيح أخيه قوبلاي خانًا أعظم. و من ناحية أخرى علم هولاكو أنّه مهدّد من جهة الحدود القوقازيّة من قبل ابن عمّه "بركة خان"المُسلم حاكم القفجاق، وصار يتوعّد هولاكو بالانتقام منه بسبب ما اقترفه من مذابح بين المسلمين و لتجرُّئه على دار الخلافة و قتل الخليفة(2).

---

(1) تاريخ الحروب الصليبيّة، ج3، ص 528.

(2) المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص 395.

تختلف الروايات حول موضوع إسلام بركة، و أرجحها أنّه اعتنق الإسلام و تعلّم القرآن في حداثته حين كان ببلدة خوقند (Khodjand)، على يد أحد فقهائها، و ذلك قبل أن يصير ملكًا على القبيلة الذهبيّة، و يظهر أنّ بركة كان مهتمًا بنشر الإسلام في بلاده، بدليل أنّه أمر بأن يكون في حاشية كلّ واحدة من زوجاته و كل أمير من أمرائه أيضًا، إمام و مؤذّن لإقامة شعائر الدين، و كان يمنع أكل لحم الخنزير في بلاطه، بشهادة روبروك مبعوث لويس التاسع، على أنّه لم يكن مُتعصّبًا، و دليل ذلك أنّ عاصمته صراي كانت، منذ سنة(660هـ/1261م)، كرسيًا لأسقفيّة مسيحيّة. أنظر:

المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص 395، حاشية 2. و انظر أيضًا :

Guillaume (de R.), voyage., Article XVIII, p. 126 ; **Encyclopedie de l'Islam**, Établie par =

و لهذين السّببين اضطرّ هولاكو إلى العودة إلى إيران، و كان في نيّته أنْ يكتفي مؤقّتا بما تمّ من فتح، و لا يترك خلفًا له يُكمل برنامجه في الاستيلاء على فلسطين و مصر، غير أنّ إلحاح المسيحيّين الشرقيّين، و في مقدّمتهم هيثوم ملك أرمينيا، جعل هولاكو يترك قائده "كيتوبوقا" في إمرة عشرة آلاف مقاتل لإتمام هذا المشروع(1)، و إدارة شؤون الحكم في سورية(2).

و حدث أن نهب صليبيُّون ألمان، و على رأسهم أحد البارونات المُسمّى الكُونت "جوليان الصيداوي" Julien de Sidon، قُرَى مسلمة كانت تَدفعُ الجزية للمغول، ثُمّ قتلوا ابن أخي كيتوبوقا الذي أُرسل يُطالبهم بالغنائم، فسخط المغول لهذا الحدث، و خرّبوا صيدا و أحرقوها وقتلوا كلّ من وجدوا فيها من المسيحيّين، فكان ذلك إيذانًا بإنهاء الحلف الصريح بين الفرنج والمغول(3).

- مماليك مصر و المغول:

و في ظلّ هذه الأحداث المُفاجئة استرجع أهل مصر ثقتهم بأنفسهم، و أدرك المغول حرج

C.E. Bosworth, E. van Donzel, B. Lewis et Ch. Pellat, Paris, G.-P. Maisonneuve & Larose S. A., =
1986, Article Berke Khan. T. I, pp. 1222-1223 ; Grousset (R.), **Histoire de L'Extreme-Orient**, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris 1929, T. II, p. 448.

أمّا أبي الغازي بهادر خان فيقول: "...فلمّا مرّ ببُخارا اجتمع بالشيخ سيف الدين الباخرزي من أصحاب شيخ الطريقة نجم الدين كبري، و حسُن موقع كلام الباخرزي عنده و أسلم على يده و تأكّدت الصحبة بينه و بين الباخُرزيّ، فأشار عليه الباخُرزي بمكاتبة المتعصم الخليفة و مُهادته ، فكاتب الخليفة و بعث إليه هديّة و تردّدت بينهما الرسل و المكاتبات و التحف و المهاداة...". أنظر: شجره ترك، ص49. و عن إسلام بركة خان و علاقة بهولاكوخان أنظر الملحق.

(1) ابن العبري: المصدر نفسه، ص280. و انظر أيضًا :
Guiragos de Kantzag, dans J.A. 1858, op. cit. p. 498 ; Lamb (Harold), **The crusades: The Flame of Islam**, London, 1931, p. 340.
يقول الباز العريني : إنّ عددهم كان يتراوح بين عشرة آلاف و عشرين ألف جندي. أنظر :
الباز العريني: المرجع نفسه، ص 257.

(2) عُرف عن هذا القائد المغولي " كيتوبوقا" أنّه كان يُكنُّ أحسن النوايا للمسيحيّين، لا لأنّه كان يدين بالمسيحيّة فحسب، بل لأنّه فيما يبدو، قد فهم المصلحة من قيام حلف صليبي مغولي(و على هذا يُمكنُنا تصوُّر قيام خانيَّة مسيحيّة كبيرة في المنطقة لو تحقّقت أطماع المغول في غرب آسيا). و بالرغم من أنّ "بوهمند" السادس ملك أنطاكيا، كان يُشارك كيتوبوقا هذا الشعور، فإنّ بارونات عكّا ظلُّوا ينظرون إلى المغول كبرابرة لا يُمكن أن يَفْضُلوا المسلمين. و الواقع أنّ الفرنج بصفة عامّة، كانوا قد أدركوا أنّ المغول و إن جعلوا للمسيحيّة حظًا يفوق سائر الديانات الأخرى فإنّهم لن يسمحوا بإقامة إمارات فرنجيّة مستقلّة، و إنّما يُريدونهم تابعين للخان الكبير، فلا يصحُّ توجيه اللوم لهم، لأنّهم يُؤثرون المسلمين الذين عرفوهم على هذا العنصر الغريب الهمجي المتغطرس القادم من الصحاري النائيّة، و الذي كان سجلُّه في شرق أوربّا داعيًا للنفور. أنظر:
رنسيمان: المرجع نفسه، ج3، ص 513. و انظر أيضًا :
Cahen (C.), **La Syrie du nord a l'époque des croisades(la principauté franque d'Antioche)**, Paris 1940, pp.708-709 ; Grousset, Histoire des croisades. , pp.588-589 ; Grousset, L'Empire des steppes, p. 438.

(3) أنظر Hayton, op.cit., p. 840; Philippe de Navarre et Gerard de Montreal, op.cit., pp. 163-164; Vartan, op.cit., p. 294 ; Guillaume de Tyr, L'Estoire de Eracles., chapitre III, p. 444, et note d ; Michaud(M), op.cit., T.V, pp.10-11.

استقرارهم في حلب و دمشق في جوار مصر، لذا بقي عليهم أن يغلبوا قوّة إسلاميّة عظيمة هي قوّة المماليك أصحاب السلطة في مصر. يقول رنسيمان :" من سوء حظّ المغول، أنّ توغُّلهم في فلسطين أثار دولة إسلاميّة كبيرة لم تتعرّض للهزيمة، و هي دولة المماليك في مصر، إذ أضحى المماليك وقتئذ من الصلاحيّة و السلامة ما يجعلهم يقبلون تحدّي المغول"(1).

و الواقع أنّ قطز تولّى السلطنة في ظروف لا يُحسد عليها، إذ كان مطلوبًا منه صدّ الخطر الذي لم تستطع قوّة في الشرق الأدنى الصمود في وجهه. و في سبيل تحقيق هذا الهدف كان عليه أن يعمل على لمّ الشمل و جمع كلمة المسلمين في الشام و مصر.

كان عليه أيضًا أن يبذل الجهود الجبّارة ليحول دون اتصال أُمراء الشام بالمغول، بينما كان أبناء الأُسرة الأيُّوبيّة يُقدّمون الولاء لهولاكو، و يرضون بخيانة بلادهم. و الحقّ أنّ قطز كان سياسيًا حكيمًا و قائدًا بارعًا، حرص على رفع الروح المعنويّة لهؤلاء الحكّام و تأمينهم على حياتهم و دعوتهم إلى التضامن و التآزر في سبيل القضاء على العدوّ المشترك. و يظهر دهاء قطز بوضوح في الرسالة التي أرسلها إلى الملك الناصر بعد أن ورد الخبر بقدوم نجدة إليه من عند هولاكو، فهو في هذه الرسالة يُقسم بالأَيْمان أنّه لا يُنازعه في الملك، ولا يُقاومه، و أنّه نائبٌ عنه بديار مصر، و متى حلّ بها أقعده على كرسيّ السلطنة، كما يعرض عليه أن يقدم إليه مع جيشه، وإذا كان لا يطمئنُّ إلى حضوره، فإنّه على استعداد لأن يُسيّر إليه الجيش صحبة من يختار، :" وإن اخترتني خدمتُك، و إن اخترت قدمتُ و من معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري، سيّرتُ إليك العساكر صحبة من تختارهُ"، فاطمأنّ الناصر لذلك، و لمّا علم أمراء جيش مصر بسلطنة قطز و عزله للوزير، أنكروا عليه، فقال:"... و إنّي ما قصدتُ إلاّ أن نجتمع على قتال المغول، و لا يتأنّى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا و كسرنا هذا العدوّ فالأمر لكم،

(1) رنسيمان: المرجع نفسه، ج3، ص532.

و أصل المماليك تركي في الغالب، اضطر الأيوبيون على الاستعانة بهم، جُلبوا إلى مصر أطفالاً صغارًا، وكانوا يشترونهم بالأموال، و يجعلونهم نواة جيوشهم، فنشَئوا وسط بيئة عربيّة خالصة، و تعلّموا منذ نعومة أظافرهم اللغة العربيّة، و تلقوا أصول الديانة الإسلاميّة على أيدي مجموعة مختارة من الفقهاء و المشايخ العرب، فشبُّوا لا يعرفون دينًا غير الإسلام، و لا وطنًا غير الوطن العربي، و بعبارة أخرى فإنّ هؤلاء المماليك قد استعربوا منذ طفولتهم، و تشرّبوا العروبة و روحها منذ حداثتهم، فصاروا جزءًا عربيًا، و أحسُّوا بالأحاسيس نفسها التي شعر بها معاصروهم من العرب نحو الأخطار التي تُهدّدُهم، و ما هي إلاّ فترة وجيزة حتّى نشأ بين هؤلاء جيل جديد استطاع أن يستأثر بملك البلاد في عام (648هـ/1250م). فوضعوا أيديهم في أيدي أبناء مصر و الشام، للجهاد ضدّ المغول و حلفائهم. أنظر:

علي إبراهيم حسن: **دراسات في تاريخ المماليك البحريّة و في عصر الناصر محمّد**، مكتبة النهضة المصريّة، ط 2، القاهرة، 1948م، ص22.

و في هذه المرحلة التي نؤرّخ لها كان السلطان المملوكي "قطز" ثالث هؤلاء المماليك، هو الذي يحكم في القاهرة. أنظر: المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص417.

أقيموا في السلطنة من شئتم "، و أخذ يُرضّيهم حتى تمكّن، و حبس بعض الأمراء، و حلّف غيرهم و العسكر لنفسه، و احتفل باستخدام الجنود و الاستعداد للجهاد(1).

و هكذا نجح قطز في خلق تعاون وثيق بين الشام و مصر قبل قتال المغول، و توحيد جيوشهما لصدّ ذلك العدو، و قد سارع البقيّة الباقية من أمراء الشام ممّن أبوْا أن يستسلموا للمغول، فاتجهوا إلى مصر يتطلّعون إليها، و ينتظرون على يديها الخلاص، و أَبْدَوْا استعدادهم للوقوف معًا، صفًا واحدًا في وجه العدوّ المشترك لإنقاذ الشرق العربي من خطرهم.

ثمّ دخلت العلاقات بين المغول و المماليك في مرحلة حرجة عندما أرسل هولاكو، قبل أن يُغادر الشام في سنة (658هـ/1259م) (*)، رسله يحملون رسالة إلى السلطان قطز تتضمن كلّ معاني التهديد و الوعيد، يدعوه فيها إلى الاستسلام، و تقديم فروض الطاعة للمغول(**).

فلمّا وصل رُسل هولاكو، و تُليت الرسالة، استدعى قطز الأمراء، و شاورهم في الأمر، فقال أحدهم، و هو ناصر الدين قيمري، أنّ هولاكو لا يُؤمنُ و لا عهد له، و ذكّره بما فعله بغيرهم من تقتيل و سبي، و وافقه بقيّة الأمراء، ثمّ رُدّ الأمر إلى قطز ليأمُرهم بأمره، فقال :" إنّ الرأي عندي هو أن نتوجّه جميعًا إلى القتال، فإذا ضفرنا فهو المراد، و إلاّ فلن نكون ملومين أمام الخلق"، فوافقه الأمراء، ثمّ اختلى قطز بالظاهر بيبرس البندقداري الذي كان أميرًا للأمراء، و استشاره في الموضوع، فقال البندقداري :" إنّي أرى أن نقتل الرسل، و نقصد كيتوبوقا متضامنين، فإن انتصرنا أو هزمنا، فسوف نكون في كلتا الحالتين معذورين"، فاستصوب قطز هذا الرأي و أمر بقتل الرسل (و كان رابعهم صبيًا، جعله قطز في جملة مماليكه)، و أمر بالسير للجهاد(2).

و عندما نودي في القاهرة و سائر أقاليم مصر بالخروج إلى الجهاد، و تكامل العسكر، و أمر الأمراء بالرحيل، أبوْا كلهم، فقال :" يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، و أنتم

---

(1) المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص 417-418.

(2) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص 311-313 ؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص429.

و يبدو أنّ قطز تشجّع في سلوك هذه الخُطوة لعاملين اثنيْن على الأقلّ:

أوّلاً : رأى أنّ الموت مع العزّة خيرٌ من الحياة مع الذلّة، و أنّه ليس من اللائق بمكان أن تخضع مصر لمشيئة كافر مُستبد.

ثانيًا : رأى أنّ الفرنج نفضوا أيديهم من حلف المغول، و أنّ هولاكو رحل بمعظم الجيش إلى تبريز في إيران، و لم يترك إلاّ عشرة آلاف جنديّ في الشام بقيادة كيتوبوقا، و ذلك ما يزيد حضوض كسرهم عن الشام و مصر.

(*) كان سبب رجوع هولاكو إلى بلاد فارس، وصوله أخبارًا بوفاة أخيه منكوخان، الخان العظيم، سنة 655هـ. أنظر:

Encyclopédie de L'Islam, Article Kubilai, T. V, p. 299, Article Hulagu, T. III, p. 589 ;
Lane-Pool, **The Muhammadan Dynasties**, chronological and Genalogical tables with historical Introduction, Librairie orientaliste (Paul Geuthner) 13 Rue Jacob- Paris VI^{e}, 1925, pp. 212-215.

(**) أنظر الملحق الرابع.

للغزاة كارهون، و أنا متوجّه فمن اختار الجهاد يَصحبُني، و من لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإنّ الله مُطّلعٌ عليه، و خطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخّرين"، فلم يسع الأمراء إلاّ الانقياد كارهين(1).

- مماليك مصر و فرنجة عكّا:

قصد بيبرس البندقداري بطلائعه مدينة فلسطين، بينما كانت الحامية المغوليّة الصغيرة بقيادة "بايدر" تحتلُّ غزّة، فدمّرها بيبرس و أجلاها إلى نهر العاصي في لبنان اليوم.

أمّا فرنجة عكَّا، فقد سمحوا للمصريّين بعبور أراضيهم و تموينهم عند أسوار عكّا، و ذلك أنّ البارونات كانوا يحملون ضغينة نحو المغول لمَا أقدموا عليه من تخريب في صيدا، فانعدمت الثقة بهم، بينما ألفوا المسلمين من زمن بعيد(2).

يقول المقريزي :" ثُمَّ نزل السلطان بالعساكر إلى غزّة و أقام بها يومًا، ثُمَّ رحل من طريق الساحل على مدينة عكّا و بها يومئذ الفرنجة، فخرجوا إليه بتقادم و أرادوا أن يسيروا معه نجدة، فشكرهم و أخلع عليهم، و استحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه، و أقسم لهم أنّه متى تبعه منهم فارس أو راجل يُريد أذى عسكر المسلمين رجع و قاتلهم قبل أن يلقى التتر."، " أمّا بيبرس فقد اقترح على قطز الاستيلاء على عكّا، و لكنَّ هذا الأخير قابله بالرفض لأنّه لا يَأْمَنُ هجمات المسيحيّين الانتقامية، بينما لم ينهزم المغول بعد" على ما ذكره رنسيمان(3).

- معركة عين جالوت سنة 658هـ/1260م :

كانت سُمعة الجيش المغولي، الذي لا يُهزم، قد بلغت الآفاق، و لم يكن لأيّ بشر على سطح الأرض ليجرؤ على منازلتهم أو عدائهم. و عندما بلغ القائد " كيتوبوقا" هزيمة " بايدر"، غضب و تهيّأ للانتقام مُعتمدًا على الجيش الذي لا يُغلب. أمّا قطز فقد اجتمع بأُمراء جُنده للتخطيط عند

(1) المقريزي: المصدر نفسه، ج1،ق2، ص 429.
كان قطز يرى أنّ الهجوم خير من الدفاع في مقابلة الأعداء، و هذا شيء جديد في حرب العرب ضدّ المغول، حيث كانوا من قبل يكتفون بالتّحصين و الدفاع من وراء الأسوار فيقعون بذلك في فخّ لا مخرج منه، فكانت خطّة قطز إرسال الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري لاستطلاع أخبار التتر أوّلاً، ثمّ دراسة مواقفهم، و السير من ورائه تحسُّبًا لأيّ طارئ قريب. و هكذا سار بيبرس بقطعة من العسكر حتّى لقي طليعة التتر، فكتب إلى السلطان يُعلمه بذالك. أنظر:
المقريزي: المصدر نفسه، ج1،ق2، ص430.
(2) رشيد الين الهمذاني: المصدر نفسه، ص 313 ؛ رنسيمان: المرجع نفسه، ج3، ص534-535. و انظر أيضًا :
Philippe de Navarre et Gerard de Montreal, op.cit., p.164.
(3) المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص 430 ؛ رنسيمان: المرجع نفسه، ج3، ص 535.
لم أجد لما ذكره رنسيمان أثرًا في المصادر العربيّة. و مهما يكن فإنّ السماح لجيش مصر بالمرور عبر الساحل الصليبي، و تموينه، أتاح له الاستعداد التام للقتال، و السبق إلى ميدان المعركة، فضلاً عن وفرته قياسًا بجيش المغول المُرابط، و ارتياح السلطان لنفض صليبيّي عكّا أيديهم من حلف المغول.

أسوار عكّا، و ذكّرهم بواجبهم نحو دينهم و أُمّتهم و مسؤوليّتهم أمام ربّهم و حثّهم على الاستبسال في الجهاد، مما أثّر على مشاعر الجند الإسلامي، فصمّموا على التفاني إلى آخر رمق(1).

اتجه الجيش المصري عبر الممالك الصليبيّة الإفرنجيّة نحو نهر الأردن، و في يوم 15 رمضان عام 658هـ/03 سبتمبر 1260م التقى جيش المغول المؤيّد ببعض النجدات الصليبيّة من الكرج(*) و الأرمن، بجيوش مصر، فكان الكمين و وقع كيتوبوقا في الشرك، و انشقّ عليه المصريُّون من ثلاث جهات فدارت المعركة بين الفريقين من الفجر إلى منتصف النهار، و انجلت عن انتصار المسلمين(2)، فكانت هذه الواقعة أوّل هزيمة منكرة للمغول بعد أن يئست القلوب من هلاكهم، لأنّهم ما قصدوا إقليمًا إلاّ فتحوه و لا عسكرًا إلاّ هزموه(3).

كانت هذه المعركة حاسمة انتقم فيها جيش مصر لجميع من طالتهُ أيدي هؤلاء البرابرة الإستبسيّين، فقُتل منهم جند كبير. و أمّا من سلموا منهم و لجأوا إلى قمم الجبال فقد طُوردُوا حتّى أُفنوا عن آخرهم، و كان هناك مزرعة للقصب بالقرب من ساحة القتال، إختفى فيها فوج من فرسان المغول، فأمر قطز جنوده بأن يضرموا فيها النار، فاحترقوا عن بكرة أبيهم(4).

---

(1) المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص430.

(*) الكُرجُ، جيلٌ من النصارى كانوا يسكنون في جبال القبق(جبل في تخوم أذربيجان) فقويت شوكتهم حتّى ملكوا مدينة تفليس حتّى أخرجهم منها خوارزم شاه جلال الدين، و منهم من جعلها ناحية من الروم بثغور أذربيجان. أنظر:
ياقوت الحموي: المصدر نفسه، م4، ص446 ؛ محي الدين الزبيدي: المصدر نفسه، م3، ص466، م13، ص417.

(2) رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص313-314 ؛ المقريزي: المصدر نفسه، ج1، ق2، ص 430- 431 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج5، ص 291 ؛ رنسيمان: المرجع نفسه، ج3، ص536-537 ؛ الذهبي: كتاب دول الإسلام، ج2، ص 163. و انظر أيضًا :

Guillaume de Tyr, L’Estoire de Eracles., chapitre III, p. 444, et note e ; Mouterde (Rene S.J.), **Precis d’histoire de la Syrie et du Liban**, Edition de l’imprimerie catholique, Beyrouth 1932, p.82

يقول رنسيمان في كتابه "تاريخ الحروب الصليبيّة" ج3، ص 537-538 :"... ما أحرزه المماليك من انتصار، أنقذ الإسلام من أخطر تهديد تعرّض له. فلو أنّ المغول توغّلوا إلى داخل مصر، لما بقي للمسلمين في العالم دولة كبيرة، شرقي بلاد المغرب، و مع أنّ المسلمين في آسيا، كانوا من وفرة العدد، ما يمنع من استأصال شأفتهم، فإنّهم لم يعودوا يُؤلّفون العنصر الحاكم، و لو انتصر كيتوبوقا المسيحي، لازداد عطف المغول على المسيحيّين، و لأصبح للمسيحيّين في آسيا السلطة لأوّل مرّة منذ سيادة النّحَل الكبيرة في العصر السابق على الإسلام، على أنّه من العبث أن نفكّر في الأمور التي قد تحدث وقتئذ، فليس للمؤرّخ إلاّ أن يروي ما حدث فعلاً. ".

(3) أبو الفدا: المصدر نفسه، ج3، ص205.

(4) كان المؤرّخون المسلمون منصفين إذ اعترفوا اعترافًا صريحًا كاملاً بما كان يتّصف به القائد المغولي " كيتوبوقا" من صفات المحارب الشجاع حتّى وقع في أسر المصريّين و أُعدم. يذكر رشيد الدين الهمذاني، أنّ كيتوبوقا صار يضرب يمينًا و شمالاً و يكرُّ على أعدائه غيرة و حميّة رُغم أنّ أصحابه نصحوه بالهرب، و لكنه لم يأبه و قال :" لا مفرّ من الموت هنا، فالموت مع العزّة و الشرف خير من الهرب مع الذلّ و الهوان، و سيصلُ رجل واحدٌ، صغيرًا أو كبيرًا، مع أفراد هذا الجيش إلى حضرة الملك (هولاكو)، و يعرض عليه كلامي قائلاً: إنّ كيتوبوقا لم يشأ أن يتراجع، و قد أخذه الخجل، فضحّى بحياته الغالية في سبيل واجبه... إذ أنّ وُجُدُنَا و عدمُنَا نحن العبيد و الأتباع، أمرٌ سهل يسير". و ظلّ كيتوبوقا يُكافح ألف رجل وحده رُغم انفضاض جنوده إلى أن حانت نهايته. و لمّا مثل أمام السلطان قطز مُكبّلاً ، قال له :" أيُّها الرجل الناكث بالعهد... ما أنت بعد أن سفكت كثيرًا من الدماء البريئة، و قضيت على الأبطال و العظماء بالوعود الكاذبة، و هدّمت البيوتات العريقة بالأقوال الزائفة المزوّرة، قد وقعت أخيرًا في الشرك"، فردّ عليه في تكبُّر :" إنّي إذا قُتلتُ على يديك، فإنّي أعلم أنّ ذلك من الله لا منك، فلا =

و ما أن وصلت الأخبار إلى دمشق بانكسار المغول، حتّى شرع المسلمون في حملة انتقاميّة ضدّ كلّ من تعاون معهم، و في مقدّمتهم المسيحيُّون الذين ساندوهم و اقترفوا الكبائر في حقّ أهالي المسلمين طيلة فترة الحكم المغولي(1).

سبق بيبرس البندقداري إلى دمشق يتعقّبُ الفارّين من المغول فأفناهم، ثمّ دخلها قطز، وعاقب الخونة و كافأ الأبطال(2).

و بهذا سيطر مماليك مصر على الإمارات الإسلاميّة في سورية و ضمُّوها إلى بلادهم، ولكنّ المغول كانوا يهجمون عليها من حين لآخر طامعين في استردادها لوْلا أنّ جهود المدافعين كانت هذه المرّة صادقة.

و مهما يكن، فإنّ نصر عين جالوت يدُلُّ على أنّ هذه الأمّة لا تزال تُنجبُ الرجال مهما تحرّش بها الخونة و الأعداء، و أنّ الإيمان بالله ثُمّ الوطن أساس النصر و الكرامة مهما بلغ كيد

= تنخدع بهذه المصادفة العاجلة، و لا بهذا الغرور العابر، لأنّهُ حين يبلغ هولاكو نبأ وفاتي، سوف يغلي بحر غضبه، و ستطأُ سنابك خيل المغول البلاد من أذربيجان حتّى ديار مصر، إنّ لهولاكو خان ثلاثمائة ألف فارس مثل كيتوبوقا، فافرض أنّه نقص واحد منهم"، فقال له قطز:" لا تفخر إلى هذا الحد بفرسان توران، فإنّهم يُزاولون أعمالهم بالمكر و الخداع، لا بالرجولة والشهامة"، ثمّ أمر بقطع رأسه، و طيف به في البلاد. أنظر:
رشيد الدين الهمذاني: المصدر نفسه، م2، ج1، ص 314- 316.

أمّ المؤرّخ ابن تغري بردي، فيقول عن كيتوبوقا حينما يُؤرّخُ لسنة 658ه :" كان كتبغا نُويُن عظيمًا عند التتر، يعتمدون على رأيه و شجاعته و تدبيره، و كان بطلاً شجاعًا مقدامًا، خبيرًا بالحروب و افتتاح الحصون، و الاستيلاء على الممالك، و هو الذي فتح معظم بلاد العجم و العراق، و كان هولاكو ملكُ التتر يثق به و لا يُخالفهُ فيما يُشيرُ إليه، و يتبرّكُ برأيه، يُحكى عنهُ عجائب في حروبه، و كانت مقتلتُه في يوم الجمعة خامس و عشرين شهر رمضان في المصاف على عين جالوت".
أنظر: ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج7، ص 90-91.

(1) أبو شامة: المصدر نفسه، ص 208 ؛ الذهبي: دُوَل الإسلام، ج2، ص125 ؛ المقريزي: المصدر نفسه، ح1، ق2، ص432؛ ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ص 81.

يقول ابن تغري بردي :" فلمّا هرب نوّاب التتار حين بلغتهم الكسرة أصبح الناس و توجّهوا ألى دور النصارى يَنهبونها و يأخذون ما استطاعوا منها، و أخربوا كنيسة اليعاقبة [و اليعقوبيّة هم أتباع " دسفورس" بطريق الإسكندريّة، كان اسمه يعقوب قبل تولّيه]، و أحرقوا كنيسة مريم [كانت كنيسة عظيمة في جانب دمشق الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف فبقيت بيد المسلمين، و كان ملاصق الجامع كنيسة، من الجانب الذي فتحه أبو عُبيدة(الصحابي) بالأمان فبقيت بيد انصارى. فلمّا ولّى الوليد بن عبد الملك الخلافة خرّب الكنيسة الملاصقة للجامع و أضافها إليه و لم يُعوّض النصارى عنها، فلمّا ولّى عُمر ابن عبد العزيز، عوّضهم عنها بكنيسة مريم فعمروها عمارة عظيمة، و بقيت كذلك حتّى خرّبها المسلمون في هذه السنة حتّى بقيت كومًا، و قتلوا منهم جماعة و اختفى الباقون. و كانت النصارى في تلك الأيّام ألزموا المسلمين بالقيام في دكاكينهم للصليب، و من لم يقم أحرقوا به و أهانوه، و همّ أهل دمشق أيضًا بنهب اليهود فنهبوا منهم يسيرًا ثُمّ كفُّوا عنهم. أنظر :
ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ص 81.

و يقول العيني :"... فلمّا هرب التتار من دمشق ليلة الأحد السابع و العشرين من رمضان اصبح الناس إلى دور النصارى ينهبون و يخربون ما استطاعوا منها و أخربوا كنيسة اليعاقبة و كنيسة مريم حتّى بقيت كومًا و الحيطان حولها يعمل النار في أخشابها و قتل منهم جماعة و اختفى الباقون و جري عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين ثُمّ همُّوا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثُمّ كفُّوا عنهم لأنّهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى". أنظر: العيني: المصدر نفسه، ص 216.

(2) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج7، ص 82 ؛ ابن الوردي: المصدر نفسه، ص 297-298 ؛ أبو الفداء: تاريخه، ج3، ص205.

الحاقدين، كما أظهرت هذه المعركة قُوّة جديدة جعلها الله سدًا منيعًا بين الحقّ و الباطل على رأسها السلطان قطز المملوكي الذي قال فيه المؤرّخ ابن تغري بردي :" كان المظفّر أكبر مماليك المُعزّ أيبك التُركماني، و كان بطلاً شُجاعًا مقدامًا، حازمًا حسن التدبير، يرجع إلى دين و إسلام و خير، و له اليد البيضاء في جهاد التتار ، فعوّض الله شبابه بالجنّة، و رضي عنه "[1]، و هو ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك[2].

---

(1) ابن تغري بردي: المصدر نفسه، ج7، ص84 ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج5، ص293.

(2) ابن تغري بردي:المصدر نفسه، ج7، ص 85 ؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج3، ص 202 ؛ ابن الجوزي: **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، الطبعة الأولى، حيدر أباد الدكن، الهند،1951م، ج2، وردت الترجمة في (ر)، ص28-36.

الخاتمة

يُعتبر عنصر المغول من العناصر البشريّة الآسياويّة التي تعيشُ على البداوة و الترحال، و يُسايرون الطبيعة حسب حاجتهم المعيشيّة. كان موطنهم الأوّل في الشطر الشرقي من آسيا الوسطى و في الشمال الغربي من الصين، و تحديدا في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمال صحراء جوبي.

كان ظهور جنكيزخان بقوّة النار و الحديد، و نجح في جمع شمل المغول تحت راية واحدة، فتعزّزت قوّته و قويت شوكته، مما سمح له بتحقيق إمبراطوريّة واسعة الأرجاء ضمّت أكثر من نصف العالم آنذاك، إنجازٌ لم يسبقه في تحقيقه أحدٌ من قبله.

و لا شكّ أنّ ظهور المغول على الساحة الدوليّة كان حقًّا إشارة إلى ميلاد عصر جديد، دخلت به آسيا و أوربا عهدًا بالغ التأثير، قوامه الإضطراب و الخوف و الدمار، حتّى ساد الاعتقاد أنّ نهاية سُلالة البشر قد أزفت و حلّت، على أنّ حرب المغول مع غيرهم من المسلمين والمسيحيّين إنّما تُحركُها مصالح زمنيّة، في ظلّ السعي إلى نشر الفساد و الحراب في الأرض وجمع الغنائم الوافرة. و الواقع أنّ ما حقّقه المغول في المجال الآسياوي يُبرزُ أهميّة وحدة الصفّ والغاية في تحقيق الأهداف الإستراتيجيّة المنشودة، و يُلمسُ ذلك من خلال ما حقّقه جنكيزخان في هذا المضمار.

و من مظاهر حركة توسُّع جنكيزخان، أنّ هذا الأخير ركّز على احتلال الدولة الخوارزميّة، و خاصّة أفغانستان لما تحتلُّه من موقع حسّاس بوسط آسيا، و لأنّ الاستيلاء عليها يُمكّن صاحبها من فرض رقابة تامّة على الهند و باكستان و إيران و روسيا و الصين، مما يجعل السيطرة على كامل آسيا أمرًا مُمكنًا، كما أنّ السُكان الأفغان الذين عُرفوا بتمسُّكهم الشديد بشعائر الإسلام قد سقطوا في قبضة المغول، هذا على الرغم من شدّة بأسهم و مُقاومتهم لهم. و كان لهذه النتيجة الأثر البالغ في نفوس المسلمين عامّة، حيثُ تمكّنت منها روح الهزيمة و اليأس، ممّا حال دون بروز أيّة محاولة إسلاميّة ناجعة لإزالة الذل و الغُبن المفروضين من هذا العُنصر. إنّ هذه الحقيقة التاريخيّة تدفعُ إلى القول، بأنّ الهزيمة النفسيّة هي التي تُؤدّي إلى البوار الحقيقي و انكسار الشعوب.

كان محمّد خوارزم شاه، حاكم الدولة الخوارزميّة، مُعاديًا للخلافة العبّاسيّة في العراق و لغيرها من القوى الإسلاميّة في آسيا الوسطى. و كان هذا الجفاء سببًا في وقوع هذا الأخير في عُزلة تامّة مُضرّة بسُلطانه، إذ وجد نفسه وحيدًا في مواجهة الغزو المغولي، فغدا في وضع لا يُحسدُ عليه. و لا شكّ أنّ هذا الوضع الإسلامي المأساوي إنّما يرجعُ سببُه إلى كما تدُلُّ عليه الوقائع

إلى ظاهرة التمزُّق و الفرقة و الاختلاف، و التي باتت تنخر جسم الدولة الإسلاميّة المريض، وليس هذا الواقع بغريب عما يعرفه العالم العربي و الإسلامي في الوقت الحاضر.

و يُمكن حصر أسباب سُقوط الدولة الخوارزميّة، في تلك السياسة التي اتبعها الخليفة العبّاسي الناصر لدين الله المتميّزة بالخيانة و الخُذلان، حيث حرّض جنكيزخان ضدّ محمّد خوارزم شاه، كما أنّه سعى حثيثًا إلى زرع الشقاق في صفوف الأُسرة الخوارزميّة، ممّا أضعف سطوة حُكّامها. و كان أوّل من تأثّر بهذا المشهد هو غيّاث الدين، بن حوارزم شاه، الذي فقد بموجب هذا الوضع الوخيم، الدعم المطلوب و الضروري لتثبيت سُلطانه على المناطق التابعة له. و يتبيّن من خلال هذه التطوُّرات أنّ الخليفة الناصر لم يحفل بما يُحدق به من مخاطر خارجيّة، إذ لم يتناسى الخلافات التي كانت بينه و بين مملكة خوارزم شاه، بل كان هذا عاملاً مُحرضًا في تماديه في اعتماد سياسة التواطؤ مع المغول، و هو أمر فد أضرّ إلى أبعد الحدود بمصالح المسلمين.

و قد ساهم في إضعاف أركان الدولة الخواروميّة، الصراع الذي استحكم بين غياث الدين وأخيه جلال الدين منكبرتي، بني محمد خوارزم شاه، والذي كان سببه سياسيا محضًا. و ليس هناك من شك أنّ هذه العلاقات الداخليّة المتأزّمة و الوخيمة قد أضرّت بمصالح المسلمين الإستراتيجيّة في بلاد الشرق. و يتبيّن ممّا انجر من تبعات اجتياح المغول للساحة الإسلاميّة المشرقيّة، أنّ هذا الأخير شكّل عُنصرًا سلبيًا في حياة المسلمين بهذه المنطقة، سياسيا و عسكريا و اجتماعيا، حيث تسبّب هذا العنصر الأسياوي في إثارة تقلُّبات عميقة أثارت أيما تأثير على مُستقبل الشرق بأكمله.

لم يقنع المغول بما حقّقوه في البلاد الإسلاميّة من مكاسب سياسيّة و ماديّة مُنقطعة النظير، و إنّما اتجهت أنظارهم أيضًا إلى البلاد المسيحيّة في أوربا. و قد عان الأوربيُّون ويلات شديدة من جرّاء غزواتهم. و على غرار المسلمين فقد لحق الساحة الأوربيّة، الشرقيّة خاصّة، ألوان كثيرة من الخراب و الدمار و الاضطراب. و على الرغم من ذلك، فإنّ القُوى الأوربيّة، و بخاصّة البابويّة، لم تجنح إلى اتخاذ موقف حاسم يتماشى و التطوّرات المفروضة عليها من المغول، كاتخاذ سياسة دفاعيّة ناجعة و رادعة تجاه هؤلاء الغزاة، بل آثر الأوربيّون اتباع سياسة ترمي إلى مُهادنة المغول و إغرائهم قصد كسبهم إلى الصف المسيحي، و تنطوي هذه السياسة على مُحاولة ترويض هذا العنصر و تنصيره و تحويله من عدُو لدود إلى حليف يُساندُها و يُؤازرها في محاربة المسلمين.

و يتجسّد هذا التصور في تحركات البابويّة تجاه المغول حيث أقبلت على إيفاد ثُلّة من السفراء الذين اشتهروا بتعصّبهم الديني كبلان دي كربين، و هو من الرهبان الفرانسيسكان، الذي

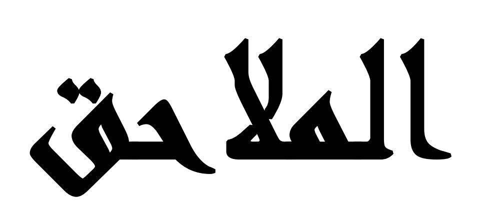
شدّ رحاله، سنة 1245م، إلى قراقورم عاصمة أوكتاي خان، موفدًا من لدن البابا إنوسنت الرابع، وسار على دربه المبعوث أسكلين، و هو من رهبان الدومنيكان، مُمثّلاً لنفس البابا، و ذلك سنة 1247م. كانت هذه المساعي المسيحيّة الغربيّة ترمي إلى إقناع المغول على وجوب الإنضواء تحت جلباب الكنيسة الرومانيّة، غير أنّ محاولات البابويّة لم تلق النجاح المطلوب أمام تصلُّب موقف الخان، و اقتصرت نتيجتها على الاحتكاك أوّلي و شكلي بهذا العنصر، و معرفة طبيعتهم البدويّة المتعصبة، هذا على الرغم من اكتشاف المبعوثين البابويّين، عناصر مسيحيّة "نسطوريّة" مغوليّة و غير مغوليّة منتشرة في أوساط بلاط الحكم، تعيش في ظل عجزها الملحوض عن احتواء حُكام المغول عقائديًا، مما يوحي إلى قوّة شخصية المغول و صلابة موقفهم و تمسكهم المفرط بعقيدتهم الوثنيّة المحفوفة بطابع البداوة، مما يُشير أيضا إلى صعوبة نجاح أيّ تأثير في هذا المجتمع الأسياوي المنغلق.

و قد حذا الملك الفرنسي لويس التاسع حذو البابويّة، إذ تحرّك هو الآخر في سبيل عقد علاقات تحالف مع المغول، و يظهر ذلك من خلال السفارتين اللتين بعث بهما إلى كيوك بمنغوليا و إلى سرتق بالقبجاق، و هما سفارة لونجمو و سفارة روبروك المنتميان إلى هيئتي الدومنيكان والفرنسيسكان الدينيّتين. لكن هذه المحاولة الملكيّة التي وقعت سنة 1249م و سنة 1252م لم تُكلل هي الأُخرى بالفوز المنتظر و هو تحقيق التقارب ثُمّ التحالف مع هذا العنصر الأسياوي "الجبار"، ذلك لتحقيق الغاية الصليبيّة العُليا و المتمثّلة في كسر القوى الإسلاميّة بمصر و الشام.

على أنّ المحاولات المسيحيّة الغربيّة إذا قُدّر لها أن تلقى الفشل المحتوم، إلاّ أنّ إخوانهم في الدين، الأرمن الشرقيّين بزعامة هيثوم الأوّل، ملك أرمينيا الصغرى، قد نجحوا في ربط علاقات متينة و ناجعة مع المغول عادت على الجانبين، المغولي و الأرمني، بالفائدة الملموسة حيث سار الطرفان في حملة عسكريّة مُشتركة ضدّ الدولة العبّاسيّة بالعراق أسفرت عن سقوط الخلافة الإسلاميّة ببغداد. و لا شكّ أنّ نجاح الأرمن في بلوغ غاية قد فشل الغرب في تحقيقها، ألا و هي محالفة المغول، إنّما يرجع سببه بالدرجة الأولى إلى الحكمة البالغة و البراعة السياسيّة النافذة التي تمتّع بها ملك الأرمن، هيثوم الأوّل، و التي سمحت له باختراق البرج المغولي الذي لا يُرام و ذلك في ظل قناعته التامّة بعجزه عن مواجهة هذه القوّة المغوليّة الزاحفة، و رأى أيضًا هو الآخر على شاكلة الأوربيّين، أنّه من الحكمة بمكان بعث المشروع الصليبي الذي أصابه الفتور في هذا الزمن، و ذلك في ظل استغلال قوّة المغول، و هو ما تحقّق فعلاً.

و مهما يكن من أمر هذه العلاقات المسيحيّة المغوليّة، فإنّها تكشف يقينًا عن استراتيجيّة العالم المسيحي الصليبي، غربًا و شرقًا، الرامية إلى تقويض أركان الدولة الإسلاميّة بالمشرق، وفي سبيل تحقيق هذا المشروع الصليبي لم تتورّع القوى المسيحيّة المذكورة عن محاولة التحالف مع الوثنيّين، أعداء المسيحيّة التاريخيّين. و قد تغاضت البابويّة و من لفّ حولها، من ملوك أوربّا، عن الفضائع التي ارتكبها المغول في حقّ المسيحيّين، و لم تدعو إلى الانتقام منهم. فلا غروة إذا أومأ المتتبّع لهذه العلاقات، إلى أنّ الحقد الدفين الذي يُناصبه المغول للمسلمين قد وفر لهؤلاء الغزاة الشفاعة لدى المسيحيّين الأوربيّين، ممّا ارتكبوه من تجاوزات رهيبة طالت مناطق واسعة من شرق أوربّا، طالما تعلّق الأمر بمعادلة الاجهاز على المسلمين و تقويض أركان دولتهم. لقد أبدت الكنيسة الرومانيّة، المتمثّلة في شخص البابا، استعدادا فريدا من أجل بلوغ هذه الغاية عن طريق ربط أوشاج العلاقة مع المغول، لولا أن اراد لها هؤلاء الغزاة ظهر المجن.

و في الوقت الراهن، عمدت القوى المسيحية في أوربا إلى بعث مثل هذا المشروع، بحجة مقاومة المدّ الإسلامي الأخضر الذي بلغ المعمورة كلها، و قد كلّلت مساعيها بالنجاح الباهر حيث أفرزت ميلاد حلف متين و نشيط تُشكله المسيحيّة و اليهوديّة العالميّة. و يُعد هذا التلاحم فعلاً، جبهة دفاعيّة و هجوميّة في ذات الحين، لا تغمض أجفان أصحابها في سبيل زعزعة أسس الاسلام و أتباعه. و ما يجري في العالم الاسلامي من اضطرابات مفعمة و تطوّرات وخيمة، إنّما هو انعكاس ساطع لتطلعات أقطاب هذا الحلف. إنّ أوربا المسيحيّة قد فشلت في بناء تحالف مع المغول، لكنّها نجحت في ذلك مع اليهود الذين قاسوا الذل و المسكنة على أيدي الكنيسة الكاثوليكيّة طوال فترة العصور الوسطى. و ما أشبه البارحة باليوم، و بين الأمس و اليوم. و في ظل واقع المسلمين المعاصر، يضطر العاقل إلى طرح ذلك السؤال التقليدي المشهود القائل : هل يُعيد التاريخ نفسه؟، أم أنّ هذه الاحداث هو مجرّد صدفة مع التاريخ لا علاقة له بالماضي القديم. إنّ في هذا كلّه عبرة لمن يُريد أن يعتبر.


الملاحق

الملحق الأوّل:

Two bulls of pore Addressed to the Emperor of the Tartars

I

God the Father, of his graciousness regarding with unutterable Loving-Kindness the unhappy lot of the Human race, brought low by the guilt of the First man, and desiring of his exceeding great charity mercifully to restore Whom the devil's envy overthrew by a crafty suggestion, sent from the lofty throne of heaven down to the lowly region of the world his only-begotten Son, consubstantial with himself, who was conceived by the operation of the Ghost in the womb of a fore-chosen Virgin and there clothed in grad of hum an flesh, and afterwards proceeding thence by the closed door of his mother's Virginity, he showed Himself in form visible to all men. For human natur, being endowed with reason, was meet to benourished on eternal truth as itschoicest food, but, held in mortal chains as a punishment for sin, its powerswere thus for redused that it had to strive to understand the invisible things of reason's food by means of inferences drawn from visible things. The Creator of that creature becaume visible, clother in our flesh, not without Change in his nature, in order that, having become visible, he might call back to himself, the invisible, those pursuing after visible things, molding men bay his salutary instructions and pointing out to them by means of his teaching the way of perfection: following the pattern of his Holy of life and his wordsof evangelical instruction, he deigned to suffer death by the torture of cruel cross, that, by a penal end to his present life, he might make an end of the penalty of eternal death, with the succeeding generation had incurred by the transgression of their firstpare-

nt, and that man might drink of the sweetness of the life of eternity from the bitter chalice of his death in time. For it behaved theMediator between us and God to possess both transient morality and everlasting beatitude, in order that by means of the transient the might by like those doomed to die and might transfer us from among the dead to that which lasts forever. He therefore offered himself as a victim for the redemption of manking and, Overthrowing the enemy of its salvation, he snatched it from the shame of Servitude to the glory of liberty, and unbarred for it the gate of the heavenly fatherland. Then, rising from the dead and ascending into heav- en, He left his vicar on earth, and to him, after he had borne witness to the constancy of his love by the proof of a threefold profession, He committed the care of souls, that he should with watchfulness pay heed to and with heed watch ever theirsalvation, for which He had humbled his high digni- ty, and he handed to him the keys of the kingdom of heaven by which he and, through him, his successors, were to possess the power of opening and of closing the gate of that kingdom to all. Where for we, though unwo rthy, having become, by the Lord's disposition, successor of this vicar, do turn our keen attention, before all else incumbent an us in virtue of our of- fice, to your salvation and that of other men, and on this matter especially do we fix our mind, sedulously keeping watch over it with diligent zeal and zealous diligence, so that we may be able with the help to the God's grace, to leard those in error into the way of truth and gain all men for him. But since we are unable to be present in person in different places at one and the same time for the nature of our human condition does not allow this in order that we may not appear to neglect in any way those absent fr- om us we send to them in our stead prudent and disc reet men by whose ministry we carry out the obligation of our apostolic mis- sion to them. It

is for this reason that we have thought fit to send to you our beloved son Friar Laurence of Portugal and his companions of the order offriars Minor, the bearers of this letter, men remarkable for theis religions spirit, comely in their virtue and gifted with a knowledge of holy scripture, sothat follo wing their salutary instructions you may a knowledge Jesus Christ the very son of God and worship his glorios name by practicing the Christian religion.

We therefore admonish you all, beg and earnestly entreat you to receive the se Friars kindly and to treat them in considerate fashion out of reverence for God and for us, ideed us if receiving us in their person, and to employunfeig ned honesty towards them in respect of those matters of which they will speak to you on our behalf, we also ask that, having treated with them conce rning the aforesaid matters to your profit, you will furnish them with safe conduct and other necessities on both their outward and return journey, so that they can safely make their way back to our presence when they wish.

We have thought fit to send to you the above-mentioned Friars, whom wespecially chose out from among others as being men proved by years of regular ob servance and will versed in holy scripture, for webelieved they would be of greater help to you, seeing that the follow the humility of our savior: ifwe had thought that ecclesiastical prelates ofother powerful men would be more profitable and more acceptable to you would have sent them.

Lyons, 5th March 1245.

II

Seeing that not only men but even irrational animals, nay, the very elements which go to make up the world machine, are united by a certain innate law after the manner of the celestial Spirits, all of which God the Creator has divided into choirs in the enduring stability of peaceful order, it is not without Cause that we are driven to express in strong terms our amazement that you, as we have hwad, have invaded many countries belonging both to Christiansand to other and are laying them waste in a horrible desolation, and with a fuly still unabated you do not cease from Stretching out your destroying hand to more distant land, but, breaking the bond of natural ties, sparing neithersex no rage, you rage against all indiscriminately with the sword of chastisement.

We, therefore, following the example of the king of Peace, and desiring thatall men should live united in concord in the fear of God, do admonish, begand earnestly beseech all of you that for the future you desist entirely fromassaults of this kind and specially from the persecution of Christians, and that after so many and such grievous offences you conciliate by a fitting pen- ance the wrath of Divine Majesty, which without doubt you have seriouslyaroused by such provocation, not should you be emboldened to commit further savagery by the fact that when the sword of your might has ragedagainst other men almighty God has up to the present allowed various nations to fall before your face, for sometimes He refrains from chastising the proud in this world for the moment, for this reason, that if the neglect to humble themselves of their own accord He may not only no longer put off the punishment of their wickedness in this life but may also take greater vengeance in the world to come. On this account we have thought fit to send to you our beloved son (John of Plano Carpini) and his

companions the bearers of this letter, men remarkable for their religious spirit, comely in their virtue and gifted with knowledge of holy scripture, receive them kindly andtreat them with honor out of reverence for God, indeed as if receiving us in their persons, and deal honesty with them in those matters of which they will speak to you on our behalf, and when you have had profitable discussions with them concerning the aforesaid affairs, especially those pertaining to peace, make fully Known to us through these same friars what moved you to destroy other nations and what your intentions are for the future, furnishing them with a safe-conduct and other necessities on both their outward and return journey, so that they can safely make their way back to our presence when they wish. (1)

Lyons, 13th March 1245.

(1) أنظر :

Innocent IV, in Epistolae Saeculi XIII e regestis Pontificorum Romanorum selectee, T. II, Nos. 102 and 105, MonumentaGermaniae Historica, Translated by Dawson(Christopher), The Mongol Mission, first published by Sheed and Ward LTD, London 1955, pp. 73-76.

نص الترجمة العربيّة للرسالتين الموجّهتين إلى خان المغول من طرف البابا إنوسنت الرابع:

I

باسم الإله الأب، الرحيم، المحب، الكريم، الذي ينظر بعين العطف لأفعال الجنس البشري التعس، أنشأ القانون بسبب خطأ الإنسان الأوّل، و لرغبته الشديدة أيضًا في إحلال الخير بسبب استخدام الشيطان لحيلة صادرة من العرش الأعلى إلى النظام السفلي للعالم. و لإصلاح الوضع جاء الإبن الجوهري الذي وُلد بفضل روح مقدّسة في رحم أمّه العذراء المختارة سلفًا و المغطّاة باللّحم الآدمي ليخرج بعدها للناس و يتبيّن لهم على صورته المكشوفة في طبيعته البشريّة، ثُمّ تزويده بالعقل و تغذيته بالحقيقة الأبديّة و لكن تمّ تقييده بسلاسل و قيود من أجل عقابه على ذنبه. فقدراته كانت ناقصة من أجل المُضيّ في سبيل فهم الأُمور الغير مرئيّة عن طريق استعمال العقل كوسيلة للإستنتاج من خلال ملاحظة و تفحُّص الأشياء المرئيّة.

إنّ خالق هذا المخلوق أصبح مكشوف على هيئة آدمي و لكن بدون تغيير طبيعته حيث يسمح له بمناداة نفسه و إعطاء الناس التعاليم السمحاء و إرشادهم إلى طريق الكمال. فبإتباعه الطريق المقدّس للحياة و عباراته المسيحيّة، فإنّه فضّل الموت على صليبه على الحياة ليضع بذلك نهاية للعقاب بموته الأبديّ ليُبيّن للأجيال اللاّحقة ما تعرّض له أبوهم الأوّل من أجل محو خطاياهم و تذوُّق حلاوة الحياة الأبديّة من خلال الكأس المرّ الذي تجرّع منه أبوه عند موته. و على هذا فإنّنا نُحبُّ الوسيط بيننا و بين الله في امتلاك كلّ من الحياة العابرة و السعادة الدائمة، فمصيره إذًا مشابه للناس بانتقاله من الحياة الدنيا إلى الحياة الأبديّة. فهو افتدى بروحه تخليصًا للبشريّة و قهر خصومه من النجاة.

إنّه خلّص البشريّة من قيود الاستعباد لسنقلها إلى فضاء الحريّة بإزالة كلّ العوائق أمام باب النّعيم لإرضاء الأب و الإرتقاء من الموت إلى الجنّة، فهو ترك قسّه كنائب له في الأرض، و هذا بعد أن عبّر عن حبّه و وفائه للدلائل الثلاثة في تعاليمه :

إنّه تولّى علاج النفوس بإيقاظها و معاونتها على النجاة، و كذا تسليم مفاتيح الجنّة له و التي من خلالها يُمكن له استخدام قدرته على فتح و غلق هذه الإمبراطوريّة للجميع. م هكذا فإنّ الإلاه و خليفته القسّ يقوم على تحويل انتباهنا إلى الفضيلة و إنقاذ الآخرين من أجل تطوير عقولنا و العمل بكلّ ثبات لمراقيتها بكلّ حماس حتّى نكون قادرين بعون الله و رحمته على مساعدة الآخرين لإصلاح أخطائهم و توجيههم إلى الحقيقة من أجل كسبهم جميعًا. و نظرًا لصعوبة أن يكون حاضرًا لدى كلّ شخص و في أماكن مختلفة و في نفس الوقت نظرًا لطبيعتنا الإنسانيّة التي لا تسمح بذلك،

و لكن لا يجب أن نظهر غير مكترثين بالأشخاص الغائبين عنّا لأنّه من الواجب علينا إتمام مهمّتنا الروحيّة نحوهم بإعطائهم التعاليم اللازمة، و من وجهة النظر هذه رأينا أنّه من المناسب أن نبعث إليكم إبنانا الراهب المحبوب (لورنس البرتغالي) و مرافقيه الرُّهبان الحاملين لهذه الرسالة المعروفين بميْلهم الشديد نحو الدين و اتصافهم بالفضيلة، و كذا معرفتهم و اطّلاعهم على الكتاب المقدّس، و باتباعك أوامرهم و إرشاداتهم سوف يتسنّى لديك معرفة حقيقة ابن الله و تحبّ اسمه العظيم و من ثَمّ تقوم بممارسة الديانة المسيحيّة، و على هذا فإنّني أطلب منكم و بكلّ لطف أن تعتنوا بهؤلاء الرهبان و تحسنوا معاملتهم احتراما للإله و احترامًا لنا، فاستقبالكم الحسن لهم بمثابة استقبال لي، لذا فعاملوهم ليس بنيّة التظاهر فقط بالكرم و حسن الضيافة، و إنّما باحترام المبادئ و الأفكار التي يحملونها إليكم، و كذا إعطائهم الأهميّة البالغة بتلبية جميع احتياجاتهم و حمايتهم أثناء مجيئهم و عودتهم، و تخلية سبيلهم للرجوع إلينا حين رغبتهم لذلك. إنّنا نرى أنّه من المناسب أن نبثّ إليكم هؤلاء الرهبان الذين تمّ اختيارهم بدقّة نظرًا لما يتّصفون به من دقّة الملاحظة و إلمامهم الكبير بالكتاب المقدّس، و هذا ما نراه السبيل الأمثل لمساعدتكم، لأنّهم أناس متواضعين كتواضع منقذنا الذي أفدى بروحه من أجلنا، و لو كان من هو أفضل من هؤلاء الرُّهبان، لما قصّرنا في بعثهم إليكم.

ليون 05 مارس 1245م.

II

من الملاحظ أنّ حتّى البهائم ساهمت إلى جانب الإنسان في تكوين هذا العالم، و هي مرتبطة بقانون فطري بعد الأرواح السماويّة، و كل هذا من خلق الله في إطار منظّم و متقن التدبير، ما يجعلنا ننقاد نحوه بانبهار شديد. لقد قُمت بغزو عدّة بلدان تنتمي إلى المسيحيّة أو إلى غيرها و تركتهم يعيشون في عزلة كبيرة، و بغضبك الغير محدود لم تتوانى عن مدّ يدك المُدمّرة إلى بلدان بعيدة، و قمت بكسر الروابط الطبيعيّة و لم تراع الإبن و لا العمر، و وقفت أمام كلّ شيئ بسلاح القصّاص.

إنّنا نقوم باتّباع "ملك السلام" و نرى بوجوب عيش الجميع في وئام، و خوف من الله. إنّه من الواجب التوقُّف من هجماتكم مُسْتَقْبَلاً، و خاصّة على المسيحيّين، فعليكم إعلان مصالحتكم و توبتكم نحو الله دون أدنى شكّ. إنّ تماديك في اقتراف المزيد من العنف بحجّة مقاومة هؤلاء الرجال بسيفك، فاعلم أنّ الله هو القادر دائمًا على جعل هذه الأمم المختلفة تسقط أمام وجهك. و إنّ

من تأخذه العزّة بنفسه في هذا العالم لا يجب التخلّي عن عقابهم جرّاء شرورهم في هذه الحياة و لكن يجب أيضًا أن يُثأر لهم في العالم الآخر بعد هذه الحياة. و على هذه فإنّنا نرى أنّه من الأجدر أن نبعث إليكم إبننا المحبوب (يوحنّا أف بلانو كاربين) مع رفقائه الحاملين اهذه الرسالة و المعروفين بميلهم الشديد نحو الدين و كذا معرفتهم و اطلاعهم على الكتاب المقدّس، و على هذه أوصيكم بتلبية أوامرهم و معاملتهم معاملة لائقة. فحسن استقبالك لهم يُعدُّ بمثابة استقبال شخصي، لذا فعاملوهم ليس بنيّة التظاهر بالكرم فقط، و إنّما باحترام المبادئ و الأفكار التي يحملونها إليك، كما أوصيك بتلبية كلّ حاجياتهم و حمايتهم أثناء مجيئهم و عودتهم من جولتهم. إنّني أوصيك بالاستماع إليهم خاصّة في الأمور المتعلّقة بالسلم، و من خلال هؤلاء الرهبان فكّر مليّا فيما جعلك تُدمّر الأُمم الأُخرى و ما هي انطباعاتك نحو المستقبل. كما أحُثُّكم بتزويدهم و توفير الحماية لهم و تلبية مُتطلّباتهم الأُخرى أثناء مجيئهم و عودتهم من الرّحلة، و كذا إخلاء سبيلهم إن أرادوا العودة إلينا.

ليون 13 مارس 1245م.

ملاحظة: هذه ترجمتي الخاصّة، و قد عرظتُها على الدكتور بوكنّة عبد العزيز من قسم التاريخ، كليّة بوزريعة، جامعة الجزائر، فاستحسنها و هو مُلمُ بقواعد اللغة الإنجليزيّة.

الملحق الثاني:

Mongka Khan accorde au Roi d'Armenie toutes ses demandes.

« Puisque le Roi d'Arménie est venu avec bonne volonté de terre si éloignées jusqu'à notre empire, il est convenable que nous exautions toutes ses prières. Nous vous disons, à vous, roi d'Armènie, nous qui sommes empereur, que nous nous ferons baptiser et croirons au Christ et que nous ferons baptiser tous ceux de notre hôtel et ils auront la même foi que les chrètiens. Nous conseillerons aux autres de faire de même, mais sans les contraidre, car la foi ne peut être imposée.

Pour la deuxième requête, nous répendons que nous voulons établir la paix et l'amitié entre les chrétiens et les Tartares, mais nous voulons que les chrétiens s'engagent a garder bonne paix et amitié loyale envers nous comme nous le ferons envers eux. Et nous voulons que toutes les églises des chrétiens et les clercs, de quelques conditions qu'ils soient, séculiers ou religieux, soient libres et exempts de toutes servitudes et que leur personne et leurs biens soient conservés sans trouble.

Au sujet de la terre Sainte, nous disons que nous irions là-bas volontiers en Personne par respect pour Jésus-Christ, mais, comme nous avons fort à faire en notre pays, nous demandrons à notre frère Hulagu d'accomplir cette besogne et qu'il dèlivre la Terre Sainte de la domination des Sarrasins pour la rendre aux chrètiens. Nous enverrons nos ordres a Batu et aux autres Tartares qui sont en Turquie et aux autres qui sont dans ce pays d'aller prendre la citède Bagdad et d'abattre le Calife, notre ennemi mortel. Le Roi d'Armènie demande le privilège de recevoire l'appui des Tartares, nous voulons que ce privilège soit rèdigè selon ces dèsirs et nous le confirmerons. Et nous accordons bien volontiers que les terres dont le Roi

d’Armènie demande la restitution lui soient rendues et nous demandrons à notre frère Hulagu de lui rendre toutes les terres qui ont ètè en la seigneurie du Roi d’Armènie et nous lui donnons toutes celles qu’il pourra conquèrir sur les sarrasins. Et , par grâce spèciale, nous lui donnons tous les chateaux proches de sa terre. » (1)

---

(1) أنظر :

Hayton, la fleure des Histoires de la Terre d’Orient, dans Regnier-Bohler, croisades et pelerinages : Recit chronique et voyages en Terre Sainte XII^{e}-XVI^{e} siecle, édition Robert Laffont, S.A., Paris , 1997, p. 836.

الملحق الثالث:

طلب هيثوم و ردّ منكوخان عليه:

« L'epereor (Mongka) le réscent multe bénignement et cortoisement (et lui fist) tautes de graces et honours qe homes en parle jesqe au jour de hui. Aprés ce que le roy d'Ermenie ot séjorné aucuns jors, il fist ses péticions a l'eperor des Tartars… Requist que perpetual pais e amor feust fermé entre les Tartars et les créstiens.

Aprés requist que en toutes les terres que les Tartars avoient conquises e que ils aquerroient, les eglises des cristiens et les prestres e les cliercs et lespersones religioses feussent frans et délivrés de tot servaige. Aprés requist le Roi que pleut a Mongo Can doner e conseil à délivrer la terre sainte de mains des Sarrasins, e rendre cela as crestiens. Aprés requist que deüst doner commandement as Tartars qui estaient en la Turquie que deüssent aller à destruire la cité de Baldach (Baghdâd) et le Chalif qui estoit Chalife en segneors dela fause Loi de Mahomet. Aprés requist privileige e commadement de poeraver aide de ceaus Tartars qui seroient plus prés du roiaume d'Erménie, quant il les requerroit... ».

« Quant Mango Can ot entendues les requestes du roy d'Erménie, il fist venir le roy d'Erménie en sa présence et devant ses barons et toute sa cort, respendit et dist : « por ce que li rois d'Erménis, de tout de longues terres est venuz a notre empire de se bone volenté, digne choise et que nous feceons acomplir totes ses proieres... Nous volons que pais et perpetuél amistie soit entre les Crestiens et les Tartars, més nous volons que soiez plye que les créstiens tenront bone pais et loial amistié vers nous, si come nos ferons vers eaus. E volons que totes les Eglises des crestiens et les clercs, de quelque condition qu'ils soient, séculers ou religieus, soient frans et délivres de tout servage e soient gardez e sauvés sans modeste, en pers-

one e en avoir. Sur le faict de la Terre Sainte, dirons que nous irons vol entiers en persone. Més por ce que nous avons mult à faire en ces parties, nous commanderons à notre frére Haloon(=Hulagu), que il deige aller e acomplir ceste besoigne e délivrer la terre sainte du pouer des Sarazins e rendre la als crestiens... E il ira a prendre la cité de Baldach (Baghdâch) et destruire le chalif come nostre mortel enemi. Du priveleige que le roy d'E-rmenie requiest sur ce fait d'avoir aide des Tartars, nous le confermerons.E des terres que la roy d'Ermenie requiert que li soient rendues, nous l'otroi-ons volentiers et commenderons a nostre frère Haloon, que li doie (faire) rendre toutes les terres qui furent de sa seignorie, Et li donons toutes celes qu'il pourra conquerre contre les Sarazins, e de special grace, lui donons les chasteus qui sunt près de sa terre.». (1)

(1) أنظر :
Hayton, La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, in Recueil des Historiens des croisades, Documents Armeniens, publication de l'academie des inscriptions et belles letters, Paris, 1869-1906, T. II, pp. 164-166.

الملحق الرابع:

رسالة هولاكو إلى الملك المظفّر قطز:

"من ملك الملوك شرقًا و غربًا، القان الأعظم. باسمك اللهمّ باسط الأرض و رافع السماء. يعلم الملك المظفّر قطز، الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا(*) إلى هذا الإقليم يتنغّمون بأنعامه، و يقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك. يعلم الملك المظفّر قطز، و سائر أمراء دولته و أهل مملكته بالديار المصريّة و ما حواها من الأعمال أنّا جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، و سلّطنا على من حلّ به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، و عن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، و أسلموا إلينا أمركم قبل أن يتكشّف الغطاء فتندموا، و يعود عليكم الخطا، فنحن ما نرحم من بكى، و لا نرقُّ لمن شكا، و قد سمعتم أنّنا قد فتحنا البلاد و طهّرنا الأرض من الفساد، و قتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، و علينا بالطلب، فأيُّ أرض تؤويكم، و أيّ طريق تُنجيكم، و أيّ بلاد تحميكم؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، و لا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، و سهامنا خوارق، و سيوفنا صواعق، و قلوبنا كالجبال، و عددنا كالرمال، فالحصون لدينا لاتمنع، و العساكر لقتالنا لا تنفع، و دعاؤكم علينا لا يُسمع، فإنّكم أكلتُم الحرام، و لا تعفُّون عند الكلام، و خنتُم العهود و الأيمان، و فشا فيكم العقوق و العصيان، فابشروا بالمذلّة و الهوان، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحقّ، و بما كنتم تفسقون، و سيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. فمن طلب حربنا ندم، و من قصد أمننا سلم، فإن أنتم لشرطنا و لأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا و عليكم ما علينا، و إن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا أنفسكم بأيديكم، فقد حذّر من أنذر، و قد ثبت عندكم أنّ نحن الكفرة، و قد ثبت عندنا أنّكم الفجرة، و قد سلّطنا عليكم من له الأمور المقدّرة و الأحكام المدبّرة، فكثيركم عندنا قليل، و عزبزكم عندنا ذليل، و بغير الأهلّة ما لملوككم عندنا سبيل، فلا تُطيلوا الخطاب و أسرعوا بردّ الجواب، قبل أن تضرم نار الحرب نارها، و نرمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منّا جاهًا و لا عزًّا، و لا كافيًا و لا حرزًا و تُدهون منّا بأعظم داهية، و تصبح بلادكم منكم خالية، أنصفناكم إذ راسلناكم، و أيقظناكم إذ حذّرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم. و السلام علينا و عليكم، و على من أطاع الهدى، و خشي عواقب الردى، و أطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصر ها هولاوُن قد أتى   بحدّ سيوف تنتضي و بواتر

يصير أعزُّ القوم منها أذلّة   و يُلحق أطفالا لهم بالأكابر " (1)

(*) تشير الرسالة إلى أصل السلطان قطز محمّد بن مودود، و أُمُّه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، و أبوه ابن عمّ السلطان جلال الدين، و كان قد أسر في حروب التتر، و بيع بدمشق للسلطان الملك المعزّ أيبك ثُمّ انتقل إلى القاهرة. أنظر :
ابن خلدون، العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، ج5، ص 379 ; المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص417، حاشية2، ص427، حاشية3، ص435.

(1) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص427-429.

الملحق الخامس:

إعتناق بركة خان للإسلام و علاقته بهولاكوخان:

قال العمري : (...قال شيخنا شمس الدين المشهور باتو و بركة ابنا جوجي فلمّا قُتل أبوهم كان جنكيزخان أبوه قد عيّن له دستا قبجاق و ما معه و أضاف إليه أرّان و تبريز و همذان و مراغة و أوصى جنكيزخان بأن يكون تخته ولده الصغير أوكداي و أن تكون مملكة ما وراء النهر و ما معه لولده الآخر جغطاي و لم يجعل لطولي شيئًا فاستقلّ أوكداي بتخت أبيه جنكيزخان و استقلّ بدشت القبجاق و ما معه و لم يتمكّن جغطاي مما له من مملكة ما وراء النهر ثُمّ مات أوكتاي فملك بعده ابنه كيوك و كان رجلاً شرّيرًا جبّارًا متسلّطًا فقوي على بني أبيه و حكم عليهم حُكمًا قاهرًا و همّ بمُقاندة باتو و نزع يده و بعث أميرًا اسمه الجكداي إلى آدان و بقيّة المضافات معها إلى باتو، و أمره بإمساك نوّاب باتو بها وحملهم إليه، و سمع نوّاب باتو بذلك فكتبوا إلى باتو بالإستئذان على ما يكون اعتمادهم عليهم فوصل الجكداي المجهّز من جهة كيوك و في تلك الساعة بينما عاد جواب باتو على نوّابه بمسك الجكداي و تقييده و حمله إليه فقامت شيعة أولائك النوّاب المقيَّدين ففكُّوا قيودهم و أمسكوا الجكداي و قيّدوه و حملوه إلى حضرة باتو فصلقه بالماء، فلمّا بلغ هذا كيوك عزّ عليه و عظم لديه و جمع ستّ ماية ألف فارس و سار كلّ واحد منهما لملتقى الآخر و قتاله فلمّا تقاربا حتّى كان بينهما نحو عشرة أيّام مات كيوك فاضطرب من كان معه ثُمّ اتفق رأي الخوانين و الأُمراء على مكاتبة باتو فكتبوا إليه بإعلامه بموت كيوك و أنّه هو أحقّ بتخته فيفعل ما يراه، فقال باتو لا حاجة لي به و إنّما أبعث إليه بعض أولاد طولي و عيّن له منكوقان ابن طولي و جهّزه إليه هو و أخوه قوبلاي و هولاكو، و جهّز معهم باتو أخاه بركة في مائة ألف فارس ليُجلسه على التخت ثُمّ يعود، فأخذه معه و توجّه به ثُمّ أجلسه و عاد، فلمّا مرّ ببُخارا اجتمع بالشيخ سيف الدين الباخرزي من أصحاب شيخ الطريقة نجم الدين كبري، و حسُن موقع كلام الباخرزي عنده و أسلم على يده و تأكّدت الصحبة بينه و بين الباخُرزيّ، فأشار عليه الباخُرزي بمكاتبة المتعصم الخليفة و مُهادته ، فكاتب الخليفة و بعث إليه هديّة و تردّدت بينهما الرسل و المكاتبات و التحف و المهاداة، ثُمّ إنّ منكوقان لمّا استقلّ بالتخت ملك أولاد جغطاي مملكة ما وراء النهر تنفيذًا لما كان جنكيزخان أوصى به لأبيهم جغطاي و مات دونه، و علت كلمة منكوقان، و جاءت إليه رسل أهل قزوين و بلاد الجبال يشكون من سوء مجاورة الملاحدة لهم و ضررهم بهم، فجرّهم أخاه هولاكو في جيوش جمّة لقتال الملاحدة، و أخذ قلاعهم و قطع دابر دولتهم، فحسّن هولاكو لأخيه منكوقان

أخذ ممالك الخليفة، و خرج على هذا، فبلغ هذا بركة بن جوجي فصعب عليه لما تأكّد بينه و بين الخليفة من الصحبة و قال لأخيه باتو إنّنا نحن أقمنا منكوقان و ما جزانا منه أنّه يُكافينا بالسوء في أصحابنا و ينقض عهدنا و يُخفّر ذمّتنا و يتعرّض إلى ممالك الخليفة و هو صاحبي و بيني و بينه مكاتبات و عقود مودّة و في هذا ما فيه من القبح و قبُح على أخيه باتو فعل هولاكو، فبعث باتو إلى هولاكو بأنّه لا يتعدّي مكانه، فجاءته رسالة باتو و هو وراء نهر جيحون ما عبره، فأقام بموضعه بمن معه سنتين كاملتين حتّى مات باتو و تسلطن أخاه بركة بعده، فحينئذ قويت أطماع هولاكو و بعث إلى أخيه منكوقان يستأذنه في إمضاء ما كان أمره به من قصد ممالك الخليفة و انتزاعها منه و حسّن له ذلك فأجابه إليه و دخل هولاكو إلى البلاد و أوقع بالملاحدة، و اتّهم سبع مائة نفر من أكابر همذان و تلك البلاد المضافة إلى باتو ثُمّ إلى بركة، بالميل إلى بركة و المباطنة على هولاكو و منكوقان، و قتلهم عن آخرهم، و امتدّ في البلاد، و قصد دشت القبجاق، و عدى إليه و أقام ثلاثة أيّام لا يجد مقاتلاً، فلمّا كان اليوم الرابع دهمتهم الخيل و داسهم بركة بجنوده و عساكره و دارت الدائرة على هولاكو حتّى همّ بالهزيمة، فنزل أميرٌ كبير كان معه اسمه سنتاي، و هو المنسوب إليه عقبة سنتاي بالعراق، و أمسك برأس فرس هولاكو و قال له أين تروح، ثُمّ استمرّ القتل في أصخابه فتأخّر حتّى صار نهر الكرّ بينه و بين بركة، و جاء بركة على نهر الكرّ، و لم يجد له سبيلاً على العبور و رجع هولاكو و عاث في البلاد، و قويت العداوة بينه و بين بركة قان...).(1)

(1)العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط مصوّر، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة و الإسلاميّة في إطار جامعة فرانكفورت. يُصدرها فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا و إيكهارد نويباور، مطبعة شتراوس، هيرشبرج، ألمانيا الإتّحاديّة، (1408ه/1988م)، ج3، ص48-50.

الملحق السادس:

نص رسالة منكوخان الموجهة إلى لويس التاسع :

« Voici le precepte du Dieu eternel. Au ciel, il n`y a qu`un seul Dieu eternel et, sur la terre, il n`y a qu`un seul maitre, Chingis Chan… .

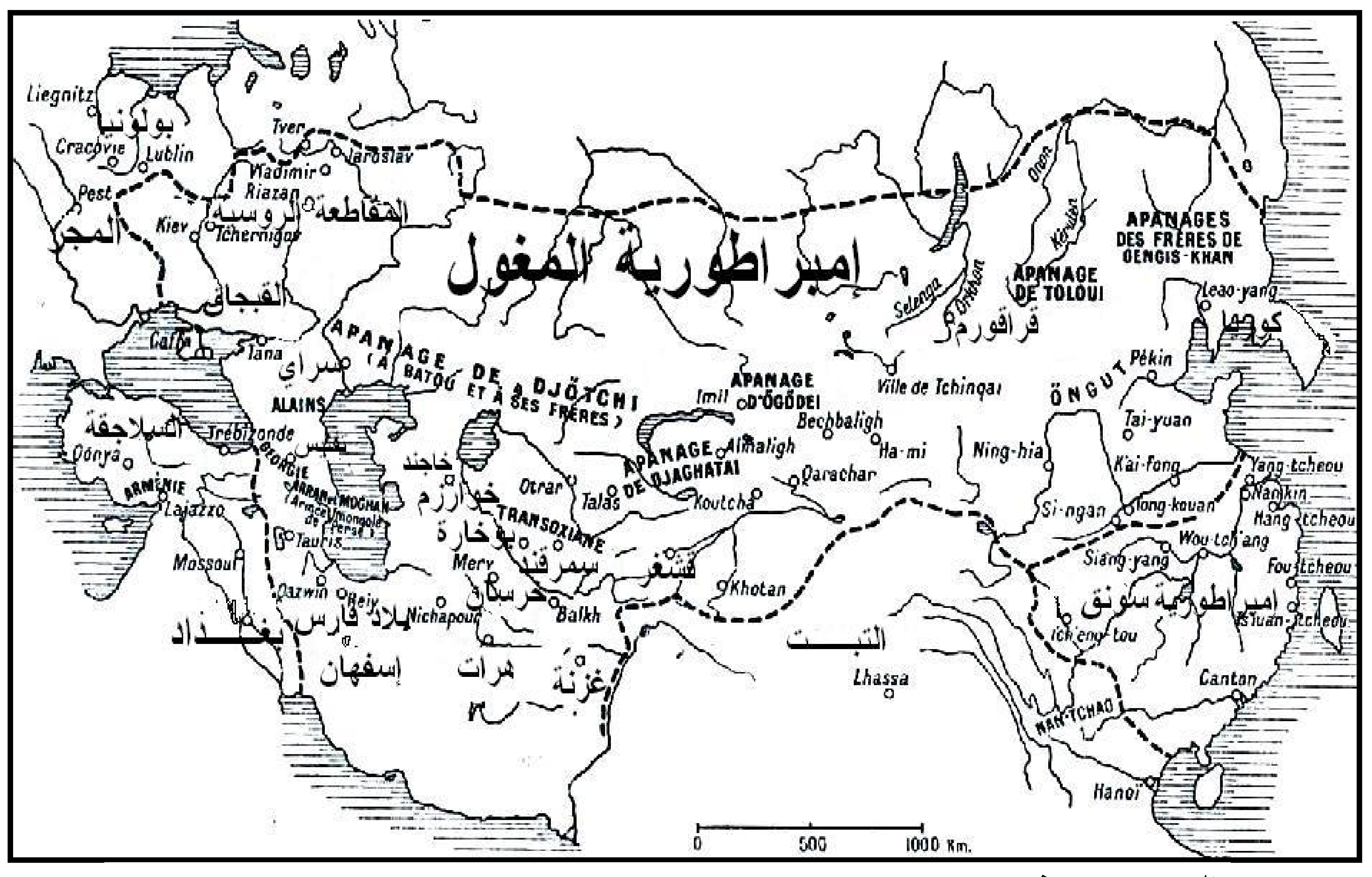
Voici l`ordre du fils de Dieu (Mongka) qui vous est dit : Qui que vous soyez …faitent entendre et comprendre ceci : Par la force du Dieu eternel, par le peuple des Grands Mongols, commandement est fait par Mangu-chan au segneur des Français, au roi Louis et a tous les autres seigneures et pretres et grand peuple des Français qu`ils puissent conprendre ces paroles. Le commandement du Dieu eternel fait par Chingis Chan n`est parvenu a vous ni venant de Chigis Chan lui-meme, ni venant d`autres apres lui. Un homme nomme David est venu vers vous comme ambassadeur des des Mongols, mais c`etait un menteur… . Maintenant, pour que le monde entier ainsi que les pretres et les moines soient tous en paix et se rejouissent dans leurs biens et afin qu`ils entendent tous les commandements de Dieu… nous vous avons envoye par ecrit le commendement du Dieu eternel… . Quand vous aurez entendu et que vous aurez cru, si vous voulez nous obeir, envoyez-nous vos ambassadeurs : ainsi nous saurons avec certitude si vous voulez la paix ou la guerre avec nous. Lorsque par la puissance du Ciel eternel, du lever du soleil jusqu`a son couchant, le monde entier sera uni dans la joie et la paix, alors apparaitra ce que nous aurons a faire…Si vous refusez d`y preter attention et d`y croire... dites-vous bien que nous savons ce que nous pouvons. ». (1)

---

(1) أنظر :
Roux(Jean-Paul), Histoire de l’Empire Mongol, librairie Arthem Fayard, Paris, 1993, p. 335.

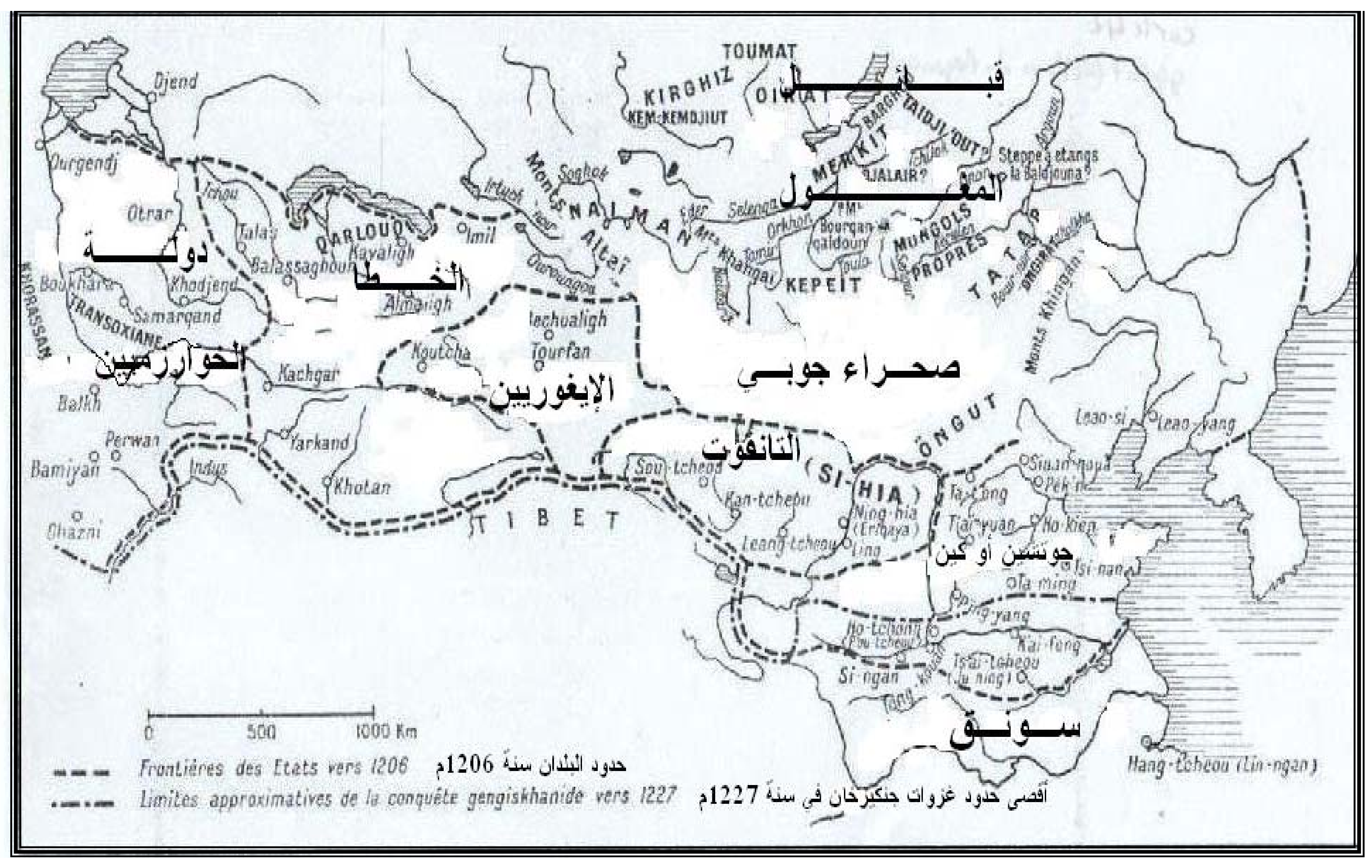
الخرائط

خريطة 01: إمبراطورية المغول خلال سنة 1240م



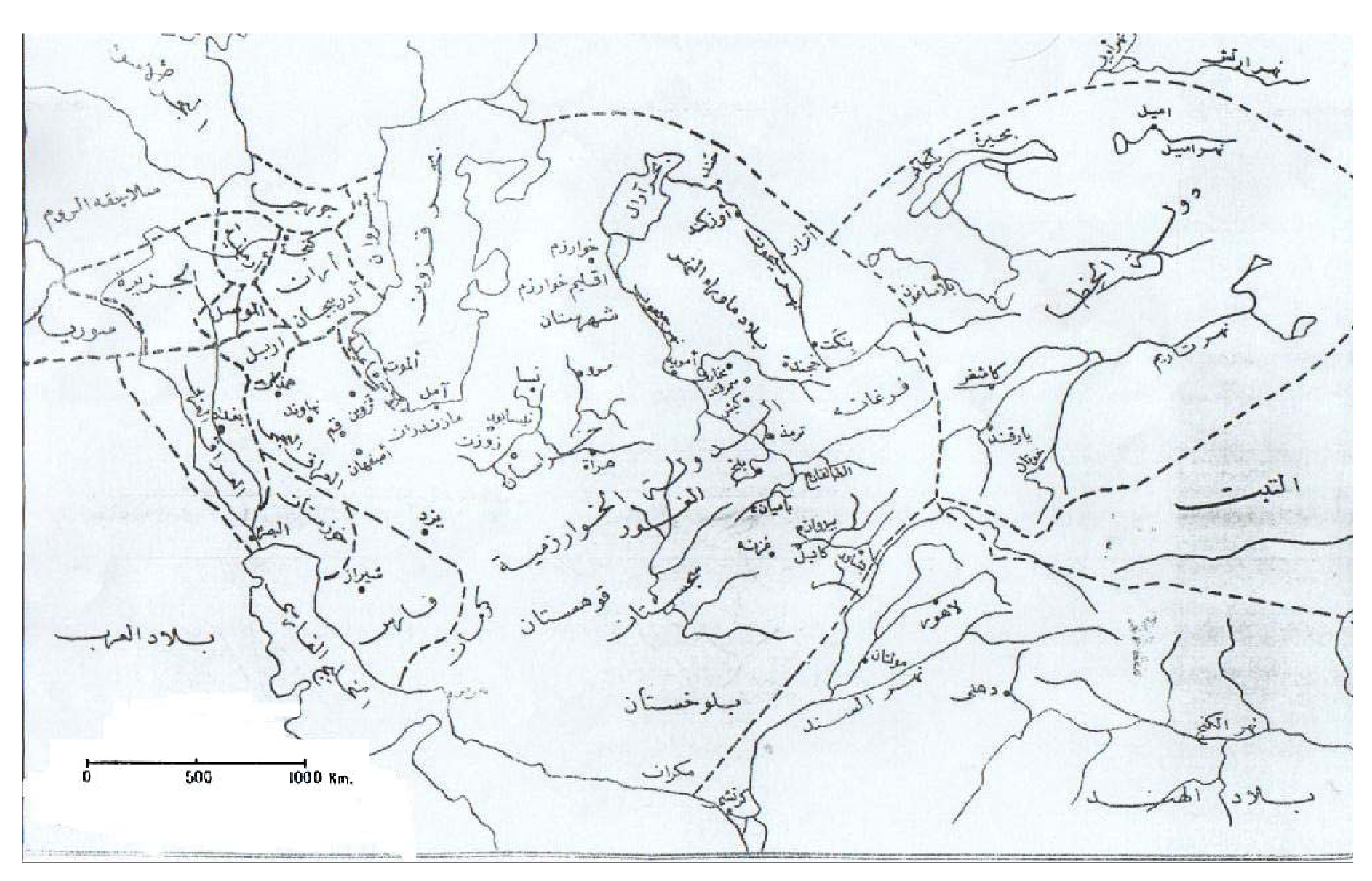
المرجع (بتصرف): Grousset , histoire du moyen âge, p . 309 .

الخريطة رقم (02): حدود الدول الآسيوية في حوالي سنة 1206م



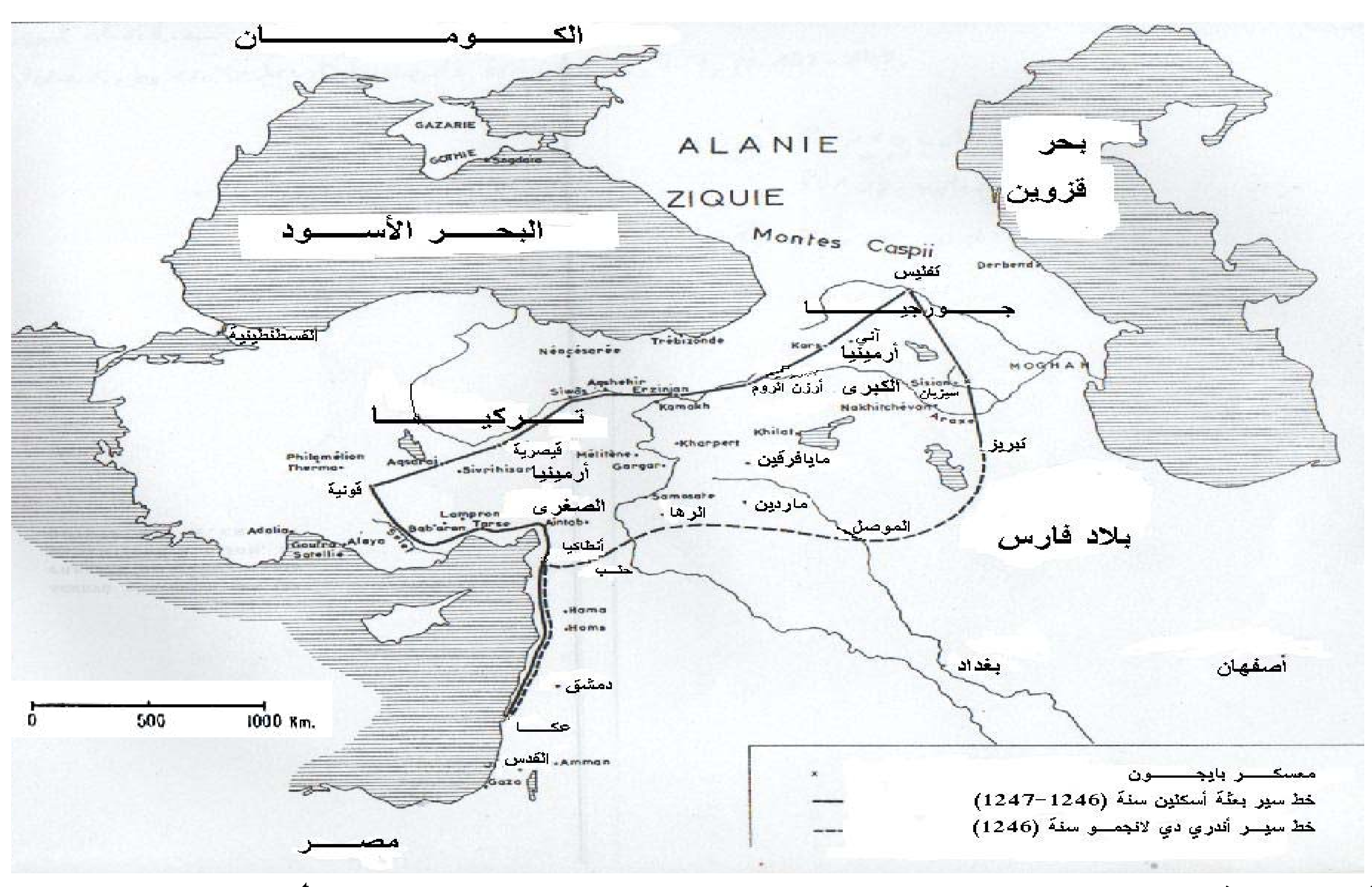
المرجع (بتصرف): **Grousset , histoire du moyen âge, op.cit., p . 277.**

الخريطة (03): الدولة الخوارزمية في أقصى اتساعها.



المصدر(بتصرف): النسوي، المصدر نفسه، ص 436.

خطــي سيــر بعثــتي آسكليــن ولانجمــو



المصدر (بتصرف): Simon (de st Quentin), op.cit., p. 132.

قائمة

المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع :

أ- المصادر العربيّة:

ابن أبي أصيبعة : موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي(ت. 668ه/ 1229م).

- عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، 3أجزاء، شرح و تحقيق نزّار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965م.

ابن الأثير :عز الدين علي بن محمّد بن عبد الكريم(ت. 630ه/1238م).

- الكامل في التاريخ، طبعة المطبعة الدمشقيّة و المكتبة التجاريّة، القاهرة، (1348-1358ه) ؛ و طبعة دار صادر، بيروت، (1402ه/1982م) ؛ و طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، (1400ه/1980م).

ابن بطُّوطة :أبو عبد الله محمّد بن عبد الله(ت. 779ه/1377م).

- رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النظار في عجائب الأسفار، المطبعة الخيريّة، القاهرة، 1322ه.

ابن تغري بردي :أبو المحاسن جمال الدين يوسف الأتابكي(ت. 874ه/1470م).

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة، طبعة دار الكتاب، مصر، دون تاريخ.

ابن الجوزي : شمس الدين أبو المظفّر يوسف بن قز أوغلي ابن عبد الله البغدادي(ت. 654ه/1256م).

- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، مطبعة دائرة المعارف العثمانيّة، الطبعة الأولى، حيدر أباد الدكن، الهند، (1370ه/1951م).

ابن حوقل :أبي القاسم بن حوقل النصيبي(ت. 367ه/977م).

- صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، دون تاريخ.

ابن خلدون :عبد الرحمان بن محمّد(ت.808ه/1406م).

- العبر و ديوان المبتدأ و الخبر، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (1391ه/1971م).

ابن خلكان: أبي العبّاس شمس الدين أحمد بن محمّد بن أبي بكر(608-681ه).

- وفيات الأعيان و أنباء أهل الزمان، تحقيق إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، (1414ه/1994م) ؛ **و** طبعة دار صادر ، بيروت، 1970م.

ابن الشحنة: أبي الفضل محمّد بن الشحنة الحنبلي (ت. 890ه)،

- الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ترجمة فرنسيّة من عمل جان سُوفَاجَيه، إصدار فؤاد سزكين، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة الإسلاميّة، سلسلة الجغرافيا الإسلاميّة، جامعة فرانكفورت، جمهوريّة ألمانيا الإتّحاديّة، 1413هـ-1993م.

ابن العبري :غريغوريوس أبو الفرج أهرون بن توما الملطي الطبيب Bar-Hebræus (623-685ه/1226- 1286م).

- تاريخ مختصر الدول، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، ط1، بيروت، (1418ه/1997م) ؛ و طبعة المطبعة الكاثوليكيّة،ط1، بيروت، آب1958م.

- تاريخ الزمان، نقله إلى العربيّة الأب إسحاق أرمَلة و قدّم له الأب جان مُوريس فييْه، دار المشرق، بيروت، (1406هـ/1986م).
ابن عماد الحنبلي :أبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي(1031- 1089هـ).
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجاريّة، بيروت، دون تاريخ.
ابن طباطبا :محمّد بن طباطبا المعروف بابن القرقطي(ت. 701هـ/1301م).
- الفخري في الآداب السلطانيّة و الدولة الإسلاميّة، المطبعة الرحمانيّة، ط1، مصر،(1345هـ/1927م).
ابن الفوطي :كمال الدين عبد الرزّاق(ت. 723هـ/1323م).
- الحوادث الجامعة و التجارب النافعة في المائة السابعة، نشره مصطفى جواد، مطبعة الفرات، بغداد، 1351هـ.
ابن القلانسي :أبو يعلى حمرة(ت. 555هـ/1160م).
- ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيّين، بيروت 1908م.
ابن كثير :إسماعيل بن عمر الدمشقي(ت. 774هـ/1372م).
- البداية و النهاية، مكتبة المعارف، ط5، بيروت، 1983م.
ابن منظور: أبي الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري(ت. 711هـ)
- لسان العرب، دار صادر، ط5، بيروت، (1412هـ/1992م).
ابن نظيف الحموي :محمّد بن علي(ت. 644هـ/1246م).
- التاريخ المنصوري(تلخيص الكشف و البيان في حوادث ازمان)، تحقيق أبو العيد دودو، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، 1990م.
ابن واصل :جمال الدين محمّد بن سليم(ت. 697هـ/1267م).
- مفرّج الكروب في أخبار بني أيُّوب، مطبعة جمال الشيال، جزءان، القاهرة، 1957م.
ابن الوردي :زين الدين عمر(ت. 749هـ/1349م).
- تتمّة المختصر في أخبار البشر(تاريخ ابن الوردي)، بإشراف و تحقيق أحمد رفعة البدراوي، دار المعارف، بيروت، ط1، (1389هـ/1970م).
أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمان بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة(599-665هـ/1202-1266م).
- الذيل على الروضتين، تحقيق عزّت العطار الحسيني الدمشقي بعنوان: "تراجم رجال القرنين السادس و السابع"، ط2، القاهرة، 1947م.
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النوريّة و الصّلاحيّة، تحقيق إبراهيم الزيبق، ط1، مؤسّسة الرسالة، بيروت، (1418هـ/1997م).
أبو الفدا :عماد الدين إسماعيل صاحب حماه(ت. 732هـ/1331م).
- تقويم البلدان، تصحيح زينود و البارون ماك كوكين ديسلان، باريس 1840م.
- المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة للطباعة و النشر، دون طبعة، بيروت، دون تاريخ.
أبي الغازي : بهادر خان (ت. 1074هـ).
- شجره ترك (تاريخ الشعوب في آسيا الوسطى)، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة و الإسلاميّة في إطار جامعة فرانكفورت، يُصدرها فؤاد سزكين، ترجمه إلى الفرنسيّة البارون ديسميزونس Baron Desmaisons ، مطبعة شتراوس، هيرشبرج، ألمانيا الإتّحاديّة، (1415هـ/1994م).

الإصطخري :ابن إسحاق إبراهيم بن محمّد الفارسي المعروف بالكرخي(ت النصف الأوّل للرابع الهجري).
- المسالك و الممالك، تحقيق محمّد جابر عبد العال الحيني و مراجعة محمّد شفيق غربال، وزارة الثقافة، الجمهوريّة العربيّة المتحدة، (1381ه/1961م).
البكري الأندلسي (ت487ه).
- معجم ما الستعجم من أسماء البلاد و المواضع، حقّقه و ضبطه مصطفى السّقا، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، بيروت، (1403ه/1983م).
الجوزجاني :أبو عمر منهاج الدين عثمان بن سراج الدين(ت. 698ه).
- طبقات ناصري، نشره وليم ناسوليس و مولوي خادم حسين و مولوي عبد الحي، كلكته، 1864م.
الجوزي :جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمان بن علي الجوزي(ت.598ه/1200م).
- المنتظم في تواريخ الملوك و الأمم، تحقيق سهيل زكّار، دار الفكر، بيروت، (1415ه/ 1995م).
الجويني :علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمّد(623-681ه).
- تاريخ جهانكشاي(تاريخ فاتح العالم)، نشر و تصحيح العلاّمة محمّد بن عبد الوهّاب القزويني، 3 أجزاء، ليدن،(1355ه/1937م).
الدوادار :ركن الدين بيبرس(ت. 725ه/ 1325م).
- زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالدس ريتشاردز، الشركة المتّحدة للتوزيع، ط1، بيروت، (1419ه/1998م).
الديار بكري :حسين بن محمّد بن الحسن(ت. 990ه/1582م).
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، جزءان، المطبعة الوهبيّة، القاهرة، (1283ه/ 1866م).
الذهبي :الحافظ شمس الدين محمّد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني(673-748ه/1247-1374م).
- تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير و الأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، (1418ه/1998م).
- كتاب دول الإسلام، تحقيق فهيم محمّد شلتوت و محمّد مصطفى ابراهيم، نشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، إدارة إحياء التراث الإسلامي، قطر،(1408ه/1988م).
- العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلميّة، بيروت، (1405ه/1985م).
- سيرة أعلام النبلاء، تحقيق "بشّار عوّاد معروف" و "مُحيي الدين هلال السحان"، مؤسّسة الرسالة، ط4، بيروت، (1406ه/1986م).
الرمزي:
- تلفيق الأخبار و تلفيق الآثار في وقائع قزان و بلغار و ملوك التتار، المجلّد الأوّل، أورنبورغ، دون تاريخ.
الزبيْدي : محي الدين أبو الفيض محمّد مرتضى الحسيني الواسطي(ت.1205م).
- تاج العروس من جوامع القاموس، دراسة و تحقيق علي شيْري، دار الفكر، بيروت، (1414ه/1994م).

السيوطي :جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمّد(ت. 911هـ/1605م).
- تاريخ الخلفاء، تحقيق محمّد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط1، مصر، (1371هـ/1952م).
- حُسن المحاضرة في تاريخ مصر و القاهرة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م.

الشهرستاني :أبي الفتح محمّد عبد الكريم ابن أبي بكر(479-548هـ).
- الملل و النحل، تحقيق عبد العزيز محمّد الوكيل، دار الفكر، بيروت، دون تاريخ.

العظيمي: محمّد بن علي(483-556 هـ/...-1161م).
- تاريخُه، تحقيق كلود كاهن، الجريدة الأسيويّة، عدد عام 1938م.

Al-Azimi, la Chronique abrégée d'Al-Azimi, texte Arabe Présenté par Cahen(C.), J.A. Juillet-Septembre, Paris, 1938.

العمري: ابن فضل الله العمري شهاب الدين أحمد بن يحي(ت. 749هـ/1348م).
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، مخطوط مصوّر، منشورات معهد تاريخ العلوم العربيّة و الإسلاميّة في إطار جامعة فرانكفورت، يُصدرها فؤاد سزكين بالتعاون مع علاء الدين جوخوشا و إيكهارد نويباور، مطبعة شتراوس، هيرشبرج، ألمانيا الإتّحاديّة، (1408ه/1988م).

العيني : بدر الدين(ت. 855هـ/1451م).
- منتخبات من كتاب عقد الجمان، في Recueil des Historiens des croisades, Documents Orientaux, publication de l'academie des inscriptions et Belles Letters, Paris, 1869-1906.

القزويني :محمّد ابن عبد الوهّاب(ت. 682هـ/1283م).
- خلاصة حواشيه على كتاب "جهار مقالة" للنظامي العروضي السمرقندي، نقله إلى العربيّة عبد الوهّاب عزّام و يحي الحشّاب، ط1، لجنة التأليف، القاهرة، (1368هـ/1949م).

قزويني: حمد الله بن أبي بكر بن أحمد بن نصر.
- تاريخ كزيدة، Qazwini(Hamdullah Mustafi), Texte original et traduction par Defremery(M.), Histoire des Seldjoukides, Journal Asiatique, Paris, Avril-Mais 1848.

القلقشندي :أبي العبّاس أحمد بن علي بن أبي اليمن القاهري الشافعي(ت. 821هـ/1418م).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تصنيف محمّد قنديل البقلي و إشراف سعيد عبد الفتّاح عاشور، نسخة مصوّرة عن الطبعة الأميريّة، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر، القاهرة، (1390هـ/1970م).

الكتبي :محمّد ابن أحمد ابن شاكر(ت. 764هـ/1362م).
- فوات الوفيات و الذيل عليها، تحقيق إحسان عبّاس، دار الثقاف، دون طبعة، بيروت، سبتمبر 1973م ؛ **و** طبعة مارس 1974م.

المقريزي : أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العبّاس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (766-845هـ/1365-1441م).
- السلوك لمعرفة دول الملوك، نشره و علّق عليه الد كتور محمّد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1956م.
النسوي :شهاب الدين محمّد بن أحمد المنشئ(ت. 732هـ/1331م).
- سيرة جلال الدين منكبرتي، نشر و تحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1953م.
النظامي العروضي السمرقندي.
- جهار مقالة(المقالات الأربعة)، نقله إلى العربيّة عبد الوهّاب عزّام و يحي الخشّاب، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر، ط1، القاهرة، (1368هـ/1949م).
النويري :شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت 733هـ/1332م).
- نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق نجيب مصطفى فوّاز و حكمت كشلي فوّاز، دار الكتاب العلميّة، ط1، بيروت، (1424هـ/2004م).
الهمداني : رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبي الخير بن موفق الدولة(ت.716هـ/1316م)،
- جامع التواريخ (تاريخ غازان خان)، دراسة و ترجمة الدكتور فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار الثقافة للنشر، القاهرة، (1420هـ/2000م).
- جامع التواريخ (تاريخ المغول في إيران)، ترجمة محمّد صادق نشأة، و محمّد موسى هنداوي، و فؤاد عبد المعطي الصيّاد، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، مايو1960م.
وصاف الحضري(الشيرازي).
- تاريخ وصاف، بمباي 1269هـ.
ياقوت الحموي الرومي :شهاب الدين أبو عبد الله(ت.622هـ/1228م).
- معجم البلدان، دار صادر و دار بيروت للطباعة و النشر، طبعة بنان، 1979م ؛ و طبعة منشورات مكتبة الأسدي رقم7، طهران1965م.

ب- المراجع العربيّة و المعرّبة:

العبّادي أحمد مختار.
- قيام دولة المماليك الأولى في مصر و الشام، دار النهضة العربيّة، لبنان، 1969م.

أربري.
- تراث الفرس، ترجمة محمّد كفافي و أحمد الساداتي و السيّد يعقوب بكر، دار إحياء الكتب العربيّة، مصر، 1954م.

أرنولد(سير توماس و.)Sir Thomas W. Arnold.
- الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلاميّة)، ترجمه إلى العربيّة و علّق عليه حسن إبراهيم حسن و عبد المجيد عابدين و إسماعيل إسماعيل النحراوي، ط2، مكتبة النهضة المصريّة، القاهرة ،1957م.

بارتولد.
- تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مطبعة الأنجلو المصريّة، القاهرة، (1378هـ/1958م) ؛ و طبعة سنة 1960م.

باركر أرنست.
- الحروب الصليبيّة، ترجمة الباز العريني، دار النهضة العربيّة، ط2، بيروت، (1386هـ/1967م).

الباز العريني.
- المغول، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، بيروت، 1981م.

براون.
- تاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي، ترجمه إلى العربيّة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي، القاهرة، (1373هـ/1954م).

جوزيف نسيم يوسف.
- تاريخ العصور الوسطى الاوربيّة و حضارتها، دار النهضة العربيّة للطباعة و النشر، ط2، بيروت، 1987م.

حسن إبراهيم حسن.
- تاريخ الإسلام(السياسي، و الديني، و الثقافي، و الإجتماعي)، مكتبة النهضة المصريّة، ط1، القاهرة، 1967م.

حافظ أحمد حمدي.
- الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي، دار الفكر العربي، ط 1، القاهرة، 2000م.
- الدولة الخوارزميّة و المغول، دار الفكر العربي، القاهرة، 1949م.

دياب حسن.
- أرمينيا من الفتح الإسلامي إلى مستهلّ القرن الخامس الهجري، دون طبعة، مصر، 1978م.

رنسيمان(شتيفن).
- تاريخ الحروب الصليبيّة، ترجمة الدكتور السيّد الباز العريني، دار الثقافة،ط1، بيروت، 1969م.

سبولير(بيرتولد).

- المغول في التاريخ، الترجمة العربيّة ليوسف سلب الشام، دار طلاس، ط1،دمشق، 1989م.
ستودارد الأمريكي(لوثروب).
- حاضر العالم الإسلامي، تعريب الأستاذ عجّاج نويهض، دار الفكر العربي، القاهرة، 15 ذي القعدة 1351هـ.
سعيد عبد الفتّاح عاشور.
- مصر و الشام في عصر الأيُّوبيّين و المماليك، دار النهضة العربيّة، بيروت، دون طبعة و دون تاريخ.
السيّد أديب.
- أرمينيا في التاريخ العربي، المطبعة الحديثة، الطبعة الأولى، حلب، 1972م.
أرسلان شكيب.
- تاريخ الدولة العثمانيّة، تحقيق حسن السمّاحي سويدان، ط1، دار ابن كثير،دمشق،2001م.
صالح زهر الدين.
- الأرمن شعب و قضيّة، الدار التقدُّميّة، الطبعة 1، لبنان، نيسان 1988م.

عبد السلام محمّد هارون.
- معجم مقيّدات ابن خلكان، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، (1407هـ/1987م).
عبد النعيم حسنين.
- إيران و العراق في العصر السلجوقي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى،لبنان،1982م .
- سلاجقة إيران و العراق، المكتبة التاريخيّة، القاهرة، 1959م.
علي إبراهيم حسن.
- دراسات في تاريخ المماليك البحريّة و في عصر الناصر محمّد، ط2،القاهرة، 1948م.
الصلابي علي محمّد.
- الدولة العثمانيّة(عوامل النهوض و أسباب السقوط)، دار التوزيعوالنشر الإسلامي، القاهرة، (1421هـ/2001م).
فامبري(أرمنيوس).
- تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتّى العصور الحاضرة، تعريب أحمد محمود الساداتي، المؤسّسة المصريّة العامّة للتأليف و الترجمة و النشر، القاهرة، 1965م.
فؤاد عبد المعطي الصيّاد.
- المغول في التاريخ، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1970م.
كليرفورد(ا. بوزورث).
- الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي(دراسة في التاريخ و الأنساب)، ترجمة حسين علي اللبودي، مراجعة سليمان إبراهيم العسكري، مؤسّسة الشراع العربي، الطبعة الثانية، الكويت، 1995م.
لسترانج(ج) Le Strange(Guy).
- بغداد في عصر الخلافة العبّاسيّة، ترجمة بشر يوسف فرانسيس، ط1، بغداد، 1936م.
محمّد جمال الدين سرور.
- دولة الظاهر بيبرس في مصر، دار الفكر العربي، ط3، القاهرة، 1993م.
محمّد الخضري.

- تاريخ الأمم الإسلاميّة(الدولة العبآسيّة)، دار المعرفة، ط6، بيروت،2001م.
محمود سعيد عمران.
- تاريخ الحروب الصليبيّة(1095-1291م)، دار النهظة العربيّة، ط2، بيروت 1999م ؛ و طبعة دار المعارف الجامعيّة، مصر، 2002م.
- الحملة الصليبيّة الخامسة، دار المعارف، ط2، الإسكندريّة، 1985م.
- معالم تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة، دار النهظة العربيّة، بيروت،1981م
- السياسة الشرقيّة للإمبراطوريّة البيزنطيّة، دار المعارف، الإسكندريّة، 1985م.
محمّد مختار باشا.
- كتاب التوفيقات الإلهاميّة في مقابلة التواريخ الهجريّة بالسنين الإفرنكيّة و القبطيّة، دراسة تحقيق و تكملة الدكتور محمّد عمارة، المؤسّسة العربيّة للدراسات و النشر، ط1، القاهرة، 1980م.

ج- المصادر الأجنبيّة:

Anna Comnéne,
- Alexiade, traduction de Bernard Leib, éd. les belles lettres, Paris, 1937.

Dardel(Jean),
- Chronique D'Arménie, in Recueil des Historiens des croisades, Documents Armeniens, publication de l'academie des inscriptions et belles letters, Paris, 1869-1906.

Eracles,
- l'Estoire de Eracles empereur et la conquest de la terre d'Outremer, in R.H.C., H.O., Publication de L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Grégoire le Prêtre,
- Chronique, In R.H.C., D.A., Publication de L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Grigor of Akane,
- History of nation of the Archers, tran. Robert (P.) Blake and Richard (N. Frte), Harvard University Press. Combridge, Massachusette 1954.

Guillaume de Rubruk,
- traduction et commentaire de Claude et René Kapler : Voyage dans l'Empire Mongol, Payot, Paris, 1985.

Guillaume de Saint-Pathus (confesseur de la reine Marguerite),
- Vie de Saint Louis, publiée d'aprés les manuscrits par H.- François Delaborde, éd. Alphonse Picard et fils, Paris, 1899.

Guillaume de Nangis,
- Vie de saint Louis, Rec. Des historiens de Gaules et de la France, A.I.B.L., Paris, 1840.

Guillaume de Tyr,
- L'Estoire de Eracles Empereur et conqueste de la terre D'Outremer, R.H.C., H.O., Paris, 1869-1906.
- Continuation de Guillaume de Tyr, de 1229 à 1261, dite du Manuscrit de Rothelin, R.H.C., H.O., Paris, 1869-1906.

Guiragos de Kantzag,
- Histoire d'Arménie, tra. Dulaurier, J.A., Paris, octobre 1833.
- Histoire d'Arménie, tra. Dulaurier, J.A., Paris, Avril-Mai 1858.

Hayton,
- La Fleur des Histoires de la Terre d'Orient, traduction de Christiane Deluz, dans Regnier-Bohler, Croisades et Pélerinage, Récit Chronique et Voyages en Terre Sainte XII^{e}-XVI^{e} siècle, éd. Robert Laffont, Société Asiatique, Paris, 1997.

- La Flor des Estoires de la Terre d'Orient, in R.H.C., D.A., publication de L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Hou Kiao,

- Relation de Hou Kiao , Traduction de Chavannes (M. Éd.), Voyageurs chinois chez les Khitan et les Joutchen, Journal Asiatique, Paris, Mais-Juin 1897.

Joinville(Jean de.),

- Histoire de Saint Louis, Texte original du XIV siècle, accompagné d'une traduction en Français modern par M. Natalis de Wailly, Paris,1882.

Jean de Plan de Carpin,

- Histoire des Mongols, dans Forestetter(Michel), Voyageurs Etrangers en Russie : Textes choisis du X^{e} au XX^{e} Siécle, la Table ronde, Paris, 1947.
- Histoire des Mongols, dans M. Édouard Charton, Voyageurs Anciens et Modernes, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855.

Kouo tche,

- Relation de Wang I, Tr. Chavane(M. Éd.), Voyageurs Chinois chez les Khitan et les Joutchen, J.A., Paris, Mais-Juin 1897.

Marco-Polo,

- La Description du monde, texte integral en français moderne avec introduction et Notes, éd. Louis Hambis, librairie C. Klincksieck, 1^{ere} edition, Paris, 1955.
- Relation de Marco-Polo (divisement du monde), dans Charton (M. Édouard), Voyageurs Anciens et Modernes, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855.

Matthiew Paris,

- La Grande Chronique, Tr. Huillard(A.)-Breholles, Ed. Paulin, Paris, 1840.

Matthieu d'Edesse,

- Extraits de la Chronique –Expeditions de Nicephore Phocas et de Jean Zimisces dans la misopotamie, la Syrie et la Palestine, in R.H. C., D.A., publication de L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Michel le Syrien,

- Extrait de sa Chronique ou Histoire Universelle, in R.H.C., D.A., publication de A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Orbêlian(Étienne, archeveque de Siounik),
- Histoire des Orpélians, in Saint-Martin(J.), Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819.

Philippe de Navarre et Gerard de Montreal,
- Chronique du Templier de Tyr (1241-1309), dans : les Géstes des Chiprois publié par Gaston Raynaud (Société de l'Orient Latin), Geneve, 1887.
- Les Géstes des Chiprois, in R.H.C., D.A., publication de l'A.I. B.L., Paris, 1869-1906.

Samuel d'Ani,
- Chronographie, R.H.C., D.A., publication L'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Sĕmpad Le Connétable,
- Chronique du royaume de la petite Arménie, in R.H. C., D.A., publication de l'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Simon de S[t] Quentin,
- Histoire des Tartares, publier par Richard Jean, Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1965.

Song Hoan,
-Relation de Song Hoan, , Traduction de Chavannes (M. Éd.), Voyageurs chinois chez les Khitan et les Joutchen, Journal Asiatique, Paris, Mais-Juin 1897.

Tchamtchen,
- Histoire Arménienne, Tra. Duraulier, J.A., Paris, Septembre 1833.

Vahram D'Edesse,
- Chronique Rimée des Rois de la petite Arménie, in R.H.C., D.A., publication de l'A.I.B.L., Paris, 1869-1906.

Vartan Le Grand,
- Histoire Universselle,Tra. Duraulier, J.A., Paris, Octobre-Novembre 1860.

د- المراجع الأجنبيّة :

Alem(Jean-Pierre),
- l’Armenie, éd. Que Sais-je, n° 851, Paris 1959.

Atiya(Aziz S.),
- The Crusade in the Later Middle Ages, Second edition, New York, 1970.

Barthold(W.),
- Histoire des Turcs d’Asie central, adaptation Francaise Par Mme M. Douskis, Librairie d’Amerique et d’Orient (Adrien-Maison-neuve), Paris 6°, 1945.
- Turkestan down to the Mongol invasion, London, 1928.

Bernard de Vaulx,
- Les Missions: Leur Histoires des origines à Benoit XV(1914), Paris XIVe, 1960.

Blochet(F.),
- Introduction à l’Histoire des Mongols, Paris, 1924.

Bréhier(Louis),
- L’Èglise et l’Orient au moyen age : les Croisades, 4eme éd., Librairie Victor Lecoffre ,Paris 1921.
- Le Monde Byzantin, Librairie Victor Lecoffre , 6eme éd., Paris, 1928.

Bretschneder(E),
- Mediaeval Researches from eastern Asiatic sources, St Petersbourg, 1887.

Cahen(Claude),
- Saint Louis et l’Islam, dans J.A., T.CCLVII, Paris, 1970.
- La Syrie du Nord a l’époque des croisades(la Principauté Franque d’Antioche), Paris, 1940.

Cahun(Leon),
- Introduction a l’Histoire de l’Asie Turcs et Mongols des Origines à 1405, Librairie de la Société des gens de Lettre, Paris, 1896.

Chadwick(Nora K.),
- The Beginning of Russian History: an enquiry into Sources, Cambridge, the University press, 1966.

Chardin(P. Pacifique),
- Les Missions Franciscains en Chine, éd. Auguste Picard, Paris,1915.

Charton(M. Édouard),
- Voyageurs Anciens et Modernes, Bureaux du Magasin Pittoresque, Paris, 1855.

Chavane(M. Éd.),

- Voyageurs Chinois chez les Khitan et les Joutchen, J.A., Paris, Mais-Juin 1897.

Dawson(Christopher),

- The Mongol Mission, first published by Sheed and Ward LTD, London, 1955.

Defremery(M.),

- Fragments de Géographes et d'Histoiriens Arabes et Persans Inédits, J.A. :Novembre-Décembre ,Paris, 1849.
- Histoire des Seldjoukides, journal asiatique : avril-mais, Paris, 1848.

Diehl(Charles),

- L'Empire Byzantin, Ed. A. et J. Picard, Paris, 1924.

D'Ohsson(C.),

- Histoire des Mongols depuis Tchinguiz-Khan jusqu'à Timour-Lang, Paris, 1824.

Deguigne,

- Histoire general des Turcs, des Mongols, et des autres Tartares occidentaux, Paris, 1756-1758.

Duraulier(M. éd.),

- Les Mongols d'apres les historiens Armeniens, J.A., Paris, 1958.
- Note preliminaries sur le connectable Sĕmpad, in R. H. C., D.A., publication de L'A.I.B. L., Paris, 1869-1906.

Eberhard(W.),

- Histoire de la Chine, Tr. Georges Deniker, Payot, Paris, 1952.

Edvige Toeplitz Mrozowska,

- Lacs et montagnes des Pamirs, dans Bultin de la société de géographie, (Revue Monsuelle publiée sous la direction de M.G. Grandidie) T. 55, Paris, 1931.

Éli Berger,

- Saint Louis et Innocent IV : Étude sur les rapports de France et du Saint-Siége, Librairie du College de France, Paris, 1893.

Ensslin(W.),

- The Government and administration of Byzantine empire, Cambridge Medieval History, Vol. IV, Great Britain, 1967.

Escarra(Jean),

- La Chine: Passé et present, collection Armand Colin, Paris, 1949.

Florinsky(Michael T.),

- Russia a Short history, The Macmillan companey, New York, 1964.

François Primo (J.L.),
- Histoire Universelle (les Missions des Orgines au XVI^e siècle), Publiée sous la Direction de M^r Delacroix(M.), 4^eme Trimestre Paris, 1956.

Gerard(N),
- Introduction sur la Geographie de l'asie, Paris, 1889.

Gregory G. Guzman,
- The Encyclopediste Vincent of Beauvais and his Mongol extracts from John Of Plano Carpini and Simonof Saint-Quentin, in Speculum (a journal of medieval studies), the Medieval academy of America, Cambridge, Massachusetts (April 1974).
- Simon of Saint-Quentin and the Dominican Mission to the Mongol Baiju, in Speculum(a journal of medieval studies) , the Medieval academy of America, Cambridge, Massachusetts, 1971.

Grekov(B.) et Iakoubovski(A.),
- la Horde D'Or: la domination tatare au XIII^e et au XIV^e siécles de la mer jaune à la mer noire, tr. Du russe par François thuret, Paris, Payot, 1939.

Grousset(René),
- Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jérusalem: la monarchie Musulmane et l'Anarchie Franque, Paris, 1936.
- Histoire de l'asie, Paris, 1921.
- l'Empire des Steppes: Attiya, Gengis-Khan, Tamerlan, Payot, Paris (16, Boulevard S^t Germain), 1939.
- l'Empire du Levant, Académie Francaise, Payot, Paris, 1946.
- Histoire de l'Extreme-Orient, Librairie Orientaliste Paul Genthner, Paris, 1929.
- Histoire du Moyen Age: l'Asis Orientale des Origines au XV^e siecle, P.U.F., Paris, 1941.
- Histoire de la Chine, éd. Fayard, Paris, 1942.

Hambis(Louis),
- Saint Louis et les Mongols, dans J.A., T.CCLVII, Paris,1970.

Hofman(Michel R.),
- les Grandes Figures Slaves de russie, ed. du sud, Paris, 1965.

Jacques Boudet,
- Chronologie Universelle d'Histoire, collection in Extenso, Paris, aout 1997.

Klaproth,
- Rapport sur les Ouvrages du Pr. Hyacinthe Bitchouvinski, Relatifs à l'Histoire des Mongols, J.A., Paris, Juillet 1830.

Klutchevsky(B),
- Histoire de la Russie des origines au XIV^e siècle, Gallimard, Paris, 1956.

Kovalevsky(Pierre),
- Histoire de la Russie et de l'URSS, Librairie des cinq continents, Paris, 1970.

Lamb (Harold),
- The crusades : The Flame of Islam, London, 1931.

Lane-Pool,
- The Muhammadan Dynasties, Chronological and Geneological tables with Historical introduction, Librairie Orientaliste (Paul Geuthner), Paris VI^e, 1925.
- A History of Egypt in the Middle Ages, J.M. Deut, London, 1925.

Larourt(J.),
- Le Christianisme dans l'Empire Perse sous la dynastie Sassanide, librairie Victor Lecoffre, Paris, 1904.

Latourette(Kenneth Scott),
- A Short History of the far east, 4^th Ed., the Macmillian Company, New York, 1964.

Lemerle(Paul),
- Saint Louis et Byzance, dans Journal Asiatique, T.CCLVII, Paris, 1970.

Lesourd(Paul),
- Histoire des Missions catholiques, Librairie de l'Arc, Paris(6^0), 1937.

Le Strange(Guy),
- The Lands of the Eastern Caliphate(Mesopotamia, Persia, and central Asia from the Moslem Conquest to the time of Timur), therd impression, London(Frank Cass and Co. LTD.), 1966.

Levy(Roger),
- Trente siécles d'Histoire de Chine, P.U.F., 1^ere edition, Paris, 1967.

Lewis(Bernard),
- Les Assassins, éd. Berger-Levrault, Paris, Avril 1982.

Lombard(Denys),
- La Chine imperial, éd. Que Sais-je, P.U.F., Paris, 1967.

Max Van Berchem (M.),
- Épigraphie des Assassins de Syrie, J.A., Paris, Mais-Juin 1897.

Michaud(M.),
- Histoire de croisades, Furne et C^ie, cinquiéme édition, Paris, 1838.

Mouterde(René S.J.),
- Précis d'Histoire de la Syrie et du Liban, éd. de l'imprimerie Catholique, Beyrouth, 1932.

Ostrogorsky(Georges),
- Historire de l'état Byzantin, Payot, Paris, 1977.

Pasdermadjian(H.),
- Histoire d'Armenie des origins jusqu'au traité de Lausan, 2e edition, Librairie orientale H. Samuelian, Paris, 1964.

Pelliot(Paul),
- Sur Quelques mots d'Asie central attéstés dans les texts Chinois,III. Saman, J.A., Paris, (Mars- Avril)1913.
- A propos des Comans, J.A., Paris, (Avril-juin) 1920.
- Les Mongoles et la Papauté, revue de l'Orient chrétien, Imprimerie Nationale, Paris, (1931-1932).

Portal(Roger),
- Les Slaves: Peuples et nations, librairie Armand Colin, Paris, 1965.

Rambaud(Alfred),
- Histoire de la Russie depuis les Origines jusqu'à l'année 1877, Paris, Librairie Hachette et Cie, 1878.

Regnier-Bohler,
- Croisades et Pélerinage, Récit Chronique et Voyages en Terre Sainte XIIe-XVIe siècle, éd. Robert Laffont, Société Asiatique, Paris, 1997.

Richard(Jean),
- Le Debut des Relations entre la papauté et les Mongols de Perse, dans J.A., T.CCXXXVII, Paris, 1949.
- La Papauté et les Missions d'Orient au Moyen Age(XIIIe-XVe siecle), collection de l'école Francaise de Rome, Paris(Palais Farnése), 1977.
- Les Missions chez lea Mongols au XIIIe et XIVe siècle, dans Histoire Universel des missions catholiques: les Missions des Origines au XVIe siécle, librairie Grund, Paris, 4e Trimestre 1956.
- Sur les Pas de Plan Carpin et de Rubrouck: la Lettre de St Louis à Sartaq, Journal des Savants, Publié par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, éd. Klincksieck, Paris, Janvier- Mars1977.

Roux(Jean-Paul),
- Histoire de l'Empire Mongol, librairie Arthem Fayard, Paris, 1993.

Runciman(Steven),
- A History of crusades, first pub., Cambridge university press, London, 1951.
- The Place of Byzantium in the Medieval World, Cambridge

Medieval History, Vol. IV, Great Britain, 1967.
Saint-Martin(J.),
- Mémoire Historiques et Géographiques sur l'Arménie, Paris, De l'imprimerie Royale, 1818-1819.

Sanders(J.T.),
- The History of the Mongol conquests, Cambridge University Press, London, 1871.

Setton(Kenneth M.),
- A History of the crusades, ed. Marshall W. Baldwin, 5 Vol., Philadelphia, 1955-1985.

Spuler (Bertold),
- Les Mongols dans l'Histoire, Paris, Payot, 1961.

Stevenson(W.B.),
- The crusaders in the East, Cambridge University press warehouse, London, 1907.

Vasiliéve(A.A.),
- Histoire de l'Empire Byzantin, Tra. du Russe par P. Brodin et A. Bo-urguina, Edition Picard, Paris, 1932.

هـ- الرسائل الجامعيّة و الأطروحات :

بوعماما(فاطمة).
- العلاقات الخارجيّة لمملكة أرمينيا الصغرى منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتّى سنة1375م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ العصور الوسطى، إشراف د. إبراهيم فخار، جامعة الجزائر، معهد التاريخ، السنة الجامعيّة(1414-1415هـ/1993-1994م).

و- الموسوعات و القواميس:

دائرة المعارف الإسلاميّة.

- تأليف بطرس البستاني، دائرة المعارف، دون طبعة، بيروت، دون تاريخ.

الزركلي خير الدين.

- الأعلام(قاموس التراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب و المستعربين و المستشرقين)، دار العلم للملايين، ط7، بيروت، مايو 1986م.

الموسوعة العربيّة العامّة.

- مؤسّسة أعمال المؤسّسة للنشر و التوزيع، ط2، الرياض، (1419هـ/1999م).

Dictionnaire,

- "le petit Larousse en couleurs", Paris, 1995.

Encyclopédie de l'Islam,

-Publication par C.E. Bosworth, E. van Donzel, B. Lewis et Ch. Pellat, G.-P. Maisonneuve & Larose S. A., Paris, 1986.

-Publication par M. TH. Houtsma, A. J. Wensinck, E. Lévi-Provençal, H. A. R.Gibb et W. Heffening, Paris, Librairie C. Klincksieck, 1934.

Grand Larousse Encyclopedique, Paris VI^{e}, Librairie Larousse, 1968.

Grand Larousse Universel, Paris cedex, Mars 1997.

فهرس الموضوعات

الموضوعات: **ص.**